
الباب الأول

أنا واللغة

الفصل الأول

لغويون تحت الضوء

أبو العلاء المعري والنحو*

شغل المعري الباحثين طويلاً وما زال يشغلهم، ولقي من عنايتهم قدماً وحديثاً - ما لم يلقه من العلماء أو الشعراء إلا القليلون؛ كل يحاول أن يجلو ناحية من نواحي شخصيته، أو يكشف عن جانب من جوانب نبوغه وعبقريته؛ حتى بلغ ما أُلّف فيه المئات من الكتب. ومع ذلك ظلت هناك جوانب عديدة من شخصيته لم يوفها الباحثون حقها من العناية، ولم يقفوا عندها لتمحيصها، ومنها جهوده النحوية. وإنه وإن كانت مؤلفات المعري الخالصة في النحو قد ضاعت فيما ضاع من تراثنا القديم فقد تكفلت كتبه الأدبية التي وصلتنا بحفظ آرائه، والكشف عن شخصيته، ومنها: رسالة الملائكة، ورسالة الغفران، وشرح ديوان الحماسة، ومعجز أحمد، وعبث الوليد، والفصول والغايات.

وكل الذين كتبوا عن نحو أبي العلاء - حتى الآن^(١) - ثلاثة هم الأستاذ إبراهيم مصطفى في بحثه "أبو العلاء المعري وعلم النحو"، الذي ألقاه في المهرجان الألفي لأبي العلاء، والدكتورة بنت الشاطئ في بحثها "الغفران"، والدكتور أجد الطرابلسي في كتابه "النقد واللغة في رسالة الغفران"، ولكنهم جميعاً اعتمدوا اعتماداً كلياً على "رسالة الغفران" وحدها، مع أن باقي مؤلفات المعري لا تقل أهمية عن هذه الرسالة في الكشف عن مذهبه النحوي، ولا سيما "رسالة الملائكة" و"عبث الوليد"، فقد حشدا بالأبحاث النحوية والصرفية مما لا نجد له نظيراً في "رسالة الغفران". ولذا كانت أبحاثهم ناقصة، وأحكامهم خاطئة في كثير من الأحيان، كما سنتعرض له في صلب البحث.

ويبدو أن أبا العلاء قد أظهر ميلاً نحو الدراسات اللغوية بعامة والنحوية بخاصة منذ نعومة أظفاره. فقد بكر إلى درس النحو صبيّاً فدرس "مختصر محمد بن سعدان الضربير الكوفي النحوي، وكتاب الجمل للزجاجي وكتاب الكافي لأبي جعفر النحاس المصري"^(٢).

*نشر بمجلة كلية المعلمين - الجامعة الليبية ١٩٧٢.

(١) كان ذلك حين نشر البحث عام ١٩٧٢.

(٢) إبراهيم مصطفى: أبو العلاء المعري وعلم النحو ص ٣٦٣، ٣٦٤.

ثم ارتحل إلى حلب فقرأ على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب المتنبي، وعلى بعض من أصحاب ابن خالويه وابن جني،^(١) وكان لهما إذ ذاك "آثار مدرسة نحوية عظيمة لها أسلوبها في: بحث التمييز بعنايتها بالقرآن الكريم، وجمع رواياته المختلفة، وتوجيه ما سمي منه شاذاً"^(٢). وقد تأثر أبو العلاء بأسلوب هذه المدرسة - وإن لم يلق أحداً من أئمتها- كما سنرى بعد عند الكلام على رأيه في القراءات. وبعد حلب سافر إلى بغداد للقاء فحول العلم والأدب وللإستفادة من دار الكتب التي كانت موجودة بها.

يقول أبو العلاء في إحدى رسائله: "والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها" ويقول في رسالة أخرى: "وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب.. ولكني آثرت الإقامة بدار العلم"^(٣).

وفي بغداد التقى بعلي بن عيسى الربيعي الذي كانت رياضة النحو آنئذ قد انتهت إليه، والتقى كذلك بأبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري^(٤)

ولم يكتف أبو العلاء بأخذ النحو عن الشيوخ فكان يطلبه كذلك من الكتب. ومن أشهر ما قرأه في هذا الميدان كتاب سيبويه وشرح السيرافي عليه، وكثيراً ما يشير إليهما في كتبه^(٥).

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠، ٥١٥ .

(٢) إبراهيم مصطفى ص ٣٦٤، ٣٦٥ .

(٣) رسائل أبي العلاء ص ٢٨، ٣٤ .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٦، ولكن ياقوتاً في معجم الأدباء ١٢٣/٣ يذكر أن المعري حين دخل على الربيعي قال له الأخير: ليصعد الاصطبل (أي الأعمى بلغة الشام) فخرج المعري مغضباً ولم يعد.

(٥) شرح الحماسة ورقة ٦٦ ورسالة الملائكة ص ١٥ ورسالة الغفران ص ٧٦، ١٠٠، ٢٨٣-

٢٨٤ وغير ذلك.

وأمامنا رسالة من أبي العلاء يجلب إلى خاله ببغداد يطلب منه أن يستنسخ له كتاب سيبويه وشرح السيرافي عليه، ورسالة ثانية إلى أبي عمرو الاستربادي في أمر شرح السيرافي^(١).

وقرأ كذلك كتب أبي على الفارسي "كالحة" و "الإيضاح"، ونقل عنهما في كتبه^(٢).

وقرأ كتب ابن جنبي، وقد ذكره مراراً ونقل عنه في "معجز أحمد" و "شرح ديوان الحماسة"^(٣). وقرأ أيضاً "المقتضب" للمبرد ونقل عنه في رسالة الملايكة^(٤) وبعد أن أحس أبو العلاء الثقة في نفسه جلس يقرئ التلاميذ كتب اللغة والنحو، وتسامع به التلاميذ فالتفوا من حوله، وكانوا يأتون إليه من مسافات بعيدة ليستفيدوا بعلمه وأدبه، وشجع هذا أبا العلاء فألف في النحو كتباً وشروحاً، وأطلق لسانه في النحاة تقدماً وتخطيئاً، وأخذ يبيث آراءه النحوية حتى في ثنايا كتبه ورسائله الأدبية، بل كثيراً ما كان يستوحي من النحو خياله وصوره سواء في شعره أو في نثره الفني^(٥).

مؤلفاته النحوية

أكثر مؤلفات أبي العلاء تعليقات وشروح على بعض المصنفات النحوية التي قرأها في حياته، أو أقرأها بعد أن جلس للتدريس.

(١) ص ٣٦-٣٩ من رسائله.

(٢) رسالة الغفران ص ١٥٢، ١٥٣ ورسالة الملايكة ص ١٢.

(٣) معجز أحمد ورفقات ١٤١، ١٥٥، ١٧٤ وشرح ديوان الحماسة ورفقات ١٠، ٦٣، ٨٧، ١١٨، ١٢٩.

(٤) ص ١٦٠.

(٥) كقوله في إحدى رسائله: "وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدأ نظير الفعل في أنها لا

تنخفض أبداً". وانظر الفصول والغايات ص ١٢٢ واللزوميات ص ٨٧، ١٢٠.

فمن الكتب التي كانت موضع عنايته كتاب " الجمل " للزجاجي، وقد ألف حوله كتباً أربعة هي:

- ١ - تعليق الجليس.
- ٢ - إسعاف الصديق.
- ٣ - عون الجمل.
- ٤ - شرح شواهد الجمل^(١).

ومن الكتب التي عنى بها كتاب الكافي لأبي جعفر النحاس المصري، وقد علق عليه أبو العلاء في تصنيف عنوانه :

- ٥ - قاضي الحق^(٢).
- ٦ - وله كتاب يتصل بمختصر محمد بن سعدان اسمه المختصر الفتحي^(٣).
- ٧ - وله كتاب في النحو يتصل بالكتاب المعروف بالعضدي ولقبه ظهير العضدي^(٤).
- ٨ - وألف شرحاً لسيبويه ولكنه لم يتم منه سوى خمسين كراسة^(٥).
- ٩ - كما ألف تفسيراً لأمثلة سيبويه وغريبها^(٦).

وله مؤلفان مستقلان في النحو هما:

- ١ - مختصر سماه " الحقيير النافع " مقداره خمس كراريس.
- ٢ - " الطل الطاهري " وهو كتاب يتصل بالمختصر السابق^(٧).

(١) تعريف القدماء ص ٤٦، ٣٣٤، ٥٤٠ وياقوت ١٥٧/٣، ١٥٨، ١٦٠.

(٢) ياقوت ١٥٨/٣.

(٣) ياقوت ١٥٨/٣.

(٤) ياقوت ١٦٠/٣.

(٥) ياقوت ١٦٠/٣. والكراسة في عرف الأقدمين عشرون صفحة.

(٦) تعريف القدماء ص ٥٤٠.

(٧) ياقوت ١٥٨/٣ وتعريف القدماء ص ٤٧، ٥٣٨.

وقد ضاعت كل هذه المؤلفات -مع الأسف- ولم يصلنا منها سوى أسمائها، ولعل الأيام تكشف لنا عن بعضها.

اتجاهاته النحوية

ليس من همنا أن نقدم في الصفحات التالية نحواً لأبي العلاء، وإنما همنا أن نعرض الأسس التي بنى عليها أبو العلاء تفكيره النحوي.

وقد استخلصنا هذه الأسس بعد تتبعنا لآرائه النحوية والصرفية المتناثرة في كتبه الأدبية التي وصلتنا. وسيخرج القارئ بعد مصاحبتنا في هذه الجولة في نحو أبي العلاء أن أبا العلاء لم يكن ذا نزعة طائفية، ولا متعصباً لمدرسة نحوية دون الأخرى، وإنما كان متحرراً من قيود الحزبية، ناظراً إلى العلم نظرة خالصة، لا تشوبها عاطفة مذهبية، ولا تفسدها عصبية إقليمية.

ونتيجة لهذا جاء مذهبه في النحو مذهباً خاصاً يقوم على الموازنة والبحث والتحليل، وعلى ترك المقدمات لتسلم إلى النتائج دون تدخل أو توجيه.

وأهم الاتجاهات التي أمكننا أن نستخلصها في نحو أبي العلاء ما يأتي:

- ١ - كراهيته للتكلف والتأويل.
 - ٢ - توسعه في القياس.
 - ٣ - احترامه للقراءات.
 - ٤ - استشهاده بالحديث النبوي.
 - ٥ - استبعاده من الضرورات الشعرية كل ما للشاعر مندوحة عنه.
- وإليكم تفصيل ذلك:

كراهيته للتكلف والتأويل:

أولع النحاة من قديم بالتأويل والتقدير، وقلما تخلو صفحة في كتبهم من تأويلاتهم البعيدة، وتخريجاتهم العجيبة، مما أفسد النحو العربي، وملأه بمسائل ومشاكل لا نحتاج إليها في تصحيح نطقنا وتقويم لساننا.

ولم يكن هناك ما يغيظ المعري أكثر مما كان يقرؤه ويسمعه من تأولات النحاة وتكلفاتهم وتخريجهم بعض الأبيات على غير حقيقتها للاستشهاد بها على آرائهم الخاصة.

وكثير من نقده ينصب على هذا الجانب من نحو النحاة. وقد صوب المعري معظم سهامه إلى نخاة البصرة الذين أكثروا من التأويل والتقدير، وتعسفوا غاية التعسف في تخريج كثير من الشواهد لتستقيم مع أصول مذهبهم .

وقد امتلأت مؤلفات المعري بأمثلة لذلك ، ولكننا سنكتفي بعرض نماذج منها .
ولنبداً بشيخ النحاة سيبويه لنرى ما أصابه من سهام أبي العلاء :

١ - يروي سيبويه في الكتاب بيت النابغة الجعدي:

فليس بمعروف لنا أن نردها صحاحا ولا مستنكر أن تعقرا

ويجيز فيه مستنكراً بالنصب ومستنكر بالجر ويتكلم في توجيه ذلك.

ولكن المعري لا يستسيغ الجر لأنه يحوج إلى تأويل وتقدير نحن في غنى عنه، فيجري حواراً في رسالة الغفران بين صديقه ابن القارح والنابغة الجعدي حول إعراب "مستنكر" ينتهي إلى إنكار رواية الجر.

يقول المعري: "يقول ابن القارح مخاطباً نابغة بني جعدة... أتقول ولا مستنكراً

أم مستنكر فيقول الجعدي بل مستنكراً، فيقول الشيخ: فإن أنشد منشد مستنكر ما تصنع به ؟ فيقول : أزره وأزره نطق بأمر لا يخبره .

فيقول الشيخ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أرى سيبويه إلا وهم في هذا البيت؛

لأن أبا ليلي أدرك جاهلية وإسلاماً، وغذي بالفصاحة غلاماً" (١).

ولكي نفهم سر إنكار المعري للجر ينبغي أن نبسط الكلام في هذه المسألة حتى لا

نخطئ الجادة كما أخطأ غيرنا فنقول: ينص سيبويه على أن الخبر المشتق لا بد من أن

يتحمل ضمير مبتدئه، أو يكون رافعاً لمتصل بضمير المبتدأ، أو رافعاً لاسم ظاهر هو عين المبتدأ. وينص كذلك على أن ما عطف على الخير حكمه حكم الخبر في ذلك^(١).
 فنحو "ليس بقائم أبو هند ولا قاعدة أمها" يمتنع فيه خفض "قاعدة" عطفاً على لفظ الخير سواء جعلت "أمها" فاعلاً للوصف قبلها، أو معطوفاً على اسم ليس؛ أما الأول فلأن هذا المعطوف ليس متصلاً بضمير يربطه بالمحدث عنه، وهو اسم ليس؛ وأما الثاني فلما يلزم عليه من العطف على معمولي عاملين مختلفين، وهو غير جائز عند سيبويه والجمهور.

وقد جعل المعري قول النابغة من هذا القبيل، فمنع الخفض في المعطوف، سواء جعل المرفوع بعده فاعلاً به، أو معطوفاً على الاسم. أما سيبويه فأجاز فيه الخفض على تأويل يجعل الثاني من سببي الأول، بأن أعاد الضمير في "أن تعقرا" على اسم ليس، وهو "الرد" المضاف إلى ضمير الخيل المأخوذ من "أن نردها"، بعد أن نزل رد الخيل منزلة الخيل، فكانه قال: ليست بمعروفة لنا الخيل. وأعاد الضمير مؤنثاً على اسم ليس لأنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه. ثم راح سيبويه يستشهد على اكتساب المضاف المذكر التأنيث من المضاف إليه بشواهد من القرآن والشعر العربي^(٢).

وقد بان من هذا أن حملة أبي العلاء في هذه القضية يصبها على سيبويه لتكلفه وإبعاده في التكلف، وليس كما قال الأستاذ إبراهيم مصطفى، وتبعته فيه الدكتور بنت الشاطي من أنه يرجع إلى بغضه للقياس، وضيقة به، واعتقاده أن "نخاة البصرة بقياسهم قد قولوا العرب ما لا يقولون، وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون"^(٣)، فقد كان المعري قياساً يتوسع في القياس، ويمضي به إلى أبعد حدوده كما سنرى فيما بعد.
 ٢ - ويذهب سيبويه في قول عدي بن زيد:

(١) تفصيل ذلك الكتاب ٣٠/١، ٣١.

(٢) تفصيل ذلك: الكتاب ٣٢/١، ٣٣ وشرح السيرافي ٣٤٨/١، وانظر المقتضب للمبرد ص

٧٩٢-٧٩٤.

(٣) المهرجان الألفي ص ٣٦٧، ٣٦٨ والغفران ص ٢٢٦.

أرواح مودع أم بكور أنت فانظر لأي حال تصير

إلى أن "أنت" يجوز أن ترفع على فعل مضمّر يفسره ما بعده ^(١)، فيقول المعري موجهًا الخطاب لعدي: "وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنك أردته" ^(٢). ولم يذكر المعري ماذا يختاره في إعراب "أنت"، وإن كنا نستنتج من طريقته في التناول أنه يختار رفعها محلاً على الابتداء وخبرها "فانظر" على زيادة الفاء.

ونحب هنا أن ننسب إلى أن تقد المعري لرأي سيوييه في هاتين المسألتين لا يعني أن هذا هو موقفه منه دائماً، ولا يعبر عن رأيه العام فيه، وأنا إذا أردنا أن نعرف رأي المعري في سيوييه فعلينا أن نجمع إلى هاتين المسألتين غيرهما مما ورد في مؤلفات المعري، ثم ننسب حكماً بالنظر إليها جميعاً. نقول هذا لأن من الباحثين من تسرع فاستنتج من هذين التقدين رأي المعري في سيوييه فقال: "وأما تقديره لسيوييه رحمه الله فإنه لم يزل يتعرض له بالنقد والتخطئة" ^(٣) ولو كلف الباحث نفسه الاطلاع على سائر مؤلفات المعري لغير حكمه، ولبان له أن المعري يحلّ سيوييه ويقدره ويدافع عنه في أحيان كثيرة: أ - فهو يؤيده في نصب الجماعة في قول راعي الإبل:

أيام قومي والجماعة كالذي لزم الرحالة أن تميل ممبلاً ^(٤)

ب - ويصفه بأرفع الصفات في رسالة الغفران ^(٥).

ج - ويثق في نقله، كقوله: "وهذا بناء مستنكر لم يذكر سيوييه له نظيراً" ^(٦).

(١) الكتاب ١/٧١.

(٢) رسالة الغفران ص ٧٦. وانظر رأي المعري في منع سيوييه أن يلي كان معمول الخبر: عبث الوليد ص ٨٠.

(٣) المهرجان الألفي: إبراهيم مصطفى ص ٣٦٧.

(٤) رسالة الغفران ص ١٦٣، ١٦٤.

(٥) ص ٣٦٤.

(٦) رسالة الملائكة ص ٢٦، وانظر كذلك ص ٢٠٠.

د - وينصره على المبرد مبيئاً وجهة نظره في أن أصل " دم ": دمي^(١) .
هـ - ويؤيد سيبويه في أصالة النون من " شيطان " وأن وزنه " فيعال " (٢) . وغير ذلك كثير.

٣ - وندع سيبويه لنرى ذلك المشهد اللطيف الذي أبدعه خيال أبي العلاء فنرى فيه أبا علي الفارسي وقد أحاط به الشعراء في الجنة وهم يلومونه أشد اللوم على تأويله أشعارهم على غير ما قالوه. قال أبو العلاء على لسان صديقه ابن القارح: " وكنت قد رأيت في المحشر شيئاً لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي، وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأولت علينا وظلمتنا.. منهم يزيد بن الحكم الكلابي وهو يقول: ويحك أنشدت عني هذا البيت برفع الماء يعني قوله:

فليت كفافاً كان شرك كله وخيرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

ولم أقل إلا " الماء ". وكذلك زعمت أنني فتحت الميم في قولي :

تبدل خليلاً بي كشكلك شكله فإن خليلاً صالحاً بك مقتوي

وإنما قلت "مقتوي" بضم الميم... وإذا رجل آخر يقول: ادعيت عليّ أن الهاء راجعة إلى الدرس في قولي :

هذا سراقه للقرآن يدرسه والمرء عند الرشا إن يلحقها ذيب

أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك ؟ وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله" (٣)

٤- ومن هذا الباب أيضاً حملة المعري على أبي سعيد السيرافي، فقد كان يروي الأبيات المنسوبة إلى آدم هكذا:

(١) المرجع السابق ص ١٦٠، ١٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٣) رسالة الغفران ص ١٥٢-١٥٤ . ولمزيد من التفصيلات راجع خزانة الأدب ١/٢٢٧، ٣/

٣٢٨، ٣٩٠/٤، ٣٩٤ والحجة ١٦/٣ وشرح الأعلام للكتاب ١/٤٣٧ .

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيحُ

وأودى ربع أهلها فبانوا وزال بشاشة الوجهُ المليحُ

بنصب "بشاشة" على التمييز، وحذف التوین لالتقاء الساكنين، ورفع "الوجه" على الفاعلية تجنباً للإقواء. فقال أبو العلاء: قلت أنا: هذا الوجه الذي قاله أبو سعيد شر من إقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة^(١).

وإذن فقد كان أبو العلاء يكره التكلف، ويبغض التأويل، ويرد روايات النحاة المعقدة، ويختار منها ما كان أيسر قبولاً وأقل كلفة. وتلك خطة قويمه وسبيل حكيمة لو اهتدينا بهديها لتخلصنا من كثير من المشاكل التي ترهق الطلاب وليس وراءها طائل، ولجنبنا أنفسنا الحوض في كثير من الخلافات الشكلية التي لا جدوى منها، ولقطعنا شوطاً كبيراً في سبيل تيسير النحو وإصلاحه.

توسعه في القياس:

كان للقياس أهمية كبيرة في نشأة النحو العربي، وغزارة مادته، واستخلاص قواعده، وضبط أحكامه حتى قال ابن الأنباري: "اعلم أن إنكار القياس في النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس.. فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو"^(٢). وهذه كلمة حق؛ فنحن لا نتصور نحواً بغير قياس، ولا نعرف أحداً من النحاة قد ناقش مبدأ القياس في النحو أو طالب بإلغائه^(٣)، وإنما النحاة يختلفون في أمره تضييقاً وتوسيعاً.

(١) رسالة الغفران ص ٢٨٤ وانظر شرح كتاب سيبويه للسيرافي ١/٢٢٣.

(٢) الاقتراح ص ٤٦.

(٣) أما ما رده ابن مضاء القرطبي في كتابه الرد على النحاة، وما نادى به من ضرورة إلغاء القياس (ص ١٥٦ وما بعدها) فليس مما نحن فيه في شيء. وإن سماه ابن مضاء قياساً، وإن سلكه بعض الباحثين في أنواع القياس (الخضر حسين: القياس في اللغة ص ٢٥). فهو في الحقيقة نوع من التعليل المنطقي، وقد مثل له ابن مضاء بما ادعوه من أن الفعل المضارع أعرب لشبهه =

وقد عرف البصريون بأنهم يضيقون أمر القياس فلا يقيسون على القليل إذا وجد ما يعارضه، ولا يعولون على القياس النظري عند فقد الشاهد إلا نادراً. أما الكوفيون فكانوا على العكس من ذلك يتوسعون في القياس إلى أقصى حدوده، وقد يكتفون بالشاهد الواحد يقيسون عليه ولو خالف الأصل المعروف، وربما وضعوا القاعدة بالقياس النظري دون ورود لمطلق شاهد^(١).

ولهذا فنحن نبادر فنرفض ما قيل من أن المعري كان لا يرضى عن فكرة القياس، وأن أكثر نقده لنحاة البصرة يرجع إلى أنهم "بقياسهم قد قولوا العرب ما لا يقولون، وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون"^(٢).

وإنما الذي تقف عنده لناقشه ما قاله الأستاذ إبراهيم مصطفى ورددته الدكتورة بنت الشاطىء من أن المعري كان ينفر من المدارس النحوية البصرية، ويضيق بما فيها من قياس، وأن من أشد ما ضاق به المعري المضي مع القياس مضيماً ينتهي إلى أن يجيز في العربية ما ليس منها، وما قالته الدكتورة بنت الشاطىء من أنه كان "يلتزم السماع في اللغة، ويكره التأول والقياس"^(٣).

فهل هذا صحيح؟ وهل كان المعري من المضيقين حقاً في أمر القياس؟

لقد استند هؤلاء الذين قالوا بضيق المعري بالقياس إلى عبارة وردت في رسالة الغفران تناولت بالنقد إجازة سيبويه جر "مستكر" في بيت النابغة السابق ذكره، فقالوا إن ذلك راجع لضيقه بالقياس البصري.

=بالاسم أو قياساً على الاسم، وما ادعوه في باب الممنوع من الصرف من أن الاسم يمنع من الصرف حملاً على الفعل أو قياساً على الفعل.

وهذا النوع من التعليل إن صح تسميته قياساً فليس مراداً لنا، ولا يعنينا في شيء لأنه ليس ذا أثر لفظي، فلنسا حريصين على التمسك به، أو الإبقاء عليه.

(١) انظر في تفصيل ذلك وفي الموازنة بين المذهبين: نشأة النحو ص ٦٩، ٧٨، ٨٦، ٨٧.

(٢) المهرجان ص ٣٦٨.

(٣) المهرجان ص ٣٧٠، ٣٧١، والغفران ص ٢٢٤-٢٢٧.

وقد ناقشنا هذه الدعوى فيما مضى وأثبتنا أن مخالفة المعري لسيبويه هنا ترجع لسبب آخر ليس من القياس في شيء.

والآن نريد أن نسأل القائلين بضيق المعري بالقياس: ماذا تعنون بكلمة قياس؟ إن القياس في النحو على أنواع؛ فهو يطلق ويراد به:

أولاً: حمل كلمة على نظائرها في حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب.

ثانياً: إعطاء كلمة حكماً ثبت لغيرها من الكلم المخالف لها في نوعها ولكن توجد بينهما مشابهة من بعض الوجوه؛ كترخيم المركب المزجي قياساً على الأسماء المنتهية بتاء التانيث^(١).

ثالثاً: القياس النظري الذي لا يعتمد على شاهد من كلام العرب.

فأي هذه الأنواع تريدون؟

لا يمكن أن تريدوا الأول إذا كانت النظائر كثيرة؛ فالإجماع منعقد على صحته هو والذي سماه ابن جني "المطرّد في القياس والاستعمال جميعاً"^(٢). فهل تريدونه إذا كانت النظائر قليلة في كلامهم؟ ولكن ما معنى ضيق المعري إذن بالأقيسة البصرية، وهي لا تقيس على القليل؟

وأياً ما كان مرادهم فنحن لا نرى رأيهم؛ فقد وجدنا أبا العلاء بعد أن تتبعنا آراءه النحوية- يقيس على القليل، ويجيز في العربية ما ليس منها بمقتضى القياس النظري، ويعطي كلمة حكماً ثبت لغيرها لمشابهة بين الكلمتين، فهو كما قال الدكتور أمجد الطرابلسي: "كثيراً ما يضرب عن قدسية السماع صفحاً"^(٣).

وعلينا الآن أن نستدل لما نقول:

١ - يمنع النحويون الوصف بالمصدر، ويعدون ما ورد من ذلك من قبيل المسموع الذي لا يقاس عليه. ولكن المعري يرى قياسيته:

(١) الخضر حسين: القياس في اللغة ص ٢٧ .

(٢) الخصائص ٩٧/١ .

(٣) النقد واللغة ص ٢٠٩ .

أ - فهو يقول في بيت البحري:

قدت الفلوة الخضراء منه شبهاً مثلما يقدر الشراك

يقول: "الأصل في هذا فلوَ بالتشديد، وقلما يقولون فلو بتخفيف الواو، والعامّة تستعمله. وله وجه من القياس؛ لأن الفلو إذا كان مأخوذاً من فلوته... جاز أن يقال له فلو فينعت بالمصدر.. كما يقال زُور.. ورجل ضيف" (١).

ب - ويقول في قول البحري أيضاً.

والمرء طاعة أيام تنقله تنقل الظل من حال إلى حال

يقول: "يجوز أن يجعل (طاعة أيام) خبر المرء؛ والمعنى: المرء صاحب طاعة للأيام.. وهم يستعملون مثل ذلك في المصادر كثيراً" (٢).

ج - وينصب "التفأناً" في قول الحماسي:

فلما أعادت من بعيد بنظرة إلى التفأناً أسلمته المحاجر

على الحالية، أي ملتفتة.

د - ويجيز في قول الآخر:

إني سأستمر ما نوا العقل ساتره من حاجة وأميت السر كتماننا

أن ينصب "كتماننا" على الحال (٣).

٢ - وقد بلغ من توسعه في القياس أن أجاز في العربية ما ليس منها بمقتضى القياس النظري، فهو يقول في رسالة الملائكة: "ولا أمتع أن يجيء الفعل على (فَعْلُن) وإن كان المتقدمون لم يذكروه؛ لأن الاسم إذا جاء على ذلك وجب أن يجيء عليه الفعل إذ كان الاسم أصلاً، والفعل متفرع منه. وقد قالوا ناقة رَعَشَن .. وامرأة خَلين" (٤).

(١) عبث الوليد ص ١٦٣ .

(٢) عبث الوليد ص ١٨١ .

(٣) شرح الحماسة ورقة ١٤٢ او ١٦٠ .

(٤) ص ٢٦٣ .

وأمامنا أبو علي الفارسي في "الحجة" يمنع أن يكون "شيطان" زائد النون؛ لأن وزن "فعلن" غير معروف (١).

٣ - حكى المعري خلافاً بين النحاة في مفرد "أندية" في قول الشاعر:
في ليلة من جمادى ذات أندية

وبعد أن نقل رأي ابن جني والمبرد وغيرهما قال: "وذهب آخرون إلى أنه كسر فعلاً على أفعلته وركب مذهب الشذوذ"، ثم قال: " وهذا وإن كان شاذاً فإن له عندي وجهاً من القياس صالحاً، ونظيراً من السماع مؤنساً.

أما السماع فقولهم في تكسير (قفا) و(رحى) أقبية وأرحية.. وأما وجه القياس فإن العرب تجري الفتحة مجرى الألف؛ ألا تراهم لم يقولوا في الإضافة إلى جَمَزَى... إلا بحذف الألف: جَمَزَى.. كما قالوا في حبارى: حبارى.. فكأن فعلاً هذا فعّال، وفعّال مما يكسر على (أفعلة) كقذال وأقذلة، وغزال وأغزلة" (٢).

وأنت ترى هنا كيف قاس أبو العلاء على القليل، وكيف أعطى فعلاً حكم فعّال المخالفة لها في نوعها، إجراء للفتحة مجرى الألف. فهل هناك توسع في القياس أكثر من هذا؟

٤ - ويجيز المعري إجراء الظن مجرى القول في حكاية الجمل بعده قياساً عليه. يقول في بيت البحري:

وقد زعموا مصرأً معاناً من الغنى...

يقول: "يتعذر رفع مصر في البيت إلا أن يجعل زعموا في معنى قالوا، وليس ذلك بمعروف.. إلا أن القياس يوجبه" (٣).

٥ - ويمنع النحويون استقبال القسم بلن، ولكن أبا العلاء يجيزه، فهو يقول في بيت البحري:

(١) الحجة ١٨/٢ .

(٢) شرح الحماسة ورقة ١٩١ .

(٣) عبث الوليد ص ١١٣ .

لن ينال المشيب حظوة ود حيث يشجو طرف ويحور طرف

يقول: "استقبل القسم بلن لأنه قال: أي وسعي الحجيج. وهذا عند النحويين لا يجوز لأن(لن) لا يستقبل بها القسم.. ولو قال لا ينال لاحتمل، ولن يبعد في القياس أن يوضع لن موضع لا في هذا الموضع لأنهما في النفي متشاركتان^(١).

٦ - وهو يخرج على المسموع حين يجيز همز الواو الثانية في نحو "شور" حيث يقول في قول البحري:

ثلاثة جلة إن شووروا نصحوا...

يقول ما نصه: "شووروا بواوين. ولا يجوز إدغام الأولى في الأخرى على مذهب النحويين لأن الواو منقلبة عن ألف فاعل.. والنطق بشوور وبابه ينفر منه الطبع. والغريزة تفر إلى همز الواو الثانية.

وما علمت أن ذلك حكاه أحد لأن الواو المكسورة إنما تهمز إذا وقعت أولاً مثل وشاح وإشاح.. فأما إذا وقعت في غير الأوائل فهي مُقرّة على حالها مثل قولهم... مراد في جمع مرود"^(٢).

٧ - ويرى المعري أن القياس يبيح دخول "أل" على "كل" و"بعض"؛ ولذا فهو لا يمنعه حيث يقول: "كان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخال الألف واللام على كل وبعض.. والقياس يوجب دخول الألف واللام على كل وبعض"^(٣).

٨ - وهو يرى قياسية تعدي الفعل بالهمزة حتى ولو كان متعدياً، فهو يقول: "والمقدمون من أهل اللغة ينكرون أكسبته مالا.. والقياس يسوغ أكسبه لأن الهمزة مما يعدي به الفعل"، ويقول: "والفعل يعدي بالهمزة، فإذا قال: بذ فرسك الخيل فأراد

(١)المرجع ص ١٥٢ . والبيت الذي وقع فيه القسم يقع قبل البيت المقتبس ونصه :

أي وسعي الحجيج حين سعوا شعنا وصف الحجيج ساعة صفوا

(٢)المرجع ص ١٨٣ .

(٣)المرجع ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

أن يعدي الفعل إلى مفعولين قال: أبذذت فرسك الخيل" (١). وتعدية الأفعال بالهمزة وبخاصة ما كان منها متعدياً يقصره معظم النحويين على السماع (٢).
 وإذن فلم يكن أبو العلاء ممن يضيّقون بالقياس صدرًا كما يقولون، وإنما كان من أنصاره والمتوسعين في استخدامه، الذين يمضون به إلى أبعد أماده وأقصى إمكانياته. وقد خلصنا المعري بذلك من كثير من الخلافات بين النحاة حول المقيس والمسموع، والتي يرجع أكثرها إلى عدم تحديد مدلول القلة والكثرة تحديداً يزيل ما حولها من غموض وإبهام .
 كما أنه بتوسعه في القياس قد وسع في أصول اللغة، ونمى من مواردها، وفتح طرقاً يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته، كما صحح كثيراً من العبارات التي شاع استعمالها ولا نظير لها من السماع بأن التمس لها في القياس وجهاً تصح به.

احترامه للقراءات:

اختلف النحويون من قديم في شأن القراءات؛ فكان بعضهم يجترئ على نقدها ونسبة الخطأ إليها إذا خالفت مذهبه النحوي، وكان بعضهم لا يقدم على ذلك، ويلتمس لكل قراءة وجهًا - وإن كان بعيداً- في العربية (٣).
 ومن الفريق الأول القراء والزجاج والمبرد والزحشري. فالقراء ينكر قراءة "مصرخي"، ويرى أنها من وهم القراء. والزجاج يصف هذه القراءة بأنها رديئة مرذولة (٤). والمبرد يقول في قراءة حمزة "الذي تساءلون به والأرحام": "لو صليت خلف إمام يقرأ ذلك لأخذت نعلي ومضيت" والزحشري يقول فيها: "والجر على

(١) عبث الوليد ص ٢١٢ .

(٢) انظر محاضر جلسات المجمع اللغوي ٣٥١/١ .

(٣) رسالة الملايكة ص ٢٠٠ .

(٤) الخزانة ٢/٢٥٨، ٢٥٩ وتفسير القرطبي ٣٥٧/٩ .

عطف الظاهر على المضمرة وليس بسديد" (١). وحجة هؤلاء أن الذين نقلوا القراءات كان فيهم قوم أدركوا زمن الفصاحة فجاءوا بها على ما يجب، وقوم سبقتهم الفصاحة ولم يكن لهم علم بقياس العربية فلحقهم الوهم (٢).

أما الفريق الثاني فكان من أئمنه ابن خالويه وابن جني وأبو علي الفارسي. وهؤلاء يرون أن القراءة متى صح سندها ووافقت وجهاً من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحاً مجتمعاً عليه أو مختلفاً فيه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن سواء كانت عن السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم (٣). وحثهم في ذلك "أن القراءة سنة" وأن "الرواية تصلها إلى رسول الله" (٤).

فمن أي الفريقين أبو العلاء؟

نستطيع بعد طول البحث والاستقصاء أن نحكم بأنه من الفريق الثاني الذي يحترم القراءات ويقدها ويردها دائماً إلى الرواية، فهو يقول: "والقراءة سماع وقياس واختيار. فإذا سمع الحرف وكان السامع له من أهل المعرفة قاسه على نظائره بعد صحة الخبر فيه فإذا وضح له أنه مستقيم كان الاختيار بعد ذلك إليه". ويقول: "والقراء لم يطالبوا بأن يحملوا القراءة على ما يجوز في كلام العرب.. بل قراءتهم مردودة إلى الرواية" (٥).

ولذلك نراه عند تعرضه لإحدى القراءات يحاول تحريجها، ويجهد في توجيهها بما يوافق لغة من لغات العرب؛ فهو يوجه قراءة "فاتبعوني يحببكم الله" بأنها على لغة من قال في الماضي حبيت، ويستشهد على ذلك من كلام العرب. ويوجه قراءة: "بالعشي

(١) القرطبي ٣/٥ والكشاف ١/١٥٧.

(٢) رسالة الملائكة ص ٢٠٠.

(٣) ابن الجزري: النشر ١/٩-١٠ والدمياطي: إتحاف فضلاء البشر ورقة ١٣.

(٤) الحجة ١/٢٨ والمحتسب ورقة ٢.

(٥) رسالة الملائكة ص ١٨٨.

والأبكار" على أنها جمع بَكَرَ أو بُكَرَة على طرح الهاء كجمع نعمة على أنعم وشدة على أشد^(١). ومن ذلك توجيهه لقراءة من همز الواو في "سوق" بأنها على لغة من يهمز الواو لمجاورة الضمة كقول جرير:

أحب المؤقدين إليّ مؤسي^(٢)

وتوجيهه لقراءة "وقولوا للناس حسنى" بأنها على قياس قول سيبويه إن "أخرى" معدولة عن "الأخرى" أو أن "حسنى" مصدر بمنزلة الحسن أو اسم مصدر. وأمامنا سعيد بن مسعدة والزجاج وغيرهما يحكمون على هذه القراءة بالخطأ^(٣).

وأخيراً نشير إلى توجيهه لقراءة "وما تنزلت به الشياطين"، فقد حكى عن بعض العلماء أنه سمع أعرابياً يقول: هذه بساتون بني فلان، مع أن ابن جني - مع ما عرف عنه من توجيهه للقراءات حتى ألف كتاباً في ذلك أسماء المحتسب - يقول عن هذه القراءة إنها غلط^(٤).

وهو يرى أنه لا يصح رفض القراءة بعد أن تستكمل شروط القبول، ولذا فهو يلقن النحاة درساً في القراءات؛ ويبين لهم فساد منهجهم في رد القراءة مع أن القرآن ليس بموضع ضرورة.

يقول المعري على لسان الحية الفقيهة: "فلما توفي أبو عمرو كرهت المقام فانتقلت إلى الكوفة، فأقمت في جوار حمزة بن حبيب فسمعتة يقرأ بأشياء ينكرها عليه أصحاب العربية كخفض "الأرحام"، وكسر الياء في "وما أنتم بمصرخي"، وكذلك سكون الهمزة في "ومكر السيء".

(١) رسالة الغفران ص ٢٤٠ و ٢٨٩ .

(٢) رسالة الملائكة ص ١٢ .

(٣) المرجع ص ٣٣ .

(٤) عبث الوليد ص ٢٢٦ والمحتسب ورقة ١١٨ .

وهذا إغلاق لباب العربية لأن الفرقان ليس بموضع ضرورة وإنما حكى مثل هذا في المنظوم^(١).

فهو يرى صحة هذه القراءات التي ردها النحاة كما سبق أن ذكرنا، ويرى أن في إنكارها تضييقاً لواسع وإغلاقاً لباب العربية، وهو يعلل هذا بقوله: "لأن الفرقان ليس بموضع ضرورة"؛ فمعناه أن هذه القراءات التي نقلت إلينا يجب أن تتقبلها ولا نردها بضرورة أو نحوها لأنه ليس هناك ما يدفع القاريء من وزن أو قافية إلى ارتكاب محذور، أو يفرض عليه نوعاً من التعبير قد يخالف الأسلوب القويم. وإنما الضرورة محلها المنظوم.

ولا يعكر على هذا الفهم لعبارة المعري قوله فيما سبق "فسمعته يقرأ بأشياء ينكرها عليه أصحاب العربية" وقوله في مكان آخر: "وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حمزة وما أتم بمصرخي"^(٢) لأنه ناقل -وكونه صادقاً في هذا النقل أو غير صادق قضية أخرى- وناقل الكفر ليس بكافر.

كما لا يعكر عليه وصفه بعض القراءات بأنها رديئة كما قال في قراءة ابن مسعود "وله الجوارُ المنشآت"^(٣). فهو يعني بذلك أنها ليست في المرتبة العليا من الفصاحة، وأن هناك ما هو أفصح منها. ونحن لا ندعي -ولا غيرنا- أن القراءات جميعها على درجة واحدة من الفصاحة وإنما نرى أنها تتفاوت فيما بينها في درجات الفصاحة كما تتفاوت اللهجات العربية نفسها التي نزلت القراءات موافقة لها.

ولا يعد كذلك خروجاً على هذا المنهج ما قاله عن قراءة "أفئيدة" ووصفه هذا اللفظ بأنه على "بناء مستنكر لم يجيء مثله في الآحاد ولا في الجموع"^(٤)؛ إذ معناه أن هذا الوزن لم ينقل سماعه في كلام العرب، كما قال في وزن كمثرى إنه بناء مستنكر لم

(١) رسالة الغفران ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) المرجع ص ٣٩٣.

(٣) عبث الوليد ص ٢٢٨.

(٤) رسالة الملايكة ص ٢٠٠.

يذكر سيبويه له نظيراً^(١) مع اعترافه بصحته وفصاحته. ولا يعني بهذا الطعن على هذه القراءة وإنما يريد أن يقول إن هذه الكلمة جاءت على وزن غير معهود. والمعري في هذا لا يحكم رأيه، وإنما يحكم النقل والسماع اللغوي عن الثقات. ومنهج أبي العلاء في قبول القراءة وتوجيهها والتماس وجه لها في العربية تحمل عليه منهج قويم لا ينبغي العدول عنه. ولهذا يقول السيوطي في الاقتراح: "أما القرآن فكلمة ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية"^(٢).

استشاده بالحديث النبوي:

وموقف النحاة من الحديث شبيه بموقفهم من القراءات فمنهم من يرفض الاستشهاد به ومنهم من يستشهد به^(٣). أما أبو العلاء فكان موقفه صريحاً إذ كان يستشهد بالحديث في مسائل اللغة والنحو وأحياناً يورد في الصفحة الواحدة أكثر من حديث. ولعل خبرته بأصول التحديث واشتغاله برواية الحديث، وسماعه الحديث بالشام عن الثقات^(٤) جعله يطمئن إلى سلامة لفظ ما استشهد به، وصحة نسبته إلى الرسول أو الصحابي، فلم يجد حرجاً في الاستشهاد به كما وجد بعض النحاة.

والأحاديث التي استشهد بها أبو العلاء كثيرة ولذا سنكتفي بذكر بعضها ونحيل إلى بعضها الآخر. فمما استشهد به قول الرسول "من فوق سبعة أرقعة"، وقد استشهد به على أن الرقيع: السماء وأنه لفظ مذكر لتأنيث العدد ولجاء الجمع على أفعله. إذ لو كان مؤنثاً لكان الواجب أن يقول من فوق سبع أرقع؛ لأن فعلاً إذا كان للمؤنث يجمع على أفعل.

(١) المرجع ص ٢٦ .

(٢) ص ١٧ .

(٣) راجع خزانة الأدب ٥/١، ٦ .

(٤) راجع تعريف القدماء ص ٢٠٠، ٥٢١-٥٢٤ .

كذلك استشهد على أن "الشرح" جمع شارخ بالحديث المرفوع: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بسرية فأمرهم أن يقتلوا شيوخ المشركين ويستبقوا شرخهم^(١). وموقف أبي العلاء في الاستشهاد بالحديث موقف شديد، وإذا كانت الرواية بالمعنى هي السبب في ترك من ترك الاستشهاد بالحديث فقد كان من الرواة من يتمسكون بجرفية النص، وحتى على فرض وقوع الرواية بالمعنى فقد تم ذلك في الصدر الأول قبل فساد اللغة حين كان كلام أولئك المبدلين حجة كذلك^(٢).

الضرورة الشعرية:

اختلف النحويون في حد الضرورة الشعرية فذهب الجمهور إلى أنها "ما وقع في الشعر مما لم يقع في النثر سواء كان للشاعر عنه مندوحة أم لا"، ومذهب ابن مالك، وهو الصحيح عن سيوييه، وما يشعر به كلام ابن الحاجب أنها "ما ليس للشاعر مندوحة عنه"^(٣).

ويبين أثر الخلاف فيما جاء في الشعر ووجدت فيه المندوحة، فالجمهور يقصره على السماع وابن مالك يقيس عليه. ولذلك "أجاز وصل أل بالمضارع قليلا ولم يجعله ضرورة استدلالا بقول الشاعر:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته

لتمكنه من أن يقول: "المرضي حكومته". وحيث لم يقل ذلك مع الاستطاعة ففي ذلك إشعار بالاختيار وعدم الاضطرار"^(٤).

(١) الفصول والغايات ص ٢٨، ٣٧٩ وانظر كذلك الصفحات ١١٤، ١٩١، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٩، ٣٠٩، ٣٢٢، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٦٩، ٣٧٦، ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤١١، ٤١٨ ...

(٢) راجع الزفراف: التعريف بالقرآن والحديث ص ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩ وخزانة الأدب ١/٧.

(٣) موطنة الفصيح ورقة ١٩-٢١ والضرائر للأوسى ص ٦.

(٤) موطنة الفصيح ورقة ٢٠ وخزانة الأدب ١/١٥.

وكانني بأصحاب المذهب الأول قد وسعوا في عدلول الضرورة لتكون سلاحاً يشهرونه في وجه كل بيت يخالف قواعدهم أو يعجزون عن تحريجه، وفي هذا من الخطورة ما فيه. ولذلك نجد أبا العلاء يرفض هذا المذهب- وإن كان مذهب الجمهور- ولا يتردد في نصرته المذهب الثاني والدود عنه ولذا فهو يقول: "ينشد قول أبي ذؤيب الهذلي:

تركوا هويّ وأعنقوا لهوهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

ولو أنشد: هوي لم يكن بالوزن بأس. والاستشهاد بالشعر على نوعين: أحدهما لا مزية فيه للمنظوم على المثور، والآخر يكون حكم الموزون فيه غير حكم النثر. فالضرب الأول كبيت أبي ذؤيب الذي مر.. والضرب الآخر هو الذي يكون الوزن إن غير عما استشهد به عليه لحقه إخلال كقوله:

ألا من مبلغ الحرين عني مغلغلة وخص بها أيبا

يطوّف بي عكبّ في معد ويظمن بالصملة في قفيا

فهذا لا يمكن إلا على لغة من قال قفي" (١).
ويقول في بيت الهذلي:

أبيت على معاريّ فاخرات بهن ملوب كدم العباط

الذي يدعي النحاة أنه ضرورة -يقول أبو العلاء: "ولو قال معارٍ لم يخل بالبيت" (٢) إذ لن يكون فيه سوى تسكين لام مفاعلتن.

خاتمة

أثره في النحو ومكائنه بين النحاة

والآن وقد جلنا جولة في نحو أبي العلاء، وعرضنا أصول مذهبه نحب أن نقف قليلا لنرى أثره في النحو، وما قدمه لهذا العلم من أفضال:

(١) رسالة الملائكة ص ١٨١-١٨٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١٠ .

١ - وأول شيء يذكر للمعري بالحمد والإكبار ذلك المنهج القويم الذي خطه لنفسه وسار عليه في تعميده للقواعد كما سبق أن بينا.

٢ - وحديثنا عن منهج أبي العلاء يجرنا إلى الحديث عن أسلوبه الخاص الذي ابتدعه ورأى فيه خير طريق يعرض به مسائل النحو الجافة، ويحبب النشء فيها، ويقربها إلى أفهامهم؛ فكان أن ابتدع ذلك الأسلوب الأدبي والقصصي الذي لا نعرف أحداً من النحاة غيره قد استخدمه في عرض مسائل اللغة والنحو.

وفي هذا يقول الدكتور طه حسين: "وكثير مما صور أصحاب النحو والصرف.. قد سلكه أبو العلاء في كتبه قصصاً جميلاً رائعاً، أو حواراً بديعاً ممتعاً"^(١). وقد عرضنا فيما سبق نماذج لذلك من "رسالة الغفران" ولا نرى الآن بأساً من أن نشير إلى مؤلف آخر له تبدو فيه تلك الظاهرة بوضوح وهو "رسالة الملائكة" التي يبدو فيها خياله الواسع ولباقته وحسن اختياره للأساليب التي تنفذ إلى أعماق القلوب؛ فقد جعل نفسه كأنه أشرف على الموت وجاءه الملك فأراد أن يدافعه فذكر له أصل "ملك" واشتقاقه، ثم تطرق إلى الحديث عن عزرائيل.. ثم دار الحديث بينه وبين منكر ونكير.

وهو في أثناء ذلك يعرض لأدق مسائل النحو والصرف. إلى أن جرى ما جرى بينه وبين رضوان، واتخذ ذلك وسيلة للحديث عما في الجنة من نعيم فتحدث عن أحرف كمثرى ووزنها، وسفرجل وسندس، وشجرة طوبى وهل هي من ذوات الواو أو الياء... ولو أنه سرد تلك المسائل وتكلم عن كل واحدة منها بعد الأخرى كما يفعل النحاة للمها القارئ وتسربت السامة إلى نفسه.

٣ - كما كان يجلس للتدريس بالمعرة، ويقصده الطلاب من مختلف البلاد لكي يستفيدوا من علمه.

وقد اتفقت كلمة المتقدمين "أن رسالة الملائكة ألّفها أبو العلاء جواباً عن مسائل صرفية سأله عنها بعض الطلبة"^(٢).

(١) مع أبي العلاء في سجنه ص ١٧٣.

(٢) مقدمة رسالة الملائكة صفحة ب.

كذلك يروى أن أحد طلبة العلم اليمينيين وقع إليه كتاب في اللغة سقط أوله وأعجبه جمعه وترتيبه. وكان يسأل كل من التقى به عن اسمه واسم مصنفه دون جدوى. وأخيراً دلّ على أبي العلاء فقصدته بالمعرة وقرأ له من الكتاب شيئاً فقال له أبو العلاء: هذا ديوان الأدب ومؤلفه الفارابي وأكمل له النقص الذي عنده^(١).

٤ - ومن أفضاله على النحو كذلك تلك الكتب التي ألفها فيه وعددها أحد عشر كتاباً كما سبق أن ذكرنا.

ولكن هل كان أبو العلاء نحوياً؟

قد يبدو هذا السؤال غريباً الآن بعد أن عشنا مع نحو أبي العلاء ورأينا شخصيته النحوية بادية في كل خطوة يخطوها. ولكن ماذا نفعل ونحن مضطرون إلى طرح هذا السؤال بعد أن رأينا من الباحثين من يسخر من نحو أبي العلاء ويستكثر عليه أن يكون نحوياً، فيسلبه بذلك خاصة من ألزم خصائصه، وصفة من ألصق الصفات به. يقول الأستاذ إبراهيم مصطفى: "وأستطيع الآن أن أقرر مطمئناً أن أبا العلاء كان عالماً بالنحو وأن أقرر كذلك أنه لم يكن نحوياً.. وإنما كان ناقدًا لغوياً، درس النحو فعابه، وضاق، وانصرف عنه"^(٢) ..

ونحب أن نسأل الأستاذ الفاضل: لماذا أخرجت المعري من زمرة النحاة؟ وما

الشروط التي تفرضا لتسلك الشخص بموجبها في عداد النحاة؟

أهي أن يركبه العلماء ويشهدوا له بالكفاية والسبق في النحو؟

أم هي أن يكون عالماً باللغة وبالقرآن والحديث راوياً للشعر والأدب؟

أم هي أن يكون صاحب كتب ورسائل في النحو؟

أم هي أن يكون موهوباً ذا قدرة على المناقشة والبحث والاستقصاء؟

أم هي أن يجلس لتدريس النحو، وأن يكون ذا مدرسة لها منهجها في البحث

وطريقتها في تناول؟

(١) الفارابي اللغوي ص ١١٣ .

(٢) المهرجان الأتفي ص ٣٧٢ .

الحق أننا نحار في تعرف أسباب هذا الحكم الجائر؛ فقد توافرت في أبي العلاء من الصفات والخصائص، ووهب من الذكاء والقدرة على الفهم ما يرشحه لأن يكون نحوياً من الطراز الأول:

فقد زكاه العلماء قديماً وحديثاً وشهدوا بسبقه في النحو وترجموا له في النحاة كما فعل ياقوت في معجم الأدباء والقفطي في إنباه الرواة والسيوطي في البغية. وكان عالماً باللغة وشواردها ملئاً بلهجات العرب حتى قال تلميذه التعريزي: "ما أعرف أن العرب نظقت بكلمة ولم يعرفها المعري"^(١). وكان عالماً بالقراءات راوياً للحديث بصيراً بأشعار العرب وآدابها حافظاً لكتب اللغة.

وكان صاحب مؤلفات في النحو بلغت أحد عشر مؤلفاً. وكان ذا موهبة وقدرة على البحث والاستقصاء لا يعرض لمسألة لغوية أو نحوية ثم يدعها قبل أن يستقصيها. ويكفي أن أحيل السيد الباحث إلى ما قاله أبو العلاء في لفظ "إياك" في رسالة الملائكة ليرى دقته وحرصه على الاستقصاء التام. وكان صاحب مدرسة نحوية يؤمها الطلاب من شتى البقاع، ولها أسلوبها الخاص في البحث والتناول.

فماذا ينقصه بعد هذا من صفات النحوي.

لقد تسرع الأستاذ الفاضل فأصدر هذا الحكم دون أن يكلف نفسه عناء قراءة نحو أبي العلاء، ودون أن يتعمق في فهم ما قرأه من نحو أبي العلاء فظنه نقداً سطحياً "ليس دقيق المسلك ولا خفي المكانة"^(٢).

ولو أنه قرأ نحو أبي العلاء وتعمقه وتمعن فيه لتردد كثيراً قبل أن يصدر هذا الحكم، بل لوضع أبا العلاء في صف أئمة النحو الأعلام، ولشهد له بالسبق والنبوغ،

(١) تعريف القدماء ص ٥٦٩ .

(٢) المهرجان الألفي ص ٣٧٢ .

ولتقال فيه كما قال الدكتور طه حسين: "كان أبو العلاء في القرن الخامس بإقليم حلب كابن خالويه في القرن الرابع"^(١).

وإذا كان أبو العلاء قد نبغ في فروع كثيرة من المعرفة، واشتهر بها، فلا يصح أن يعد ذلك عليه لا له. وكثير من النحاة الذين لمع اسمهم في النحو وحده لم يتركوا من الآثار النحوية مثل ما ترك أبو العلاء رغم تعدد جوانب شخصيته العلمية. وهذا أدعى إلى تقديره والإعجاب به.

مصادر البحث

أ- مؤلفات أبي العلاء المعري:

- ١- رسائل أبي العلاء المعري - نشر مرجليوث - ط أكسفورد.
- ٢- رسالة الغفران- تحقيق بنت الشاطي - ط أولى ١٩٥٠.
- ٣- رسالة الملائكة - تحقيق محمد سليم الجندي - ط دمشق ١٩٤٤.
- ٤- شرح ديوان الحماسة- مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٣٠٨ أدب.
- ٥- عبث الوليد - دمشق ١٩٣٦ .
- ٦- الفصول والغايات - نشر محمود حسن زناتي - ط أولى ١٩٣٨.
- ٧- اللزوميات - ط حجر -بومباي ١٣٠٣ هـ .
- ٨- معجز أحمد - مصورة دار الكتب المصرية رقم ٤٢٤٦ أدب.

ب - مراجع أخرى:

- ١ - أبو العلاء وما إليه - الراجكوتي - ط السلفية ١٣٤٤ هـ .
- ٢- أبو العلاء المعري وعلم النحو - إبراهيم مصطفى - المهرجان الألفي لأبي العلاء - دمشق ١٩٤٥.
- ٣- إتحاف فملاء البشر - الدمياطي - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤١٣ قراءات.
- ٤- الاقتراح في علم أصول النحو- السيوطي - ط أولى- حيدر آباد ١٣١٠ هـ .
- ٥- بغية الوعاة - السيوطي - ط أولى - القاهرة ١٣٢٦ هـ .
- ٦- التعريف بالقرآن والحديث - محمد الزفزاف - ط أولى- القاهرة.
- ٧- تعريف القدماء بأبي العلاء- جمع وتحقيق لجنة - ط دار الكتب المصرية ١٣٦٣ هـ .
- ٨- الجامع لأحكام القرآن- القرطبي - ط دار الكتب ١٩٣٩ .
- ٩- الحجة- أبو علي الفارسي - مصورة دار الكتب المصرية رقم ٤٦٢ قراءات.
- ١٠- خزنة الأدب- البغدادي- ط أولى- ط بولاق.
- ١١- ذكرى أبي العلاء- دكتور طه حسين - مصر ١٣٣٤ هـ .
- ١٢- الرد على النحاة- ابن مضاء القرطبي - تحقيق د. شوقي ضيف- ط أولى ١٩٤٧ .

- ١٣- شرح كتاب سيبويه - السيرافي - مخطوطة دار الكتب رقم ١٣٧ نحو.
- ١٤- الضرائر- الآلوسي - ط السلفية ١٣٤١ هـ .
- ١٥- الغفران- دكتورة بنت الشاطيء - ط أولى- المعارف ١٩٥٤ .
- ١٦- الفارابي اللغوي- دكتور أحمد مختار عمر -مقال بمجلة معهد الخطوط -مجلد ٧ جزء ٢.
- ١٧- القياس في اللغة- محمد الخضر حسين -ط السلفية ١٣٥٣ .
- ١٨- كتاب سيبويه- ط أولى - بولاق ١٣١٧ هـ .
- ١٩- محاضر جلسات مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- ٢٠- المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات- ابن جني - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢ ش قراءات.
- ٢١- مع أبي العلاء في سجنه- دكتور طه حسين - ط مصر .
- ٢٢- معجم الأدباء - ياقوت - ط الحلبي.
- ٢٣- المقتضب في النحو - المبرد - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٩٠٩ نحو .
- ٢٤- موطئة الفصح - ابن الطيب الفاسي - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٧٩ لغة.
- ٢٥- نشأة النحو- محمد الطنطاوي - ط الصاوي ١٩٣١ .
- ٢٦- النشر في القراءات العشر - ابن الجزري - دمشق ١٣٤٥ .
- ٢٧- النقد واللغة في رسالة الغفران - دكتور أمجد الطرابلسي - الجامعة السورية ١٩٥١ .

جهود ابن سينا في اللغة والأصوات*

١- مقدمة

ولد أبو علي بن سينا عام ٣٧٠ أو ٣٧٣ أو ٣٧٥هـ في قرية أفشنة بالقرب من بخارى . وقد قال عن نفسه: "أحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، وأتيت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب" . وقد درس في صباه إلى جانب القرآن والأدب: الفقه والمنطق ، وبعد ذلك درس الطب والفلسفة . وكان يقرأ الكتب المصنفة في الطب بنفسه بعد أن وجد " علم الطب ليس من العلوم الصعبة " .

وبرز في الطب في أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليه علم الطب وهو ابن ست عشرة سنة . وفي تلك السن شارك في مداواة الأمير نوح بن منصور وسمح له بدخول دار كتبه ومطالعتها وقراءة ما فيها . وحين بلغ ثماني عشرة سنة كان قد فرغ من هذه العلوم كلها .

وكان ابن سينا كثير التطواف في بلاد فارس إلى أن توفي في همدان عام ٤٢٨ بعد أن ترك ما يزيد على مائتين وخمسين مؤلفاً ما بين كتاب ورسالة ومختصر من أشهرها : القانون، والشفاء، والنجاة، والإشارات^(١) .

ولم يكن ابن سينا في تأليفه متخصصاً ، فقد جمع إلى الفلسفة التي اشتهر بها علوماً أخرى كثيرة ، حتى صح أن يقول عنه الأب جورج قنوتي: " كان ابن سينا من الرجال القلائل في العالم الإسلامي الذين يصح أن نسميهم موسوعيين ، أو كما يسمون اليوم: كتاب دائرة المعارف"^(٢) ، وأن يقول عنه الدكتور شاكر الفحام: " كانت إحاطته بالعلوم شاملة ، وكان شغفه بالمعرفة لا حدود له" .

ألف في الطب ، وألف في الفلسفة .. وألف في الدين والزهد والتصوف والعشق،

* نشر في مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي- العدد الخامس- مكة المكرمة ١٩٨٢.

وألف في الكيمياء والأسرار وتأويل الرؤيا ، وألف في الفلك ، وألف في تدبير الجند
وخراج الممالك ، وألف في الموسيقى ، وألف في اللغة والنحو .. " (٣) .

٢- جهود اللغوية

يبدو أن اشتغال ابن سينا باللغة جاء بأخرة . إذ يذكر المترجمون حياته قصة
جرت له مع أبي منصور الجبان^(٤) استثارته ودفعته إلى دراسة اللغة والتعمق فيها . يقول
ابن أبي أصيبعة: " كان ابن سينا جالساً يوماً بين يدي الأمير ، وأبو منصور الجبان
حاضر . فجرى في اللغة مسألة تكلم ابن سينا فيها بما حضره ، فالتفت أبو منصور إليه
يقول : إنك فيلسوف وحكيم ، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها . فاستنكف
ابن سينا من هذا الكلام ، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ، واستهدى كتاب
تهذيب اللغة من خراسان للأزهري . فبلغ ابن سينا في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها . وأنشأ
ثلاث قصائد ضمنها ألفاظاً غريبة في اللغة.. " (٥) ويذكر ابن أبي أصيبعة لابن سينا
المؤلفات اللغوية الآتية:

١- لسان العرب . في عشرة مجلدات، قال عنه: لم يصنف في اللغة مثله، ولم ينقله في البياض
حتى توفي فبقي على مسودته لا يهتدي أحد إلى ترتيبه . وجاء عنه في بنج رسالة:
"يشتمل كل كتاب منها على فنون. وهو كتاب نادر، قد جعل له ترتيباً حسناً. غير أنه
لم يتمم ، ولم يخرج عن المسودة إلى البياض. وقد تحطأ عن حصر الألفاظ على عادة أهل
اللغة إلى الإبانة عن مقتضياتها ، والفرق بين ما تقتضيه من معانيها. وقد رأيت طرفاً من
هذا الكتاب بخطه بمقدار مائة وثلاثين ورقة فما تمكنت من تحريرها فانتخبت منه فصولاً
ونكتا عجيباً" (٦) . ويبدو أن هذا الكتاب من نوع معاجم الموضوعات التي تجمع كلمات
كل موضوع تحت عنوان واحد وتفسرها. كما يبدو من الاقتباس الموجز الذي ذكرته
كتب اللغة أنه كان يهتم بالتفريق بين المعاني المتقاربة أو المتشابهة ، ومن ذلك قوله:
"المشابهة اتفاق في الكيفية وما يجري معها، والمساواة اتفاق في الكمية، والمحاذاة والموازاة
اتفاق في البعضية، والمائلة والمساكلة اتفاق في الذات، والمواطأة اتفاق في العزم" (٧) .

٢- مقالة في مخارج الحروف . وهي التي طبعت تحت اسم: أسباب حدوث الحروف.

- ٣- جواب لعدة مسائل في تبيين ماهية الحروف . ولعله المطبوع تحت اسم الرسالة السابعة النيروزية: في معاني الحروف الهجائية.
- ٤- كتاب الملح في النحو^(٧).

ولم يصلنا من هذه المؤلفات سوى رقمي ٢، ٣ بالإضافة إلى بعض الآراء اللغوية المتناثرة التي وردت في مؤلفات أخرى له مثل الشفاء والقانون . وستكون هذه وتلك عمادنا في هذه الدراسة ، كما سينال مؤلفه رقم ٢ منا عناية خاصة نظراً لأهميته وتفرده.

٣-التعريف بمؤلفاته اللغوية

أولاً: أسباب حدوث الحروف:

أ-عنوانه ووقت تأليفه:

ورد هذا الكتاب في المراجع باسمي: رسالة، ومقالة، ووردت بقية الاسم هكذا: في تحقيق الحروف - في أسباب الحروف - في أسرار الحروف - في حدوث الحروف - في مخارج الحروف - في أسباب حدوث الحروف ومخارجها - في الحروف - في مخارج الحروف وصفاتها. كما ورد بالأسماء الآتية:

معرفة حدوث الحروف - مخارج الصوت والحروف - أسباب حدوث الحروف.

ولما كانت هذه الرسالة قد ألفت في أصفهان كما صرح الجوزجاني^(٨) فلا بد أن يكون تأليفها قد تم عام ٤١٤ أو ما بعده لأنه العام الذي ذهب فيه الشيخ إلى أصفهان^(٩).

ب- طبعاته:

طبع هذا الكتاب عدة طبعات باللغة العربية وبلغات مختلفة:

- ١- فطبع بالعربية بمطبعة المؤيد بالقاهرة عام ١٣٣٢هـ ، وقام محب الدين الخطيب بتحقيقه ومقابلته معتمداً على نسختين إحداهما رقم ١٦٦٥٩ بالمتحف البريطاني ، والأخرى رقم ٢٠٠مجاميع ، بالمكتبة التيمورية بالقاهرة.

٢- كما طبع بإيران طبعة أولى عام ١٣٣٣ ضمن السلسلة التي تنشرها جامعة طهران، وقام بتحقيقها برونز ناتل خانلري.

٣- وبسبب نفاذ نسخ الطبعة السابقة أعيد طبع الكتاب في إيران عام ١٣٤٩ . ولما كان للكتاب روايتان مختلفتان إلى حد يجعل من المتعذر إدماجهما في نص واحد ، فقد نشر الكتاب في روايتين منفصلتين باللغة العربية ، مع ترجمة كاملة باللغة الفارسية للرواية الأولى ، وإضافة بعض الزيادات على النص المترجم من الرواية الثانية.

٤- وفي عام ١٩٣٤ نشر الأستاذ Max Bravmann ترجمة ألمانية لهذا الكتاب طبعها في جوتنجن كجزء من رسالة بالألمانية عنوانها:

Materiaalien Und Untersuchungen Zuden Phonetischen Lehren der Araber

٥- وفي عام ١٩٦٣ نشرت للكتاب ترجمة إنجليزية في لاهور مع مقدمة للأستاذ خليل سمعان.

٦- وفي عام ١٩٦٦ نشر الأستاذ فلاديمير أخولديباني في تفليس ترجمة روسية له مصحوبة بالمتن الأصلي ، بعد أن عكف على تصحيحه ووضع له فهرسا للاصطلاحات ، ومقدمة مسهبة حول علم الأصوات العربي.

ج- نسخه المخطوطة:

توجد عشرات النسخ المخطوطة لهذا الكتاب في كثير من مكتبات العالم من بينها:

١- نسخة المتحف البريطاني السابق ذكرها.

٢- نسخة المكتبة التيمورية السابق ذكرها.

وهما النسختان اللتان اعتمدتهما الطبعة الأولى للكتاب.

٣- نسخة مكتبة مجلس النواب الإيراني ، وهي أقدم النسخ إذ يرجع تاريخها إلى عام ٥٦٩هـ.

٤- ويليها في القدم نسخة في استانبول في مكتبة أونورسينه يرجع تاريخها إلى عام ٥٧٩هـ.

٥- ونسخة ثانية بنفس المكتبة يرجع تاريخها إلى عام ٥٨٨هـ.

٦- وهناك نسخة يمتلكها الدكتور يحيى مهدي الأستاذ بجامعة طهران يرجع تاريخها إلى عام ٥٩٦ و ٥٩٧ .

٧- ونسخة تمتلكها مكتبة أيا صوفية غير مؤكدة التاريخ. وهي نسخ اعتمدها طبعة إيران ، وقابلت بينها.

وهناك نسخ أخرى في تركيا وهولندا وإيران تجد وصفا لها في:

- فهرست نسخه های مصنفات ابن سینا للدكتور يحيى مهدي.
- مؤلفات ابن سینا للأب جورج قنوتي.

د - وصفه:

يقع الكتاب في مقدمة وستة فصول.

أما المقدمة فقد بدأت - في إحدى روايتها - قائلة: " الحمد لله وحده، حمداً يستأهله بعظمة ذاته، وسعة رحمته، وفيضان جوده. وصلواته على نبيه محمد وآله. وبعد: فليس كل قابل هدية محتاجاً إليها، ولا كل طالب تحفة فاقداً لها. بل ربما آثر الغني في ذلك إكرام الفقير، وتوخى الكبير به التبسط من الصغير. والشيخ الكبير الكريم الأستاذ أبو منصور محمد بن علي بن عمر [الحيان - الحيام - الجبان^(١)]. - وهو الذي ما شئت فله في نفسه من المحامد الباهرة، وعندني، وفي ذمتي من المنن الظاهرة - التمس مني التماس باسط لا محتاج أن أكتب باسمه ما حصل عندني بعد البحث المستقصي من أسباب حدوث الحروف باختلافها في المسموع، في رسالة وجيزة جداً، فتلقيت ملتصمه بالطاعة، وسألت الله أن يوفقني للصواب ألزمه، والحق أتبعه، وهو ولي الرحمة".

وأما فصول الكتاب فقد حملت العناوين الآتية:

- ١- في سبب حدوث الصوت.
- ٢- في سبب حدوث الحروف.
- ٣- في تشريح الحنجرة واللسان.
- ٤- في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب.
- ٥- في الحروف الشبيهة بهذه الحروف.
- ٦- في أن هذه الحروف قد تسمع من حركات غير نطقية.

ثانياً: الرسالة السابعة النيروزية في معاني الحروف الهجائية:

طبعت هذه الرسالة طبعتين حتى الآن ، وأولاهما ضمن: تسع رسائل في الحكمة والطبيعات (الجواب- القسطنطينية ١٢٩٨)، وثانيتها ضمن المجموعة الخامسة من نوادر المخطوطات بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

وليس هدف الرسالة لغويا في المقام الأول ، لأنها - كما يقول ابن سينا نفسه في مقدمتها - "في معاني الحروف الهجائية التي في فواتح بعض السور الفرقانية".

وقد بدأت الرسالة قائلة: "كل تنزع به همته إلى خدمة نيروز مولانا الشيخ الأمير السيد أبي بكر محمد بن عبد الرحيم أدام الله عزه بتحفة تجود بها ذات يده. ولما رغبت في أن أكون واحد القوم ، وتابعاً للسواد الأعظم.. وكانت حالي تقعدني عن إهداء تحفة دنياوية.. ورأيت الحكم أفضل مرغوب فيه.. لا سيما الحكمة الإلهية، وخصوصاً ما كان حكيماً ملياً ، ثم ما كان يكشف سرا هو من أغمض أسرار الحكمة والملة ، وهو الإنباء عن الغرض المضمّن في الحروف الهجائية، فواتح عدة من السور الفرقانية - اتخذت فيه رسالة وجعلتها هديتي النيروزية إليه.."

والرسالة مقسمة إلى ثلاثة فصول على النحو التالي:

الأول: في ترتيب الموجودات والدلالة على خاصية كل مرتبة من مراتبها.

الثاني: في الدلالة على كيفية دلالة الحروف عليها.

الثالث: في الغرض.

وقد انتهى ابن سينا في الفصل الأخير، وهو الغرض من الرسالة - كما قال - إلى تفسير فواتح السور تفسيراً جديداً ؛ إذ ذهب إلى أن المدلول عليه بألف لام ميم هو القسم بالأول ذي الأمر والخلق.. وبألف لام ميم صاد: القسم بالأول ذي الأمر والخلق منشئ الكل ، وبصاد القسم بالعبادة الكلية ، وبقاف القسم بالإبداع... إلخ.

٤- آراؤه الصوتية

أ- طبيعة الصوت:

تناول ابن سينا طبيعة الصوت في رسالته " أسباب حدوث الحروف" ، وفي كتابه "الشفاء" في فصل السمع . وعلى الرغم من أن ابن سينا قد عالج هذه القضية بأسلوب فلسفي ، فقد انتهى إلى أن العملية الصوتية تتضمن عناصر ثلاثة هي:

- ١- وجود جسم في حالة تذبذب.
 - ٢- وجود وسط تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب.
 - ٣- وجود جسم يستقبل هذه الذبذبات.
- وهو نفس ما انتهى إليه المحدثون من علماء الأصوات^(١١).

وقد عبر ابن سينا عن العنصر الأول باشتراط وجود قرع أو قلع " أما القرع فمثل ما تفرع صخرة أو خشبة فيحدث صوت . وأما القلع فمثل ما يقلع أحد شقي مشقوق عن الآخر ، كخشبة تنحى عليها بأن تبين أحد شقيها عن الآخر طولاً" . واشتراط لإحداث القرع أو القلع صوتاً أن يكون كل منهما بقوة معينة "فإن قرعت جسماً كالصوف بقرع لين جداً لم تحس صوتاً. بل يجب أن يكون للجسم الذي تفرعه مقاومة ما، وأن يكون للحركة التي للمقرع به إلى المقرع عنف صادم.. وكذلك إذا شقت شيئاً يسيراً وكان الشيء لا صلابة له لم يكن للقلع صوت ألبتة"^(١٢).

وعبر عن العنصر الثاني ، وهو وجود وسط ناقل للذبذبات بقوله: " أظن أن الصوت سببه القريب توج الهواء ودفعه بسرعة وبقوة من أي سبب كان" ، وقوله: " وهذا الشيء الذي فيه هذه الحركات شيء رطب سيال لا محالة ، إما ماء ، وإما هواء. فيكون مع كل قرع وقلع حركة للهواء أو ما يجري مجراه ، إما قليلاً قليلاً برفق ، وإما دفعة على سبيل توج أو المجذاب بقوة . فقد وجب أن هاهنا شيئاً لا بد أن يكون موجوداً عند حدوث الصوت ، وهو حركة قوية من الهواء ، أو ما يجري مجراه" ^(١٣) .

أما الجسم المستقبل للذبذبات فقد تحدث عنه في كتابيه الشفاء وأسباب حدوث الحروف، وذلك في قوله في الأول: " فإذا انتهى التموج من الهواء أو الماء إلى الصماخ،

وهناك تجويف فيه هواء راكد يتموج بتموج ما ينتهي إليه، ووراءه كالجدار مفروش عليه العصب الحاس للصوت - أحس بالصوت^(١٤). وفي الثاني: " ثم ذلك الموج يتأدى إلى الهواء الراكد في الصماخ فيموجه فيحس به العصبة المفروشة في سطحه " ^(١٥).

ومن اللافت للنظر كذلك أن يتنبه ابن سينا إلى قابلية الأذن لإدراك الأصوات بمعدلات معينة للتردد والتوتر لها حد أدنى وحد أعلى ، وأن يتنبه إلى أن زيادة شدة الصوت عن مقدار معين تسبب الأذى والإزعاج للسامع^(١٦)، وذلك في قوله: " القرع الشديد يحدث صوتاً يضر بالسمع" ، وقوله: " والتموج الفاعل للصوت قد يحس حتى يؤلم " ^(١٧). بل يصرح ابن سينا بقدرة الأصوات الشديدة على تحطيم الأشياء " فإن صوت الرعد قد يعرض منه أن يدك الجبال، وربما ضرب حيواناً فأفسده. وكثيراً ما يستظهر على هدم الحصون العالية بأصوات البوقات " ^(١٨).

ب- مخرج الصوت الإنساني وصفاته:

يستخدم ابن سينا للتعبير عن إنتاج الصوت لفظ الحبس ومشتقاته . أما كلمة المخرج فيبدو أنه يستخدمها للإشارة إلى مجرى الهواء أو طريقه الذي يكون إما نحو الأنف أو الفم . وقد تردد في كلامه ألفاظ المخرج والمخارج والحبس والحابس والمحبوس والمحابس.

ويرى ابن سينا أن الذي يميز الحرف (الصوت) عن الحرف (الصوت) جملة عوامل منها:

١- اختلاف نقطة التحكم في مجرى الهواء " بسبب اختلاف الأجرام التي يقع عندها وبها الحبس والإطلاق؛ فإنها ربما كانت ألين، وربما كانت أصلب، وربما كانت أيبس، وربما كانت أرطب.. وقد يكون الحابس أصغر وأعظم، والمحبوس أكثر وأقل، والمخرج أضيق وأوسع، ومستدير الشكل، ومستعرض الشكل مع دقة، والحبس أشد وألين، والضغط بعد الإطلاق أحفز وألسس.. " ^(١٩).

٢- اختلاف حال التموج (بعد أن ذكر أن نفس التموج إنما يفعل الصوت): " وأما حال التموج في نفسه من اتصال أجزائه وتماسها، أو تشظيها وتشذبه فيفعل الحدة والتقل. أما الحدة فيفعلها الأولان، وأما التقل فيفعله الثانيان " ^(٢٠).

ويفسر الدكتور إبراهيم أنيس الحدة والثقل بأحد تفسيرين:

أولهما وأرجحهما أن ابن سينا هنا يشير إلى درجة الصوت Pitch، لأن طول الموجة مع الصوت الحاد أقل منه مع الصوت الثقيل . فأجزاء الموجة في الصوت الحاد متقاربة متماسكة ، على حين أن أجزاءها مع الصوت الثقيل متباعدة.

الأمر الثاني أن ابن سينا في هذا النص أراد فعلا أن يصف لنا حدة الصوت وثقله high and low pitch ، وجعل حدة الصوت أو ثقله متوقفاً على طبيعة الجسم المقروء. فهو في حالة اتصال أجزائه وتماسكها، أي حين تكون كثافة كبيرة كالأجسام الصلبة من معادن ونحوها يكون الصوت عادة حاداً على حين أن الصوت مع الجسم الأقل كثافة كالحشب مثلا يكون ثقيلاً^(٢١).

٣- اختلاف طريقة التحكم في الهواء عند نقطة الإنتاج (الحبس). وقد ذكر ابن سينا في هذا الخصوص طريقتين هما:

أ-الحبس التام للصوت.

ب-الحبس غير التام للصوت.

وقد عبر عن هذين بقوله: "والحروف بعضها - في الحقيقة - مفردة ، وحدوثها عن حسابات تامة للصوت أو للهواء الفاعل للصوت يتبعها إطلاق دفعة . وبعضها مركبة وحدوثها عن حسابات غير تامة لكن مع إطلاقات"^(٢٢).

وهنا نلاحظ أن ابن سينا يستعمل المصطلحين: مفردة ومركبة في مقابل مصطلحي سيويه: شديدة ورخوة ، والمصطلحين الحديثين: انفجارية(وقبعية) واحتكاكية.

وقد فرّق ابن سينا بين الحروف المفردة والحروف المركبة قائلاً: " وهذه المفردة تشترك في أن وجودها وحدوثها في الآن الفاصل بين زمان الحبس و زمان الإطلاق . وذلك لأن زمان الحبس التام لا يمكن أن يحدث فيه صوت حادث عن الهواء وهو مسكّن بالحبس، و زمان الإطلاق ليس يسمع فيه شيء من هذه الحروف لأنها لا تمتد ألبتة ، إنما هي مع إزائة الحبس فقط . وأما الحروف الأخرى فإنها تشترك في أنها تمتد زماناً، وتفنى مع زمان الإطلاق التام . وإنما تمتد في الزمان الذي يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق"^(٢٣).

وقد قسم ابن سينا الحروف المفردة (الوقفية) إلى نوعين:
أ- مفردة (على الإطلاق).

ب- مفردة من وجه.

أما المفردة على الإطلاق فهي: الباء والتاء والجيم والداد والطاء والقاف
والكاف والهمزة^(٢٤).

وأما المفردة من وجه فهي: الضاد واللام والميم والنون.

وقد أصاب ابن سينا في هذه التفرقة بين النوعين، واعتباره الحبس في الأصوات
الأربعة الأخيرة حبسا جزئيا في مكان يصحبه تسريح في مكان آخر. فالضاد - كما يذكر
القدماء - "إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن ، وإن شئت من الجانب الأيسر" ، وكلام
سيبويه يدل على أنها تكون من الجانبين^(٢٥). واللام - على حد تعبير سيبويه - صوت
منحرف جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض
الحروف الشديدة^(٢٦).

والميم والنون صوتان شديدان عند سيبويه يجري معهما الصوت ، لأن ذلك
الصوت غنة من الأنف ، فإنما تخرجه من أنفك.

وقد اعتبر بعض المتأخرين (ابن جنى والزخشري وابن الجزري وغيرهم) النون
والميم واللام (مع حروف أخرى) ضمن الحروف المتوسطة ، أو بين الشديدة والرخوة^(٢٧).

وأما الحروف المركبة (الاحتكاكية) فلم يذكرها ابن سينا بالاسم مكتفيا بذكر
مقابلاتها المفردة (الوقفية) " ولك أن تعدها عدا". ويعملية إسقاط للحروف المفردة
يتبين أن المركبة عنده هي: التاء - الحاء - الحاء - الذال - الراء - الزاي - السين -
الشين - الصاد - الضاد - العين - الغين - الفاء - الهاء.

وببقى تعليق على صوت الراء. فإذا كان التقسيم الثنائي إلى شديد ورخو لم
يستطع أن يشملها ، فاختصها اللغويون باسم "المكرر" (وإن اعتبروها نوعا من الشديد)
فإن مصطلح "المركب" عند ابن سينا يمكن أن يشملها بسهولة ، لأن شرط

التركيب في الصوت أن "يمتد في الزمان الذي يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق"، وهو ما ينطبق على الصوت المكرر: الراء ، كما ينطبق على الأصوات الاحتكاكية.

ج - أصوات العربية:

خص ابن سينا أصوات اللغة العربية بفصل في رسالته ، هو الفصل الرابع الذي عنوانه "في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب". وقد عالج ابن سينا في هذا الفصل الأصوات صوتاً صوتاً على الترتيب التالي:

الهمزة - الهاء - العين - الحاء - الحاء - الغين - القاف - الكاف - الجيم -
 الشين - الضاد - السين - الصاد - الزاي - الطاء - التاء - الدال - الثاء -
 الذال - الظاء - اللام - الراء - الفاء - الباء - الميم - النون - الواو الصامتة -
 الياء الصامتة - المصوتات: الألف الصغرى والكبرى - الواو الصغرى والكبرى - الياء
 الصغرى والكبرى.

وأول ما يلفت النظر في ترتيب ابن سينا ما يأتي:

- ١- تفريقه بين السواكن والعلل ، وتسميته الأولى صوامت والثانية مصوتات.
- ٢- تفريقه بين نوعين من الواو والياء . فنوع أدرجه في الصوامت ، ونوع أدرجه في المصوتات.

٣- تفريقه بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة (الصغرى والكبرى).

٤- اتباعه الطريقة العربية التي ترتب الأصوات من الداخل إلى الخارج.

والتحليل الدقيق لهذا الفصل يجعلنا نخرج بالنتائج الآتية:

أ- هناك فروق في الترتيب بين القدماء وابن سينا كما يبين الجدول الآتي:

الخليل	سيبويه	ابن جني	ابن سينا
ع	همزة	همزة	همزة
ح	ألف	ألف	هـ
هـ	هـ	هـ	ع

ابن سينا	ابن جنى	سيبويه	الخليل
ح	ع	ع	خ
خ	ح	ح	غ
غ	غ	غ	ق
ق	خ	خ	ك
ك	ق	ك	ج
ج	ك	ق ^(٢٨)	ش
ش	ج	ض	ض
ض	ش	ج	ص
س	ي	ش	س
ص	ض	ي	ز
ز	ل	ل	ط
ط	ر	ر	د
ت	ن	ن	ت
د	ط	ط	ظ
ث	د	د	ث
ذ	ت	ت	ذ
ظ	ص	ص	ر
ل	ز	ز	ل
ر	س ^(٣٠)	س	ن
ف	ظ	ظ	ف
ب	ذ	ذ	ب
م	ث	ث	م
ن	فا	فا	و

الخليل	سيبويه	ابن جني	ابن سينا
ا	ب	ب	و
ي	م	م	ى
	و ^(٢٩)	و ^(٣١)	الألف
			الواو
			الياء

ويتميز ترتيب ابن سينا بما يأتي:

- ١- عدم وضعه الألف بجوار الهمزة بخلاف ما فعل سيبويه وابن جني . وعدّ الألف مع أصوات الحلق من أخطاء اللغويين القدماء ، وإن حاول بعضهم الدفاع عنه^(٣٢).
- ٢- تقديم القاف على الكاف مخالفاً في ذلك سيبويه.
- ٣- إبعاد الواو والياء إلى ما بعد الانتهاء من الصوامت.
- ٤- تأخير أحرف العلة الثلاثة (قصيرها وطويلها) إلى ذيل القائمة.
- فكان ابن سينا قد راعى البدء بالصوامت ثم أشباه المصوتات ثم المصوتات.
- ٥- وضع الميم والنون متتاليين رغم اختلاف مخرجهما لاشتراكهما في صفة الأنفية.
- ٦- أما وضع الراء واللام عند ابن سينا ففيه نظر. ولعله تبع فيه ترتيب الخليل بن أحمد في معجمه العين.

ب- أما حديثه عن مخارج الأصوات وصفاتها وكيفيات نطقها فنجد فيه تفصيلاً دقيقاً لا نجده في كتب اللغويين . وقد أعانه على ذكر الحركات العضوية ، وعلى تحديد العضلات والمفاصل المشتركة في إنتاج الصوت خبرته العملية الواسعة بتركيب جسم الإنسان وبتشريح أعضائه . ومن أمثلة ذلك قوله:

- ١- أما الهمزة فإنها تحدث عن حفز قوي من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير ، ومن مقاومة الطرجهالي^(٣٣) الحاصر زماناً قليلاً لحفز الهواء ، ثم اندفاعه إلى الانتقاع بالعضل الفاتحة وضغط الهواء معا.

٢- وأما الحاء وإن شاركت العين فإنها تخالف العين في هيئة المخرج وفي المحبس وفي القوة وفي جهة مخلص الهواء . فإن الفرجة بين الغضروفين السافلين تكون أضيّق، والهواء يندفع أميل إلى قدام ، ويصدم حافة التقعير الذي كان يصدمه هواء العين عند الخروج. وتلك الحافة صلبة ، والدفع فيها أشد فيقسم الرطوبة ويميلها إلى قدام..

٣- وأما الجيم فإنه يحدث من حبس تام للهواء بطرف اللسان ، وحصره في رطوبة وراء طرف اللسان ، ينشق عند الانطلاق من غير امتداد. ويكون تسريب الهواء مع ذلك في مسلك مضيّق ، وموجها نحو خلل الرباعيات أو غيرها ليحدث من نفوذ الهواء فيها صوت حاد صفّار ، ويختلط بفرقة الرطوبة الشديدة اللزوجة فيكون الجيم.

٤- وأما الثاء فتخرج باعتماد من الهواء عند موضع الثاء بلا حبس. وتحبس عند طرف الأسنان ليصير الحلل أضيّق فيكون صغير قليل مع القلع . وكان الثاء سين تلوّفت بحبس فرج مسلك هوائها الصفّار.

٥- وحدوث اللام بحبس من طرف اللسان رطب غير قويّ جداً ، ثم قلع إلى قدام قليلا ، والاعتماد فيها على الجزء المتأخر من اللسان المماس لما فوفقه أكثر من الاعتماد على طرف اللسان. وليس الحفز للهواء بقويّ. ولو كان الحفز والشدّ قويّاً خرج حرف كالطاء.

٦- وإن كان طرف اللسان متعرضاً للموضع الذي يمسّه في اللام من غير مس صادق، ولا التصاق رطوبة ، ثم عرّض حافته بالعضلتين المطولتين تعريضاً أقوى من تعريض الطرف نفسه ، وحمل عليه الهواء حتى نفضه وأرعدّه كما يفعل الريح بكل لين متعرض له متعلق من طرف منه بشيء ثابت حدث منه حرف الراء، وسمع التكرير الذي فيه للارتعاد قدما.

٧- وأما الميم فإن الحبس فيها تام وبأجرام من الشفة أيبس وأخرج . وليس تسريب الهواء مع القلع إلى خارج الفم كله ، بل يصرف بعضه بحفز قوي إلى التجويف الذي في آخر المنخر ليدور فيه ويفعل دويّا، ثم يطلقان معا.

ج- وقد فطن ابن سينا إلى وجود أثر سمعي يصاحب نطق بعض الأصوات كالزاي والذال والغين.. (وهو ما سماه اللغويون بالجهر) وحاول تفسيره من الناحية العضوية.

وعلى الرغم من أن تفسير ابن سينا تعوزه الدقة العلمية فهو أقرب إلى القبول من تفسير اللغويين لظاهرة الجهر.

يقول سيبويه معرفاً الصوت المجهور بأنه "حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت" (٣٤). ونفس التعريف بألفاظه نجده عند ابن جنبي وغيره.

أما ابن سينا فيقول عن صوت الزاي مفرقاً بينه وبين السين والصاد: "وأما الزاي فإنها تحدث أيضاً قريباً من الموضع الذي يحدث فيه السين والصاد. ولكن يكون طرف اللسان فيها أخفض، وما بعده أرفع وأقرب من سطح الحنك كالمماس بالعرض أجزاءً دون أجزاء. ولكنها أقل أخذاً في الطول مما يأخذه المقرّب من سطح الشجر والحنك في السين. والغرض من ذلك أن يحدث هناك اهتزاز على سطح اللسان وسطح الحنك ليجتمع ذلك الاهتزاز مع الصغير. وأما في سائر الأشياء فهو كالسين. ويكاد للاهتزاز الذي يقع في الزاي أن يكون تكريراً كالتكرير الواقع في الراء".

ويقول عن صوت الغين: "ويكون الاهتزاز في تلك الرطوبة أكثر منها فيما سلف (مع الخاء)".

ويقول عن الذال إنها "تفارق التاء في الاهتزاز".

ومعنى هذا أن ابن سينا قد فطن إلى وجود اهتزاز يصاحب نطق الزاي والذال والغين.. وأن هذا الاهتزاز في تكراره يشبه التكرار الواقع في الراء. وهذه نقطة تحسب في صالحه. ولكن الشيء الذي يؤخذ عليه هو عدم اهتدائه إلى العضو المهترء. إذ جعله ابن سينا سطح اللسان، أو سطح الحنك أو الرطوبة، مع أنه في الواقع الوتران الصوتيان (٣٥) في منطقة الحنجرة. ويبدو أن وجود الوترين الصوتيين في موضعهما المذكور لم يهتد إليه القدماء، ولذا لم يرد لهما ذكر في الكتب الطبية والتشريحية العربية. نعم قد ورد في كتابات ابن سينا وغيره مصطلح "الجسم الشبيه بلسان المزمار" أو "الشيء الذي يسمى لسان المزمار" أو "الجسم المعروف بلسان المزمار" (٣٦). كما ورد في كتابات ابن سينا أن آلة الصوت "الحنجرة والجسم الشبيه بلسان المزمار، وهي الآلة الأولى الحقيقية، وسائر

الآلات بواعث ومعينات" (٣٧). وذكر ابن القف أن لسان المزمار "هو الآلة الأولى في الصوت، ويسمى بهذا الاسم لأنه يشبه لسان المزمار في شكله وفعله ووضعه.. فإنه موضوع في الحنجرة في الموضع الذي يوضع فيه لسان المزمار في المزمار.. وقد جعل له الفعل الذي لسان المزمار في المزمار وهو التلحين" (٣٨). ولكنه ليس من السهل التسليم بأنهما يريدان بلسان المزمار الفرجة التي بين الأوتار الصوتية كما يرجح الدكتور أنيس (٣٩). وأغلب الظن أنهما يريدان به ما يقابل المصطلح الأجنبي epiglottis وهو مصطلح يطلق على الغضروف المفرد أعلى غضاريف الحنجرة.. الذي يقع في مقدمة الحنجرة وخلف جذر اللسان مباشرة مشكلاً جداراً أمامياً منحرفاً لمدخل الحنجرة.. ويقوم لسان المزمار بالفصل بين الهواء والغذاء أثناء البلع وذلك باندفاعه إلى أسفل تبعاً لحركة جذر اللسان والعظم اللامي ليغلق مدخل الحنجرة (٤٠). ومما يدل على أن هذا هو المراد بلسان المزمار، وليس الفرجة التي بين الأوتار الصوتية ما ورد في كتاب "العمدة" من أن جالينوس سمّاه "طبق الحنجرة".. وما ورد فيه من أنه "حال ازدراد الطعام وشرب الشراب ينطبق الجميع ويحيط بالحنجرة من داخل غشاء ملبس عليها جميعها" (٤١).

وعلى هذا يكون تفسير الجهر عند ابن سينا تفسيراً مقارياً إذ ربطه بالاهتزاز، ولكن يظل غير دقيق لعدم اهتدائه للعضو الأساسي في ظاهرة الجهر وهو الوتران الصوتيان.

أما دور لسان المزمار في عملية الجهر فما يزال موضع نظر، وإن أمكن أن يسهم في تكيف الرنين بما يحدثه من تغيير في حجم فراغ الحنجرة (٤٢).

د- تحدث ابن سينا عما سماه سيبويه بالإطباق، وما يمكن تسميته كذلك بالتفخيم، وهو الوصف الذي تتميز به الأصوات: ص- ض- ط - ظ (٤٣). وقد أشار سيبويه إلى الإطباق بقوله: "أما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء.. وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك. فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى

موضع الحروف"، وأشار إليه ابن جني بقوله: "والإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له" (٤٤).

ولكننا نجد ابن سينا يتميز عليهما بوصفه التفصيلي المعتمد على تحديد ما يلحق الأعضاء المشاركة في النطق من تعديلات . فحين يتحدث عن الصاد يقول: "ويحدث في اللسان كالتقعر حتى يكون لانقلاب الهواء كالدوي". وحين يتحدث عن الطاء يقول بعد أن حدد مخرجها وربطه بمخرج التاء والذال: " لكن الطاء يحبس في ذلك الموضع بجزء من طرف اللسان أعظم.. وتقع وسط اللسان خلف ذلك المحبس ليحدث هناك للهواء دوي عند الإخراج، ثم يقلع ويكون الحبس بشد قوي". وحين يفرق بين التاء والطاء يقول: "وأما التاء فيكون مثله في كل شيء إلا أن الحبس بطرف اللسان فقط". فهنا نجد لأول مرة حديثاً عن تقعر اللسان مع الأصوات المفخمة، وعن اشتراك جزأين من اللسان في عملية نطقها، وهو ما لم نجده بهذا الوضوح عند اللغويين القدماء (٤٥).

هـ- هناك بعض خلافات يلاحظها الباحث بين وصف بعض الأصوات عند ابن سينا ووصفها عند اللغويين القدماء . ومن أوضح الأمثلة لذلك وصف صوت الجيم . فعلى الرغم من أن ابن سينا يتفق مع القدماء في وضعها قبل الشين مباشرة وبعد القاف والكاف فإننا نجد خلافاً في تحديد المخرج أو نقطة الإنتاج:

١- يقول سيويه: " ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين.. " (٤٦). ومثل هذا نجده بالنص عند ابن جني (٤٧). ويقول ابن دريد: "القاف ثم الكاف أسفل منها قليلاً، ثم الجيم والشين من اللهاة" (٤٨).

٢- أما ابن سينا فيحدد نقطة إنتاج الجيم بقوله: "وأما الجيم فإنه يحدث من حبس تام للهواء بطرف اللسان، وحصره في رطوبة وراء طرف اللسان" (٤٩).

والتوفيق بين الرأيين ممكن إذا قلنا إن ابن سينا لا يقسم اللسان إلى أقصى ووسط وحافة وطرف كما فعل سيويه، وأنه يطلق طرف اللسان على نصفه الأمامي بادئاً من الوسط. ولهذا أدخل في طرف اللسان كل الأصوات التي تلي الكاف في المخرج. ولم يشر ابن سينا إلى أي أجزاء خلفية للسان، ولذا فحين تحدث عن صوت الغين اكتفى

بقوله إنه "يحدث في موضع التفرغ". ويبدو أن العضو المؤثر في نطق الجيم كان هو العضو العلوي ، وهو الفار. أما العضو السفلي وهو اللسان فلم يكن هناك طريقة موحدة بين العرب تحدد الجزء المشترك منه في النطق . فمنهم من كان يشرك وسط اللسان، ومنهم من كان يشرك طرفه . ويستطيع القارئ أن يجرب نطق الجيم بأحد الطريقتين دون أن ينتقل إلى صوت آخر.

و- وأخيرا نقول إن ابن سينا رغم تفرده في رسالته كان يتوقف أحيانا عن إصدار حكمه حين يغمض عليه الأمر . ولعل أوضح الأمثلة لذلك ما ذكره بالنسبة للمصوتات أو العلل: " وأما المصوتات فأمرها عليّ كالمشكل. ولكنني أظن أن الألف الصغرى والكبرى مخرجهما من إطلاق الهواء سلسا غير مزاحم. والواوان مخرجهما مع أدنى مزاحمة وتضييق للشفتين واعتماد في الإخراج على ما يلي فوق اعتمادا يسيرا. والياء ان تكون المزاحمة فيهما بالاعتماد على ما يلي أسفل قليلا"^(٥٠).

وبعد:

فهذا قليل من كثير ذكره ابن سينا في دراسته للأصوات . وما زال هناك جوانب أخرى يضيّق المقام عن ذكرها مثل حديثه عن تشريح الحجرّة ، وعن عيوب النطق ، وعن أثر التنعيم والوقفات في تغيير المعاني ، وهي جوانب تحتاج إلى بحوث أخرى مستقلة.

حواشي البحث

- (١) انظر في كل ما مضى: عيون الأنباء ص ٤٣٧ وما بعدها، ابن سينا لكارادوفو ص ١٣٠ وما بعدها، مؤلفات ابن سينا للأب قنواتي ص ٢٠ وما بعدها، ابن سينا فيلسوف النفس البشرية لعبده الخلو ص ١٠ وما بعدها، تحية لابن سينا للدكتور الفحام.
- (٢) مؤلفات ابن سينا ص ٧ .
- (٣) تحية لابن سينا ص ٩، ١٠.
- (٤) ورد اسمه: أبو منصور الجبائي في عيون الأنباء، وأبو منصور بن الجبان في فهرس معهد المخطوطات بالقاهرة أمام كتابه "شرح فصيح ثعلب"، وأبو منصور الجبان في صفحة الغلاف للكتاب السابق، وفي مفتتح الكتاب، وأبو منصور بن الجبان في معجم الأدباء (١٨/٢٦٠)، وأبو منصور الحيان والحيام في بعض مخطوطات "أسباب حدوث الحروف"، والجبائي الأصفهاني في كشف الظنون.. وقد قال عنه ياقوت: "أحد حسنة الري وعلمائها الأعيان. جيد المعرفة باللغة، باقعة الوقت، وفرد الدهر، وبحر العلم، وروضة الأدب. تصانيفه سائرة في الآفاق.. صنف: أبنية الأفعال- شرح الفصيح -الشامل في اللغة- انتهاز الفرص في تفسير المقلوب من كلام العرب..". وقد نال الأستاذ عبد الجبار جعفر درجة الماجستير في موضوع عنوانه "شرح الفصيح لابن الجبان الأصفهاني-دراسة وتحقيق" من جامعة بغداد ١٩٧٤ .
- (٥) عيون الأنباء ص ٤٤٢، ٤٤٣ .
- (٦) تحية لابن سينا ص ١٥، ٢٩ و٣٠ .
- (٧) عيون الأنباء ص ٤٤٠-٤٥٨ .
- (٨) السابق ص ٤٥٧ .
- (٩) المقدمة الفارسية لطبعة طهران.
- (١٠) وردت بعدة روايات في النسخ المخطوطة.
- (١١) انظر دراسة الصوت اللغوي ص ٤ .
- (١٢) الشفاء- في النفس ص ٨٢، وأسباب حدوث الحروف- الفصل الأول.

- (١٣) الشفاء- في النفس ص ٨٣، وأسباب حدوث الحروف- الفصل الأول.
 (١٤) ص ٨٤ .
 (١٥) الفصل الأول.
 (١٦) انظر في تحديد عتبة السمع وعتبة الأمل: كتابنا: دراسة الصوت اللغوي ص ٣١.
 (١٧) الشفاء - في النفس ص ٨٣، ٨٩ .
 (١٨) السابق ص ٨٣ .
 (١٩) أسباب حدوث الحروف - الفصل الثاني.
 (٢٠) أسباب حدوث الحروف- الرواية الأولى من طبعة إيران. الفصل الثاني.
 (٢١) أصوات اللغة عند ابن سينا ص ١٧٨، ١٧٩ .
 (٢٢) أسباب حدوث الحروف - الفصل الثاني.
 (٢٣) السابق.
 (٢٤) لم ترد الهمزة في هذا الفصل، وإنما وردت في الفصل الرابع حين فرق بين الهاء والهمزة واعتبر الحبس تاما مع الهمزة وغير تام مع الهاء.
 (٢٥) الأصوات اللغوية ص ١٣١ .
 (٢٦) السابق ص ١٣٦ .
 (٢٧) السابق والصفحة.
 (٢٨) وفي بعض النسخ: ق ك .
 (٢٩) الكتاب ٤/٤٣١ .
 (٣٠) وفي بعض النسخ : س ز .
 (٣١) سر صناعة الإعراب ١/٥٠ .
 (٣٢) الأصوات اللغوية ص ١١٦ .
 (٣٣) الطرجهالي هو الغضروف الثالث من غضاريف الحنجرة في تشريح ابن سينا. (انظر الفصل الثالث من: أسباب حدوث الحروف).
 (٣٤) الكتاب ٤/٤٣٤ .
 (٣٥) رغم شيوع هذا المصطلح فهو غير دقيق. والأدق أن يقال: الطيّتان الصوتيتان.
 (انظر: دراسات صوتية ص ١١٩) .

- (٣٦) انظر القانون ص ٣٩٤، والعمدة في الجراحة ص ١٠٢ .
- (٣٧) القانون ص ٣٩٤ .
- (٣٨) العمدة ص ١٠٢ .
- (٣٩) الأصوات اللغوية ص ١٤٤ .
- (٤٠) دراسة السمع والكلام ص ١٠٩ .
- (٤١) العمدة ص ١٠٢، ١٠٣ .
- (٤٢) دراسة السمع والكلام ص ١٠٩ .
- (٤٣) الكتاب ٤/٤٣٦ .
- (٤٤) سر الصناعة ١/٧٠ .
- (٤٥) تجد تطابقاً بين ما قاله ابن سينا، وما يقوله المحدثون. فالدكتور إبراهيم أنيس مثلاً يقول عن الظاء: " في حالة النطق بالظاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتقعر وسطه " (الأصوات اللغوية ص ٤٧، ٤٨).
- (٤٦) ٤/٤٣٣ .
- (٤٧) ١/٥٢ .
- (٤٨) الجمهرة ١/٨ .
- (٤٩) أسباب حدوث الحروف-الفصل الرابع.
- (٥٠) السابق.

مصادر البحث

- ١- ابن سينا
- البارون كارادوفو - ترجمة عادل زعيتر - دار بيروت ١٩٧٠ .
- ٢- ابن سينا فيلسوف النفس البشرية
عبد الحلو - بيت الحكمة - بيروت ١٩٦٧ .
- ٣- أسباب حدوث الحروف
ابن سينا - جميع الطبقات العربية والترجمات والمخطوطات الواردة في البحث
- ٤- أصوات اللغة عند ابن سينا
إبراهيم أنيس - مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٧ يناير ١٩٦٣ .
- ٥- الأصوات اللغوية
إبراهيم أنيس - الأجلو - ط رابعة ١٩٧١ .
- ٦- تحية لابن سينا في ذكرى ميلاده الألفية
شاكر الفحام - فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - مجلد ٥٦ ج ١ .
- ٧- الجماهرة
ابن دريد - طبعة بالأوفست عن الطبعة الأولى - مؤسسة الحلبي بالقاهرة .
- ٨- دراسة السمع والكلام
سعد مصلوح - عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٠ .
- ٩- دراسة الصوت اللغوي
أحمد مختار عمر - عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ .
- ١٠- دراسات صوتية
تفريد عنبر - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - القاهرة ١٩٨٠ .
- ١١- الرسالة السابعة النيروزيّة

ابن سينا - ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعات - الجوائب - القسطنطينية

. ١٢٩٨

١٢- سر صناعة الإعراب

ابن جني - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - الحلبي بالقاهرة ١٩٥٤ .

١٣- العمدة في الجراحة

يعقوب بن إسحاق المعروف بابن القف - حيدر آباد الدكن - الجزء الأول - ط

أولى.

١٤- عيون الأنبياء في طبقات الأطباء

ابن أبي أصيبعة - تحقيق نزار رضا - مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٥ .

١٥- الكتاب

سيبويه - تحقيق عبد السلام هارون - هيئة الكتاب بالقاهرة ١٩٧٥ .

أحمد فارس الشدياق

واضع المنهجية الحديثة للمعجم العربي*

مدخل

يعدّ أحمد فارس الشدياق (أو كما سُمي نفسه بالفارياق نَحْتًا من كلمتي فارس وشدياق) واحداً من علماء اللغة القلائل الذين عشقوا اللغة العربية وافتنوا بها ، وألّفوا حولها الكتب لكشف أسرارها وإبراز مواطن التفوق فيها . ولم يكنف بتأليف الكتب عنها ، وإنما كان يحاول - في استخداماته اللغوية ومن خلال أساليب التعبير التي يَختارها - أن يثبت تفوقها وتميزها، وأن يبرز أسرار الجمال فيها، حتى إنه صرح في مقدمة كتابه "الساق على الساق" بأنه هدف أولاً إلى "إبراز غرائب اللغة ونوادرها" (ص ١) ، كما أنه دافع عن كثرة استخدامه الغريب من الألفاظ وللمترادف والمتقارب منها بأنه قصد به "إبراز محاسن لغتنا هذه الشريفة، وتشويق القارئ إليها" (الساق ص ٥٠٩) . بل أكثر من هذا نراه يؤلف كتاباً يبحث فيه خصائص الحروف الهجائية عند العرب ويختار له عنواناً كاشفاً هو "منتهى العجب من خصائص لغة العرب" . كما نراه يتجه في كتابه "سر الليال في القلب والإبدال" إلى رد كل فرع إلى أصله ، وتنسيق معاني المادة تنسيقاً يبين مأخذها وعلاقتها ومناسبتها (سر الليال ص ١٣) . ويكشف عن قصده في اختيار ترتيب يخالف الترتيب الهجائي المعروف مع البدء بالمضعف - يكشف عن قصده قائلاً: "ولولا ما قصدت من الوصول إلى علم معاني الألفاظ والاطلاع على أصل وضعها وحكمة مبناها لما كان لي من عاذر على ارتكاب هذه المخالفة" (السابق ص ٢٢).

* نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة- الجزء ٥٥- نوفمبر ١٩٨٤.

وقد هداه تفكيره إلى خاصة فريدة في اللغة العربية وهي بناؤها على أصوات طبيعية: "ولعمري إن من لم يكن يدري شيئاً من لغة العرب فإذا سمع مثلاً لفظة طنطن ونددن وجلجل ورئم وكان ذا ذوق سليم فلا بد أن يتوهم أنها حكاية أصوات . وكلما كانت اللغة مبنية على هذا المبنى الطبيعي كانت للنفس أشوق وبالطبع أعلق . ولو لم يكن للغة العرب إلا هذا الأسلوب البديع ليشهد بأنها أطبع اللغات وأبسطها لكفى" (السابق ص ٢٥).

كما نراه يعبر عن مكنون نفسه تجاه هذه اللغة الشريفة فيقول في صدر كتابه "سر الليال": "إن يكن المتقدمون قد اشتغلوا بهذه اللغة الشريفة فإني قد عشقتها عشقاً، وكلفت بها حقاً، حتى صرت لها رقاً، فأزهرت لها ذبالي وسهرت فيها ليالي... فإني وجدتها قد مزنت بمزايا بديعة وزينت بصفات سنيعة، تظهر معها بهرجة ما سواها سنيعة" (ص ٢).

وقد انعكس حبه وعشقه هذا في كثرة المؤلفات اللغوية والأعمال المعجمية التي تركها حول اللغة العربية ، معجمها ونحوها وصرفها ، ومن ذلك.

- المحاورة الإنسانية في اللغتين الإنجليزية والعربية.
 - غنية الطالب ومنية الراغب في الصرف والنحو وحروف المعاني.
 - كنز اللغات (فارسي- تركي -عربي).
 - الجاسوس على القاموس.
 - سر الليال في القلب والإبدال.
 - منتهى العجب في خصائص لغة العرب.
- (أحمد فارس الشدياق للدكتور محمد يوسف نجم ص٧٧-٨٠) .

هذا إلى جانب تفرق كثير من أبحاثه ومناظراته اللغوية في كتبه المختلفة وفي مقالاته في " الجوائب". فقد كان من عادته أن يستطرد في بعض المواضع إلى البحث اللغوي عندما يجد الجو مهياً لذلك (السابق ص١٩٦).

ولسنا هنا في مجال عرض كتبه اللغوية أو التعريف بها ، وإنما سنتجه ببحثنا وجهة خاصة يكشف عنها عنوان البحث ، وهي محاولة التعريف بجهود أحمد فارس الشدياق حول المعجم العربي وقضاياها.

وسنتناول جهود الشدياق المعجمية في النقاط التالية:

١- قضايا عامة مرتبطة بالمعجم العربي.

٢- منهجيته المعجمية.

٣- مواصفات المعجمي الناجح.

١- قضايا عامة مرتبطة بالمعجم العربي:

أثار الشدياق في مؤلفاته كثيراً من القضايا التي تعتبر من مقدمات المعجم العربي ، والتي يعد البت فيها ضرورياً قبل اتباع منهجية خاصة في المعجم ومن هذه القضايا:

(أ) قضية الترادف:

يرى الشدياق أن تفسير اللفظ بلفظ مرادف له قد يكون على حساب الدقة اللغوية لأن ما يسمى بالألفاظ المترادفة ليس متطابقاً في الحقيقة : "على أنني لا أذهب إلى أن الألفاظ المترادفة هي بمعنى واحد ، وإلا اسموها المتساوية ، وإنما هي مترادفة بمعنى أن بعضها قد يقوم مقام بعض (الساق ص ١٠). وأعطى الشدياق أمثلة لعدم التطابق منها مقارنته بين كلمتي جلس وقعد (ومشتقاتهما) في السياقات المختلفة، وذلك في قوله: "وعندي أن أصل معنى الجلوس: الحصول على جلس من الأرض ، وهو يقضي بأن يكون من سفلى إلى علو ، ثم عمم. والجلوس غير القعود ؛ فإن الجلوس: الانتقال من سفلى إلى علو ، والقعود: الانتقال من علو إلى سفلى ، وقد يكون جلس بمعنى قعد كما نقول: (جلس متربعاً) ، و (قعد متربعاً) ، وقد يفارقه ومنه (جلس بين شعبها) أي حصل وتمكن، إذ لا يسمى هذا قعوداً ويقال (جلس متكئاً) ولا يقال: (قعد متكئاً)... والمجلس: موضع الجلوس وقد يطلق على أهله مجازاً تسمية للحال باسم المحل ، يقال: (اتفق

المجلس)... ويقال لمن أصيب برجله: مُقْعَد، ويقال كذلك: مُقْعَد صدق ، .. " (سر الليال ٥٥٨) .

ويحذر الشدياق من مزلق آخر يقع فيه اللغويون وهو تعريفهم لفظة بلفظة أخرى من دون ذكر الفرق بينهما بالنظر إلى تعديتهما بحرف الجر كقول الجوهري مثلاً: "الوجل: الخوف" مع أن "وجل" يتعدى بمن ، "وخاف" يتعدى بنفسه. وكقول المصنف (الفيروزآبادي): "العتب: الموجدة والملامة"، "ولام" يتعدى بنفسه، و "عتب" و "وجد" يتعديان بعلى (الجالسوس ص ١٢).

(ب) التوسع في النحت:

دعا الشدياق إلى استعمال النحت لصوغ ألفاظ تسد مسد الألفاظ الأعجمية التي يشيع استعمالها ، ولتنمية الشروة اللغوية ، يقول الشدياق: "وكيفما كان فإن النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع أساليبها ، ولها نظير في اللغة اليونانية وسائر اللغات الإفرنجية ، وهي التي كثرت مواد لغاتهم وأحوجتنا إلى الأخذ منها" (كنز الرغائب/١/٢٠٤).

وبأتى في موضع آخر على ذكر النحت ، ويورد آراء اللغويين فيه ويدعو إلى استعماله ويورد أمثلة مما عثر عليه من المنحوت (السابق/٣/٥ ، ٤). وهو يفسر بعض الألفاظ الرباعية عن طريق النحت فيقول: "جاء الحبتر بالفتح مثل البُحتر ، أي القصير. وعندي أنها منحوتة من الحب والبتر، والحبتره ضؤولة الجسم وقتله" (سر الليال ص ٤١). وهو ينعي على العرب إهمالهم لغتهم واستخدامهم لغات العجم بحجة مرونتها وسهولة التعبير بها ، ويرى النحت إحدى وسائل العربية لتنمية مفرداتها "العرب ... لم يقدرُوا لغتهم حق قدرها ولا عرفوا أنها الفاضلة .. ألا ترى أنهم عدلوا عنها إلى لغات العجم فاتخذوا من هذه ألفاظاً وهي في لغتهم أفصح وأحكم وأعذب منطقاً وأبهى رونقاً... وحتى لو فرضنا أن تلك الألفاظ لم توجد فيها فكان لهم مندوحة عنها إلى النحت الذي هو من بعض مبانيتها" (السابق ص ٣).

(ج) التثبث قبل ادعاء التعريب :

ينصح الشدياق بضرورة التحفظ والتثبث قبل الحكم على كلمة ما بأنها معربة ، فقد يتصادف اللفظ العربي مع اللفظ الأعجمي كما في كلمة "بعل" التي جاءت عربية بمعنى الزوج، والمالك، واليد، والثقل، وكل ما سقته السماء.. مطابقة كلمة "بعل" اسم صنم كان لقوم إلياس، وهو في العبرانية اسم مرادف لقولنا: الصنم (سر الليال ص ٦٨).

وهو لهذا يعجب من بعض المعجميين الذين يسارعون إلى القول بعجمة الكلمة دون سند لغوي ، يقول: "ومن أغرب ما تمحل له (الفيروزبادي) انتصاراً للعجمية قوله في شرز: الشرز الغلظ والقطع والشدة والصعوبة والشديد والقوة... إلى أن قال: والمشرز كمعظم: المشدود بعضه إلى بعض المضموم طرفاه ، مشتق من الشيرازة أعجمية... اهـ. لأنه إذا كان التركيب يدل على القوة والشدة فأى حاجة إلى اشتقاق المشرز من الشيرازة؟ قال ابن السراج : مما ينبغي أن يحذر كل الحذر أن يشتق في لغة العرب شيء من لغة العجم فيكون بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت كما في الزهر" (الjasوس ص ٣١١). ويقول: " من الغريب ما قاله الجوهري إن الحُب بالضمّة: الحايية، فارسي معرب ، مع أن ذكر الماء والطل ونحوهما قد جرى في هذه المادة غير مرة بل هو من عين معنى الحُب، أعني المحبة" (سر الليال ص ٣٩).

ويختار الشدياق عربية كلمات مثل "البخت" و "البريد" و "الإبريز" مرجعاً إليها إلى أصول عربية فالبخت إما أن تكون من معنى "بخ"، أو مأخوذة من "البُخت" وهي الإبل الحراسانية ، والبُخات : مقتنيها ، والبُخيت والمبخوت: المجدود . أما لفظ البريد فقد قال عنه: "البريد يطلق على مسافة فرسخين أو اثني عشر ميلاً . ومع وضوح اشتقاق لفظ البريد فإن أئمة اللغة ذهبوا بها كل مذهب ، قال ابن الأثير في النهاية : البريد فارسية أصلها البغل ، وأصلها : بريده دم ، أي محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت مقطوعة الذنب . وأقول: أهل العربية كسوا هذه اللغة الشريفة ثوباً غير لائق بها فتراهم أبداً يحومون حول اللغات الأجنبية وينسبون إليها ما هو في العربية من خصائصها ومزاياها السنية . وفي المصباح: البريد: الرسول.. ثم استعمل في المسافة التي يقطعها... ويقال لدابة البريد بريد أيضاً فهو مستعار من المستعار. فأنت ترى أن المصباح

جعل اليريد بمعنى الرسول أصلاً وهو الحق" (السابق ص ١٤١). وقال عن كلمة إبريز: "ذهب إبريز: خالص . وفي المصباح أنه معرب ، وعندني أنه عربي من معنى الظهور" (السابق ص ١٤٣).

وبهذا نرى أن الشدياق في إثباته لعربية الكلمات لم يلجأ إلى الحدس والتخمين ، ولم يتخذ بالشبه الظاهري ، وإنما اعتمد على تشابه المعنى داخل المادة ، وإلى خصائص الحروف والأصوات . وهناك دليل آخر اعتمد عليه الشدياق في إثبات عروبة الكلمة، وهي أن تكون اسماً لشيء معروف عند العرب: "نعم إني لا أنكر أن يكون قد دخل في لغة العرب بعض ألفاظ من لغة العجم وهي أسماء لأشياء لم تكن معروفة عند العرب كلفظة الإستبرق مثلا إلا أن ما كان بخلاف ذلك لا ينبغي أن يحمل عليه ، فلا يصح أن يقال إن اللجام معرب لأن العرب عرفت الخيل وما يلزم لها قبل جميع الأمم . ومن هذا القبيل الكنز والحوان..".

(كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ١٩٠/١)

(د) قبول المولد:

يرى الشدياق أن اللغة بنت الحياة ، ويعتقد أنه من غير المعقول أن تكون اللغة قد نشأت دفعة واحدة ، وإنما عن طريق النمو والتطور: "اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شيء منها تامةً كاملاً من أول وهلة ولكن على التدرج". (سر الليال ص ٢٥).

وهو من أجل هذا يرى أن باب الوضع مفتوح أمام المولدين لأنه "يراعي به اللزوم والضرورة وتهذيب اللغة عن أن تُشان بالألفاظ العجمية"، ولأن العرب إذا كانوا قد قالوا كذا وكذا فقد "سأغ لنا أن نقول أكثر من ذلك مما تمس الحاجة إليه، فهم رجال ونحن رجال" (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ٢٠٥/١).

وقد أعلن رأيه هذا بوضوح في خاتمة كتابه "الجاوسوس على القاموس"، وقدم له العديد من الأدلة والبراهين، وألح عليه في كتاباته في "الجوائب"، يقول الشدياق:

"ولو أن العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوسطة ونحو ذلك مما اخترعه الإفرنج لوضعوا له أسماء خاصة ناصة ، فهم على هذا غير ملومين ، وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم تنتبه لوضع أسماء لها على النسق الذي ألفته العرب... أفيظن أحد أن لفظة المشير والسفير والوالي والمتصرف والمدير ومجلس الشورى لا ينبغي أن تعد من الألفاظ العربية لأنها لم تكن معروفة للدولة العباسية . فإذا برأ أحد تلك الدولة لعدم اتخاذها هذه الألفاظ إذ الحاجة لم تمس إليها لم يكن له أن يلوم دولة أخرى على اتخاذها مع وجود الحاجة ، فقس عليها غيرها" (السابق والصفحة). ومن الأدلة التي ساقها الشدياق على قبول ما نقل من ألفاظ عن المولدين من الكتاب والشعراء ما داموا متضلعين في العربية ما يأتي:

- ١- أن المولدين راعوا حق اللغة والتزموا قواعدها أكثر من العرب في الجاهلية لأنهم اعتقدوا أن اللغة وسيلة إلى فهم التنزيل والحديث الشريف فبالغوا في ضبطها ما أمكن. وهذا الأمر لم يكن يخطر ببال العرب قط.
- ٢- أنه لا يمكن أن يخطر ببال عاقل منصف أن الشاعر البليغ من هذه الطبقة يبتدع ألفاظاً ليس لها أصل في العربية ، وهو بين ظهرائي علماء ينتقدون على الطائر طيرانه، وعلى البعير وخذانه.
- ٣- أنه لو كان أحد من المولدين ألف كتاباً في اللغة لقبل لا محالة. فليس من الإنصاف أن تقبل روايته في اللغة ويرد كلامه في الشعر(الجالسوس ص ٥٢٠).

(هـ) قبول كل ما يمكن تصحيحه:

بدا الشدياق في كل كتاباته متوسعاً في قبول كل ما تناقلته كتب اللغة ما دام قد صح نقله، أو وجد له وجه في العربية يخرج عليه. ولهذا كان دائماً ينضم للرأي المجيز، ويجمع الشواهد لدعمه وتأبيده ، ومن ذلك:

١- أنكر صاحب الكليات لفظ "المحسوسات" بناء على أن الفعل عنده رباعي فيلزم أن تكون المحسّات ، قال: أما حسّ الثلاثي فإنه جاء لمعان ثلاثة حسه: قتله، أو مسحه، أو ألقى عليه الحجارة المحمّاة.

وقد رد عليه الشدياق قائلاً: "إن حسّ الثلاثي ورد بمعنى أحس متعدياً بنفسه، صرح به الصغاني في العباب... ومنه الحديث أن أعرابيا جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له: متى حسّست أم ملدم؟ قال: وأي شيء أم ملدم؟ قال: الحمى سخنة تكون بين الجلد واللحم . فإنكار المحسوس مع شهرته على الألسنة والطروس تأباه النفوس". (الجاسوس ص ٥٨).

٢- قال الفيروزبادي: "والسائر الباقي لا كما توهم جماعات"، وقال الصغاني: "سائر الناس باقيهم وليس معناه جميعهم كما توهم من قصر في العربية باعه وضافت في اختيار الغرائب رباعه"، وقال النواوي في تهذيب الأسماء واللغات: "أنكر الشيخ تقي الدين استعمال لفظ سائر بمعنى لجميع فقال هو مردود عند أهل اللغة معدود في غلط العامة وأشباههم من الخاصة".

وقد ذكر الشدياق من الأدلة ما يؤيد صحة الاستعمال ، فقد قال الجوهري: سائر الناس: جميعهم ، وقد ورد في شعر الأحوص وفي كلام الغزالي ، وذكره أبو منصور الجواليقي في أول كتابه "شرح أدب الكاتب" واستشهد على ذلك وإذا انفق هذان الإمامان على نقلها فهي لغة . ويفهم من كلام الخفاجي أيضا أن أبا علي ومن تبعه أجازوا استعمال السائر بمعنى الجميع فكيف قال الصغاني: كما توهم من قصر باعه في العربية؟ (السابق ص ٢١٤ ، ٢١٥).

٣- قال الشدياق: المخابرة: المزارعة على بعض ما يخرج من الأرض وهو من خبرت الأرض إذا شقققتها للزراعة . أما المخابرة التي تستعملها العامة وهي المشاركة في الإخبار فالظاهر أنها مولدة ، ولكنها ليست بعيدة عن منهاج العربية (سر الليال ص ٥١).

٤- قال الشدياق: "باعه يبيعه بيئاً ، فهو بائع ، وأبعته بالألف لغة ، قاله ابن القطاع". (السابق ص ٦٤).

٥- قال الشدياق: "برّاني صحيح ، قال في الدر المصون: قول سلمان الفارسي ، لكل امرئ جواني وبراني ، أي: باطن وظاهر". (السابق ص ١٣٧).

٦- أنكر الحريري استعمال "بين" مكررة في نحو قولك "المال بين زيد وبين عمرو".
قال الشدياق: "وهو كثير في كلام العرب" وساق له شاهداً من قول الأعشى:
بين الأشجّ وبين قيس باذخ
وقول عدي بن زيد:
بين النهار وبين الليل قد فصلا (السابق ص ٢٦٠) وغير ذلك كثير.

(و) توهم الأصالة أو الزيادة وتغيير بناء الكلمة تبعاً لذلك:

يقوم ترتيب الكلمات في المعجم العربي على أساس الجذور ، ووضع الكلمات تحت أصولها بعد تجريدتها من الزوائد . ولكن هناك كلمات كثيرة توهم العرب فيها زيادة الحرف الأصلي أو أصالة الحرف الزائد وصرّفوها بناء على هذا التوهم مما غير بناءها ونقلها من وزن إلى وزن آخر ، ومثل هذا النوع من الكلمات يجب التنبيه في صيغته المتوهمه على أصله . ومن الأمثلة التي ذكرها الشدياق على ذلك ما يأتي:
١- المكان: الموضع والجمع أمكنة وأماكن ، توهموا الميم أصلاً ، حتى قالوا: تمكن في المكان ، وهذا كما قالوا في تكسير المسيل: أمسلة (الجالسوس ص ٣٢، ٣٣).
٢- أستنوا: أي أصابتهم سنة جذب فإنهم توهموا أن السنّة يوقف عليها بالتاء. (السابق ص ١٣٥).

٣- بعد أن ذكر أن الأوجه أن يكون وزن "أول" على "فوعل" بين علة منعه من الصرف وهي "شدة مشابهته لأفعال التفضيل لأنه مبدوء بالهمزة". وبعد أن ذكر أن وزن "أشياء": "أفعال" ذكر أنها منعت من الصرف تشبيهاً لها بفعلاء وعقب على ذلك بقوله: "وقد يشبه الشيء بالشيء فيعطى حكمه". (السابق ص ٣٧٣).

٤- ذكر أن "المَرهْم" مأخوذ من "رَهْم" وأن العرب اشتقوا من الاسم "مرهم الجرح" على توهم أصالة الميم كقولهم "تمكحل" و "تمذهب" و "مردسه" أي رماه بحجر، وهو من المرداس لآلة الرمي. وقالوا أيضاً: مرحبك الله .. (السابق ص ٣٩٥).
وقالوا كذلك "تمسكن" من "سكن" و "تمندل" أي تمسح بالمنديل و "مخرق" على الناس" أي كذب وموه . وكما أنهم استعملوا هذه الأفعال على توهم أصالة أوائل

الحروف ، كذلك استعملوا غيرها على توهم أصالة الأواخر مثل "برهن" و "تسلطن"
(سر الليال ص ٢١).

(ز) مشكلات جمع التكسير:

اعتبر الشدياق جمع التكسير من صعوبات اللغة العربية لما يأتي:

١- أنه أكثر من أن يحصر وربما كان للاسم الواحد عدة جموع كالناقة والعبد مما يقضي بالعناء والجهد (سر الليال ص ٣).

٢- أن الجمع قد يختلف باختلاف معنى المفرد فكلمة "حاجب" بمعنى بواب تجمع على حُجَابٍ وَحَجَبَةٍ ، وكلمة حاجب للعظم فوق العين تجمع على حواجب (السابق ص ٤٢١).

كذلك يفترق معنى "عباد" عن معني "عبيد" مع أن مفردا "عبد" فالعباد مختص بالله تعالى ، فيقال "عباد الله" والعبيد مختص بالناس فيقال "عبيد فلان" (الjasوس ص ٢٠٥).

٣- أن من جموع التكسير ما ليس جمعاً لمفرد ، بل جمعاً لجمع . فالسحاب الغيم مفرده سحابة وجمعه سُحُبٌ . أما جمع السحابة فسحائب . والبيضة واحدة البيض ، والبيض يجمع على بيوض (السابق ص ٢٠٦).

٤- أن من جموع التكسير ما لا مفرد له مثل التجاويد والتعاشيب والتعاجيب والتباشير (السابق ص ٢٠٧).

٥- أن من جموع التكسير - مع اشتهاه - غير قياسي مثل جمع حاجة على "حوائج" (السابق ص ٢٢٨).

(ح) شيوع التصحيف في مرويات اللغويين:

لاحظ الشدياق شيوع التصحيف في المعاجم العربية وعزا ذلك إلى ثلاثة أسباب، اثنان منها يعودان إلى طبيعة الحرف العربي ، والثالث يعود إلى غفلة المعجمي ، وهذه الأسباب هي:

١- أن كثيراً من الكتابات القديمة وصلتنا بدون نقط أو شكل؛ لأن التصحيف لم يحظر لهم على بال ، أو كأنهم كانوا آمنين أن يطرأ على كلامهم تحريف أو غلط ، فلا تكاد تجد كتاباً قديماً إلا على هذا النمط ، ومن هنا كثر الخلاف في الروايات واتسع المجال في التأويل ما بين نفي وإثبات واحتمال وإبتات" (الجاوسوس ٣). كما أنه يرد كثيراً من أمثلة التصحيف فيما نقله الليث إلى هذا السبب فيقول: " ولا يخفى أن الكتابة في عهده لم تكن مضبوطة ، وخصوصاً في وضع النقط فأيسر شيء تبديل الفاء بالقاف والقاف بالفاء " (السابق ص٤١٤).

٢- أن حروف الهجاء العربية متشابهة في الرسم " كأنها نقوش أريد بها الزينة لما يرقم، كما يزين النقش الدرهم" (السابق ص٥) ، فلا عجب " أن تلتبس على قارئها وإن كان من أحذق الخلق .. فيقرأ المهمل منها معجماً ، والمعجم مهملاً" (السابق ص٣ ، ٤).

٣- أن اللغوي حين صادفته روايتان تحتملان التصحيف لتشابههما في الرسم لم يكن يجوز له أن يثبتهما أو يثبت إحداهما إلا بعد تحقق وثبتت يقوم على الأسس الثلاثة الآتية:

(أ) الاحتكام إلى القوانين الصوتية " فإن التعاقب إنما يكون من الحروف التي تكون من مخرج واحد مثل الباء والفاء، والتاء والطاء. فأما الراء والزاي فإنه جاء لفظ فيهما بمعنى واحد فمرجه إلى التصحيف ، مثال ذلك قول المصنف: الشغرية: اعتقال المصارع رجله برجل آخر وصرعه إياه كالشغرية.. وإنما حملته على التصحيف لأن اللفظة الأولى جاءت مقتضبة من دون فعل.. وقوله: اجترع العود: كسره، وهو تصحيف اجترع؛ إذ ليس في مادة جرع ما يدل على الكسر، ولم يحك هذا الحرف أحد غيره من أئمة اللغة (السابق ص١٨٦ ، ١٨٧).

(ب) الاحتكام إلى معنى كل مادة وترجيح إحدى الروايتين تبعاً لذلك ، وأكتفي بضرب المثالين الآتين:

• قال الفيروزبادي في قاء: "وتقيات تعرضت لبعليها وألقت نفسها عليه". وقد تشكك الشدياق في صحة هذه الكلمة وانتهى بعد مقارنة معنى كل من المادتين قاء وفاء إلى وقوع التصحيف فيها . ولندع الشدياق يعبر بكلماته: "قد طالما

أنكرت هذا الفعل المنكر ، واستوحشت منه ، إذا ليس من مناسبة بين القبيء والدلال ، فهو مخالف لحكمة الواضع.. حتى راجعت لسان العرب فوجدت فيه في (فاء) ما نصه: تفيأت المرأة لزوجها تثنت عليه وتكسرت له تدللاً وألقت نفسها عليه من القبيء وهو الرجوع. فسررت بذلك سرور من تنفياً عليه امرأته. ولكن لم أقتنع بقول صاحب اللسان من القبيء، وهو الرجوع، فالأولبي عندي أن يجعل من قولهم فيأت المرأة شعرها إذا حركته من الخيلاء.. والريح تفيء الزرع والشجر أي تحركهما. ثم طالعت الأساس فوجدت فيه ما نصه: وفيأت المرأة شعرها. حركته خيلاء. وتفيأت لزوجها تكسرت له وتميلت غنجاً. والمصنف ذكر فيأت المرأة شعرها في (سفه) لا في مادتها، فكانه رأى السفاهة بها أولى مع عدم تخرجه من القبيء". (السابق ص ٤١٠، ٤١١).

- ذكر الفيروزبادي في مرد: "والمرداء: الرملة لا تنبت، والمرأة لا است لها".

وقد عقب الشدياق قائلاً: "وهو تصحيف، والذي في اللسان والتكملة: وامرأة مرداء لا اسب لها بالباء الموحدة ، وهي شعرتها ا.هـ ، قلت: قد وقع المصنف مرة أخرى في هذا المضييق . وهو في مادة(مرد) غير معذور فإنها تدل على الخلو من الشعر وشبهه حتى قالوا إن المرداء للشجرة التي لا ورق عليها مجاز عن المرأة التي لا اسب لها فكيف لم يفتن لذلك؟" (السابق ص ٤٤٠، ٤٤١).

ويعقب الشدياق على مثل هذا النوع من التصحيف قائلاً: "ظهر لي بعد التروي أن كثيراً من الألفاظ تصحف على أهل اللغة من دون أن يشعروا بها فمرت عليهم مراراً ولكن بدون تعارف وما ذلك إلا لأنهم لم يهتمهم في الكلام التآلف" (السابق ص ١٨٤).

(ج) الاستيثاق من المصادر المختلفة والرجوع إلى أمهات كتب اللغة المطبوع منها

والمخطوط، ومن أمثلة ذلك:

- رجوعه إلى اللسان والتكملة لإثبات التصحيف في عبارة "امرأة لا است لها" ورجوعه كذلك إلى مخطوطات أساس البلاغة للزخشي لإثبات أن ما نسب إلى

الزخشي غير صحيح: "فقد رأيت هذه الكلمة بالباء في ثلاث نسخ من الأساس إحداها في مكتبة المرحوم أسعد أفندي ، والثانية في مكتبة المرحوم عاشر أفندي وهما قديمتان صحيحتان ، والثالثة في مكتبة المرحوم محمد باشا الكوبريلي، فالزخشي بريء مما نسب إليه" (السابق ص ٤٤٠، ٤٤١).

- إثباته تصحيف الحُتْدُ إلى حُنْدُ بالرجوع إلى لسان العرب والصحاح والمحكم (السابق ص ١٨٥).
- إثباته تصحيف اجترع إلى اجترع بأنه "ليس في مادة جرع ما يدل على الكسر"، ويأنه "لم يَحْكُ هذا الحرف أحد غيره من أئمة اللغة" (السابق ص ١٨٧).
- رجوعه إلى الصحاح والعباب والأساس والمصباح والتهذيب واللسان وتاج العروس لإثبات التصحيف في تقيأت المرأة لزوجها ، إلى جانب الاحتكام إلى المعنى (السابق ص ٤١٠، ٤١١، وانظر كذلك سر الليال ص ٤٦).

(ط) كيفية كتابة الهمزة:

يقترح الشدياق - على سبيل النسييل - كتابة الهمزة بصورة واحدة . وقد تعرض لقضية الهمزة بشيء من التفصيل في صفحة كاملة من كتابه "الjasوس على القاموس"، ومما جاء فيها:

١- أما رسمها في الخط وإبدالها من حروف العلة فيكاد يكون علما مستقلا يحوج إلى زمن طويل فلو أنها رسمت في الأصل بشكل مخصوص غير شكل الألف لاسترحنا من مشكلاتها ، فإني أرى المؤلفين غير متفقين على رسمها مع كثرة ما جعلوا له من القواعد والضوابط حتى إن بعضهم جعل الشاذ منه قاعدة كلفظة مسئول ومشوم مثلا فجزم بأنه لا بد من كتبها بالياء مع أن الياء لا مدخل لها هنا ، فالأولى أن تكتب بالواو مع بقاء واو مفعول وكذا رأيتها في الخطوط القديمة . ورأيت المرأة في النسخة الناصرية التي قرئت على المصنف من دون ألف ، وبعضهم يكتب التوأم بألف فوقها همزة وبعضهم يكتبها من دون ألف".

٢- بعد نقله الخلاف في كتابة لفظ "مئة" وقول بعضهم إنها كتبت "مائة" بالألف حتى لا تشته بكلمة "منه" عقب بقوله: "قلت: قوله للفرق بينها وبين (منه)، فهذا الفرق كان ينبغي مراعاته أيضاً في (فئة) فإنها تلتبس بـ(فيه) في نحو قولك: خرج من فيه بناء على ترك النقط . وقد أطربني جداً ما حكاه الشيخ نصر الهوريني عن أبي حيان وهو قوله: وكثيراً ما أكتب أنا مئة بلا ألف مثل كتابة فئة ، لأن زيادة الألف خارج عن الأقيسة".

٣- نقله عن أبي حيان قوله : "فالذي أختره كتابتها بالألف دون الياء على وجه تحقيق الهمزة، أو بالياء دون الألف على وجه تسهيلها، قال وقد رأيت بخط النحاة (مأة) بألف عليها همزة دون ياء. وقد حكى كتب الهمزة المفتوحة ألفاً إذا انكسر ما قبلها عن حذاق النحويين منهم الفراء. روى أنه كان يقول: يجوز أن تكتب الهمزة ألفاً في كل موضع" (الجاسوس ص ٣٧).

(٥) التجمعات الصوتية المؤتلفة وغير المؤتلفة:

تحدث اللغويون القدماء ابتداءً من الخليل بن أحمد عن التجمعات الصوتية التي تأتلف في اللغة العربية مكونة كلمات وعن الأخرى التي لا تأتلف ، ولا تدخل في تشكيل الكلمات ، فسموا الأولى مستعملة والأخرى مهملة.

وقد أشار الشدياق في كتبه إلى نفس الفكرة ، ولكنه زاد عليها فكرة جديدة وهي تقسيم التجمعات المؤتلفة إلى منتجة وعقيمة حسب كثرة فروع المادة ومشتقاتها أو قلتها.

وإذا كان اللغويون القدماء قد نسبوا عدم الائتلاف إلى قرب المخرج فإنه يبدو أن الشدياق لا يعتبر هذا السبب ولهذا عد من غائب اللغة العربية عدم وجود مواد مركبة من حروف خفيفة على اللسان: كلفظة ر س ت مثلاً، فإنها توجد أكثر اللغات ولا وجود لها في العربية ، وإنما توجد مركبة من كلمتين كقولك رست السفينة.. وقس عليه ج ر ت فلا تتألف : إلا بقولك: جرت، وجرت أنا. (سر الليال ص ٥).

أما إشاراته إلى المواد العقيمة فكثيرة منها:

- ١- غَتَهُ فِي الْمَاءِ: غَطَّهُ ، وَمِثْلُهُ غَسَّهُ وَغَمَّتَهُ . وَهُوَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْعَقِيمَةِ (سر الليال (٢٨).
- ٢- ثم ولى رَتْ: زَتْ، وهذا التركيب عقيم (السابق ٣٠٢).
- ٣- نَخَّ الْعَجِينُ تَخُوخَةً: حمض.. ثم تاخت الإصبع في الشيء.. ثم التخربوت ثم التخورور.. ثم التخريص . ثم التخوم . وهذا دليل آخر على أنه متى كان المضاعف عقيماً كان ما بعده أيضاً كذلك" (السابق ص ٢٧٩).
- ٤- تركيب سدأ عقيم (الجالسوس ص ٤٠٨).

٢- منرجيته المعجمية:

على الرغم من أن الشدياق لم يصرف همه إلى تأليف معجم عربي^(١)، فإن العمل المعجمي كان شغله الشاغل ، وعمله الدائب . وقد جاء اهتمامه بالمعجم نتيجة معايشته اليومية له سواء أثناء احترافه التدريس، أو اشتغاله بالترجمة واطلاعه على بعض المعاجم في اللغات التي يترجم منها أو ينقل إليها (انظر خلف الله: الشدياق ص ١١٠).

ويعد كتاباه "الجالسوس على القاموس"، و "سر الليال" من الأعمال المعجمية ؛ إذ خصص الأول لنقد القاموس المحيط وبيان أخطائه التي بلغت أربعة وعشرين خطأ، وقدم له بدراسة عن التأليف المعجمي عند العرب ، وخصص الثاني لتحقيق فكرة راودته حول المادة المعجمية تقوم على رد الفروع إلى الأصول وتنسيق معاني المادة بطريقة تكشف عن مآخذها وعلاقاتها ومناسباتها ، واتخذ الفعل المضاعف أساساً لهذا الترتيب.

ومعظم آراء الشدياق عن المنهجية المعجمية تجدها في مقدمة "الجالسوس" وفي ثنايا نقدهات للقاموس ، كما أنه أشار إلى بعضها في كتابه "سر الليال" ومن هذا وذاك يمكن أن نستخلص الأسس الآتية:

(١) سبق في ذكر مؤلفاته أنه ألف معجماً ثلاثي اللغة (فارسي، تركي، عربي).

(أ) ترتيب المادة اللغوية:

ينتقد الشدياق ترتيب حروف المعجم " فإنه فصل بين الحروف الحلقية والمهموسة وغيرها ، وأنكر من ذلك أنه أقصى الواو عن الهمزة ، مع أن الواو كثيرا ما تقلب همزة لشدة ما بينهما من التآلف ، كما في التوكيد والتأكيد ، والتوقيت والتأقيت.. حتى قرر بعضهم أن كل واو كسرت أو ضمت فلك أن تقلبها همزة كما في وجوه وأجوه.. وغير ذلك مما لا يحصى، ولم نسمع قط أن الباء قلبت همزة مع أنها في الترتيب تاليتها. وأنكر من هذا وذاك أنهم جعلوا الياء آخر الحروف ونحن نرى الأطفال ينطقون بها وبالهمزة أول ما تنفتح أفواههم للنطق ، ولا يخفى أن معظم الأفعال المعتلة واردة من المهموز، وأن الهمزة كثيرا ما تقلب حرف علة (سر الليال ص ٢٢).

ولكنه لم يفتن إلى أن الترتيب الصوتي الذي اتبعه الخليل في معجم العين يحقق القدر الأكبر من مطالبه ، إذ يجمع الأصوات المتحدة المخارج معا ، ويضع الهمزة إلى جانب الواو والياء. فكان حقه أن يتبنى في منهجيته الترتيب الصوتي ، وهو ما يبدو أنه رفضه لصعوبته (الجاسوس ص ٢٣) ؛ ولذا فإنه حين جاء إلى الاختيار اختار الترتيب الهجائي الذي نقده وأخذ يوازن بين طريقتي الصحاح وأساس البلاغة ثم اختار طريقة الأساس . يقول الشدياق في "سر الليال" بعد أن بين أن المضاعف هو الأصل وأن المعاني تدور على فاء الكلمة وعينها: "وبذلك تعلم أن هذا النسق لم يجر على ألسنة العرب عفوا، وأن تبويب الكلام في كتب اللغة على أواخر حروفه مفرق لمعاني الألفاظ ومشتت لمبانيها" (ص ٢٧). ويعيد نفس الفكرة في كتابه "الجاسوس" فيقول: "لا جرم أن الترتيب الذي جرى عليه الصحاح واللسان والقاموس مسهل للمطلوب وخصوصاً جمع القوافي، إلا أنه فاصل لتناسق معانيها وموار لأسرار وضعها ومبانيها" (ص ٢٦).

ثم يقول: "فالأولى عندي ترتيب الأساس للزخشيري والمصباح للفيومي أعني مراعاة أوائل الألفاظ دون أواخرها" (ص ٢٦، ٢٧). ويرد على من فضل طريقة الصحاح قائلا: "فإن قيل إن هذا الترتيب (الترتيب على الأوائل) لا يعين الشاعر على جمع الألفاظ التي تأتي على روي واحد فالأولى ترتيب الصحاح قلت الخطب هين . فعلى اللغويين أن يبينوا سرّ الوضع وعلى الشعراء أن يؤلفوا كتاباً في القوافي" (ص ٢٧).

وإلى جانب اختيار الشدياق لترتيب مادة المعجم على الأوائل طبقاً للترتيب الهجائي المعروف قدم طريقة أخرى طبقها بمهارة في كتابه "الساق على الساق" وهي طريقة المجالات أو الحقول المعجمية . هذه الطريقة تقوم على تقسيم مادة اللغة إلى مفاهيم أو موضوعات يضم كل واحد منها الكلمات التي تندرج تحته مع بيان معنى كل لفظ وتوضيح علاقته بالكلمات الأخرى المصاحبة له في نفس المجال . (انظر علم الدلالة للدكتور أحمد مختار ص ٧٩ وما بعدها).

وليس "الساق على الساق" معجماً حتى نتوقع منه أن يستوعب كل المجالات المعجمية ، وإنما هو كتاب في السيرة الذاتية تناول حياة مؤلفه حتى قدومه الآستانة فقط (يوسف نجم: أحمد فارس الشدياق ص ١٠٥). ومع هذا نجد المؤلف في المقدمة يغفل هذا الغرض الأساسي ، ويشير إلى غرضين: أولهما نص في العمل المعجمي والآخر استطاع بثقافته اللغوية الحصبة أن يحوله إلى عمل شبه معجمي . يقول الشدياق: "جميع ما أودعته في هذا الكتاب مبني على أمرين: أحدهما إبراز غرائب اللغة ونوادرها . ويندرج تحت جنس الغريب نوع المترادف والمتجانس والقلب والإبدال وإيراد ألفاظ كثيرة متقاربة اللفظ والمعنى . والأمر الثاني ذكر محامد النساء ، ومذامهن فمن هذه المحامد ترقى المرأة في الدراية والمعارف، وحركات النساء الشائقة، وضروب محاسنهن المتنوعة التي لم يتصور منها شيء إلا وذكرته في هذا الكتاب(الساق ص ٤ تنبيه).

ولهذا لا تغفل عين القارئ للكتاب عن هذا الغرض المعجمي الذي تغفل في ثنايا مادة الكتاب حتى طغى على هدفه الأساسي غير المعلن. وقد تنبه الدكتور محمد يوسف نجم إلى هذه الحقيقة فذكر أن من أهداف الكتاب إيراد الألفاظ المترادفة والمتجانسة التي رتبها حسب المواضيع (ص ٨٦)، وأن ما ورد منها يشكل مجموعات طريقة من موضوعات مختلفة تتعلق بالفرد والكون والمجتمع مثل ألفاظ الأصوات والعشق، والناسك، وأسماء آلات الحرب، والنجوم، والفرش، والآنية، والطعام، والشراب وسواها(ص ١٠٤).

ويقول ناشر الكتاب في مقدمته: "رأيته قد اشتمل على فوائد جزيلة من سرد ألفاظ كثيرة من المترادف والمتجانس.. وخصوصاً لاشتماله على أخص ما يلزم معرفته من

الآلات والأدوات ، واستيفائه لجميع أصناف المأكول والمشروب ، والمشموم ، والملبوس والمفروش والمركوب والحلي والجواهر مما لم يوجد في كتاب غيره على هذا النمط". ولم يكتف الشدياق بعرض الألفاظ المترادفة في أماكنها مصنفة حسب الموضوعات، فاستدرك ما أغفله منها في بابه " في الجدول المبين للألفاظ المترادفة " (مقدمة الناشر). وهذه نماذج لكيفية تناوله لألفاظ المجالات، وهي في معظم الأحيان تأتي عرضاً أثناء الحديث عن أحد الموضوعات ومن ذلك:

١- ما أتى عليه من أسماء الجواهر استطراداً بعد حديثه عن تفضيل النساء على الرجال، مثل:

- القصب: ما كان مستطيلاً من الجواهر، والدر الرطب، والزبرجد الرطب المرصع بالياقوت.
- الكبريت: الياقوت الأحمر، والذهب.
- المرجان: صغار اللؤلؤ.
- الخريذة: اللؤلؤة لم تثقب.
- الفريذة: المشدر يفصل بين اللؤلؤ والذهب، والجوهرة النفيسة، والدر.
- الجُذاذ: حجارة الذهب.
- التبر: الذهب والفضة أو فتاتهما قبل أن يصاغا.
- السَّيراء: الذهب الخالص.
- الشُّدر: قطع من الذهب تُلَقَط من معدنه بلا إذابة، أو خرز يفصل بها النظم.
- النُّضار: الجواهر الخالص من التبر.
- الجَرَج: الخرز اليماني الصيني.
- اليَنع: ضرب من العقيق.
- الصُّرَيْف: الفضة الخالصة.
- الجُمان: اللؤلؤ، أو هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة، أو خرز بيض بماء الفضة (ص ٢٩٠ وما بعدها).

٢- ما ذكر من الثياب مثل:

- الجلباب: القميص، وثوب واسع للمرأة.
- القَصَب: ثياب ناعمة من كتان.
- المُعْرَجَة: المخططة في التواء.
- المُجَسَّدَة: المصبوغة بالزعفران.
- الدثار: ما فوق الشعار من الثياب.
- السابرية: الثياب الرقيقة الجيدة.
- الصَّدار: ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى الصدر (ص ٣٠٧ وما بعدها).

٣- ما تناوله من ألفاظ الحب ودرجاته ، وسأنقله بنصه:

"ولا بأس للمتزوجات بقراءة كتابي هذا وأمثاله لأنه كما أن من ألوان الطعام ما يباح للمتزوجين دون غيرهم فكذلك هي ألوان الكلام. والظاهر أن اللغة العربية شَرَك للهوى إذ يوجد فيها من العبارات الشائقة المتصيبة ما لا يوجد في غيرها. فمن قرأت مثلاً في شرح المشارق لابن مالك أن مراتب العشق ثمانية أَدانها الاستحسان وبنشأ عن النظر والسماع ثم يقوى بالتفكر فيصير مودة وهي الميل للمحبوب، (أي المحبوبة) ثم يقوى فيصير محبة وهي ائتلاف الأرواح. ثم يقوى فيصير خلة وهي تمكن المحبة في القلب حتى تسقط بينهما السرائر . ثم يقوى فيصير هوى بحيث لا يخالطه تلون ولا يداخله تغير. ثم يقوى فيصير عشقاً وهو الإفراط في المحبة حتى لا يخلو فكر العاشق عن المعشوق (أي المعشوقة) وأنه يقوى فيصير تتيماً وفي هذه الحالة لا ترضى نفسه سوى صورة معشوقه (أي معشوقته). ثم يقوى فيصير ولها وهو الخروج من الحد حتى لا يدري ما يقول ولا أين يذهب وحينئذ تعجز الأطباء عن مداواته. قلت: وإن من أنواعه أيضاً الصباية وهي رقة الهوى والشوق والغرام وهو الحب المستأسر. والهيام وهو الجنون من العشق. والجوى وهو الهوى الباطن. والشوق وهو نزاع النفس. والتوقان وهو بمعناه. والوجد وهو ما يجده المحب من هوى المحبوب (أي المحبوبة). والكلف وهو الولوع. والشغف وهو إصابة الحُب الشغاف أي غلاف القلب أو حجابهُ أو حَبْتُهُ أو سُوَيْدَاءهُ. والشغف وهو أن يغشى

الحب شَعَفَةَ القلب وهو رأسه عند معلق النياط منه. والشَّعْفُ وهو بمعناه. والتَّدْلِيهِ وهو ذهاب الفؤاد عشقاً - لم تتمالك أن تحس بهذه المراتب السنوية كلها حالاً بعد حال" (ص ٦٥).

(ب) الترتيب الداخلي للمادة :

أكثر ما ضايق الشدياق في المعاجم العربية ، غياب النسق في عرض مفردات اللغة تحت المادة الواحدة . فما دامت المعاجم العربية قد اختارت طريقة الجذور في ترتيب الكلمات، وكانت هذه الطريقة تقتضي سوق العديد من الفروع والاشتقاقات تحت المدخل الواحد ، فقد كان من المنطقي أن تتفطن هذه المعاجم إلى طريقة لترتيب هذه الفروع، وهو ما لم تفعله.

وقد ألح الشدياق على هذه النقطة في كتابيه "سر الليال" و " الجاسوس على القاموس" وبين الانعكاسات السلبية لهذه الفوضى على مستعمل المعجم. واقترح للخروج من هذه الفوضى منهجاً للترتيب الداخلي يقوم على أساسين هما اعتبار جانب اللفظ بتقديم المجرد على المزيد، والثلاثي على الرباعي، وجانب المعنى عن طريق البدء بالحسي قبل المعنوي، والحقيقي قبل المجازي واستيفاء معاني الكلمة قبل الانتقال إلى كلمة أخرى.

وهذه هي آراؤه في نصوص كلماته:

١- فيما يتعلق بالفوضى في سرد الكلمات يقول الشدياق: "إن من أعظم الخلل وأشهر الزلل في كتب اللغة جميعاً ، قديمها وحديثها ، ومطولها ومختصرها ، ومتونها وشروحها ، وتعليقاتها وحواشيتها خلط الأفعال الثلاثية بالأفعال الرباعية والخماسية والسداسية ، وخلصت مشتقاتها . فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي ، أو رأيت أحد معاني الفعل في أول المادة وباقي معانيه في آخرها .

ففي مادة (عرض) التي هي في القاموس أكثر المواد اشتقاقاً وتشعباً ذكر الجوهري المعارضة التي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى المجانبة بثلاثة وثلاثين سطرًا.

وصاحب القاموس أورد (احتمل الصنيعة) أي: تقلدها في أول المادة ، ثم (احتمل) أي اشترى الحميل للشيء المحمول من بلد الى بلد في آخرها ، وبينهما أكثر من ثلاثين سطرًا ، والشارح أورد في تاج العروس (اختلج) بمعنى تحرك بعد اختلج بمعنى نكح بنحو ستة وخمسين سطرًا. ولهذا أنصح مطالعي كتب اللغة ألا يقتصروا على فهم اللفظ في موضع واحد ، بل لا بد لهم أن يطالعوا المادة من أولها إلى آخرها . لا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصير المطالع ويجرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائرًا بائسًا" كما ذكر أن من سلبيات هذه الفوضى أنها تحوج الباحث إلى قراءة المادة كلها فيعود نشاطه ملالا ، وجده كلالا ، "وربما تصفح المادة كلها وأخطأه الغرض بخلاف ما إذا كانت الأفعال مرتبة على ترتيب الصرفيين فإنه ينظر أولاً إلى الفعل الثلاثي ومشتقاته في أول المادة ، وإلى الحماسي والسداسي ومشتقاتهما في آخرها وإلى الرباعي ومشتقاته في وسطها، فلا يضيع له بذلك وقت ولا يكل له عزم، ولا يخيب سعي" (الjasوس ص ١٠، ١١).

واعتبر من هذا النوع كذلك عدم بدء المادة بالفعل دائماً: "ومن ذلك أنهم يبتدئون المادة باسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهة أو اسم المكان والآلة، عوضاً عن الابتداء بالفعل أو المصدر كقول الجوهري في أول مادة جزر: الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى ثم قال بعد أربعة عشر سطرًا: وجزرت الجزور واجتزرتها: إذا نخرتها وجلدتها فالجزور على هذا فعول بمعنى مفعول فما معنى ذكره قبل الفعل؟ (الjasوس ص ١٤).

بل رد الشدياق معظم ما فات اللغويين من ألفاظ صحيحة فصيحة إلى هذه الفوضى الداخلية فتراه يقول عن صاحب القاموس: "إن المصنف أهمل كثيراً من الألفاظ التي ذكرها الجوهري مبسطة مشروحة ، وأغربه ما كان في المواد القليلة الاشتقاق نحو (شهد) فإن المصنف أهمل فيها السهاد مع أن الجوهري ابتداءً المادة به.

وأعظم أسباب هذا الإهمال أنه لم ينسق ترتيب الأفعال ومشتقاتها على نسق الصرفيين . فمن يخلط في ترتيب الكلام على هذا المثال فلا بد وأن يفوته منه شيء" (الjasوس ص ١٠٧، ١٠٨).

٢- أما بالنسبة لضرورة بدء المعاني بالحسي منها فإن الشدياق يقول:

- ابتدأ الفيروز ابادي مادة عبر بعبرت الرؤيا ، والجوهري بالعبرة من الاعتبار، والفيومي بعبرت النهر. وهو الصواب لأن احتياج العرب إلى قطع النهر والوادي أشد من احتياجهم إلى تفسير الأحلام (سر الليال ص ٦١).
- "قد أجمعوا على أن المهذب للرجل الكامل مأخوذ من تهذيب الشجرة بناء على أن الأمور المعنوية أو العقلية مأخوذة من الأشياء الحسية ضرورة أن الحواس الظاهرة هي التي تبعث الحواس الباطنة على التفكير والتخيل وتقدير ذلك أن العقل مأخوذ من عقلت البعير ، والحكمة من حكمة اللجام والذكاء لتوقد الذهن من ذكاء النار . وأصل معنى الإدراك من أدرك الرجل أحداً إذا لحقه..." (سر الليال ص ١١).

٣- ويرى الشدياق كذلك ضرورة بدء المعاني الحسية بأبسطها فيقول:

"واعلم أنه متى ما اجتمع معنيان في فعل من الأفعال الكثيرة الوقوع والاستعمال ينبغي تقديم الأيسر منها، كما في سبغ مثلاً، فإنه يدل على العوم والحفر فنقول إن الحفر أول المعنيين لأنه أدنى إلى الأحوال الطبيعية وألزم إلا أن كثرة الاستعمال غلبت المعنى الأول. وهذا الأمر قلما يعتبره أصحاب اللغة وخصوصاً صاحب القاموس، فإنه يبدأ بمتفرعات معنى المادة ويترك الأصل إلى آخرها" (سر الليال ص ١٣).

٤- ومما يراه الشدياق ضرورياً لتحقيق الترتيب الداخلي ذكر المعنى

الحقيقي قبل المعنى المجازي ، ولهذا اعتبر من خلل المعاجم العربية "تقديم المجاز على الحقيقة ، أو العدول عن تفسير الألفاظ بحسب أصل وضعها".

ومثل لذلك بمادة "كتب" حيث بدأ "صاحب القاموس بقوله: كتبه كَتَبًا وكتابا خطه ، ومثله صاحب المصباح والزحشري ، مع أن أصل الكَتَب في اللغة للسقاء . يقال: كتب السقاء أي خرزه بسيرين، وهو من معنى الضم والجمع ومنه الكتيبة للجيش. ثم نقل هذا المعنى إلى كتب الكتاب ، وحقيقة معناه: ضم حرف إلى آخر" (الجاموس ص ١١).

ويطرح الشدياق اعتراضاً قد يوجه إلى هذا المبدأ ويرد عليه قائلاً: "فإن قيل إن أئمة اللغة إنما يبتدئون المادة بأشرف ما فيها من المعاني، قلت كان عليهم بعد الفراغ من المجاز إذا كان أشرف المعاني أن يقولوا مثلاً: وأصل هذا المعنى من قولهم كذا وكذا. لا جرم أن الابتداء بالأصل لا يخل بالترتيب فإن الجوهرى ابتداء مادة (خلق) بخلق الأديم وهو تقديره قبل قطعه.. وزاد الزحشري على أن جعل خلق الله الخليفة مجازاً عنه" (الجالسوس ص ١١).

(ج) الربط بين المعاني الجزئية للمادة بمعنى عام يجمعها:

يرى الشدياق أن من واجبات المعجمي أن يقوم في كل مادة بالتماس المعنى العام أو المعاني العامة التي ترد إليها جميع المعاني الجزئية للمادة ، وهو ما يذكرنا بصنيع ابن فارس في معجمه المقاييس. بل قد حاول ما هو أكثر من هذا في كتابه "سر الليال"، حين قام بعملية الربط هذه بين المواد التي تختلف في بعض حروفها وتتفق في بعضها الآخر أو تختلف في ترتيبها ، وهو ما يذكرنا من جهة بالاشتقاق الأكبر عند ابن جني ، وما سماه بتصاقب الألفاظ لتصاقب المعنى من جهة أخرى (الخصائص ١٣٣/٢، ١٤٥).

والأمثلة كثيرة على النوع الثاني ، ونكتفي منها بالمثالين الآتيين:

١- يقول الشدياق: البحت الصرف ، والخالص من كل شيء ومثله: المحت والحتم والمحض (سر الليال ص ٤٧).

٢- ويقول: "لا بد من التسليم بأن العرب تعمدت معنى من المعاني ثم نسقت عليه الأفعال المتفقة حروف فائها وعينها نسقاً متفناً فيه ، فتارة قصدت نسبته إلى المعقول، وتارة إلى المحسوس ، مثال ذلك لفظة (كس) أي دق دقاً شديداً فقد صاغت منه لفظة (الكسيس) للخبز المكسور، ثم قالت (كسأ) بمعنى ضرب ، و (كسء) من الليل : قطعة منه، فأجرت معنى الكسر على شيء غير محسوس، ثم قالت (كسب) فإذا تأملته وجدته لم ينقطع عن معنى الكسر أو القطع ثم قالوا (كسد) الشيء أي لم ينفق فضمنوه معنى القطع عن البيع ، ثم قالوا (كسر) ومعناه ظاهر، ثم (الكسط) بمعنى الغبار فبقيت مناسبة الكسر فيه ، ثم (كسعه) بالسيف ورجل (مكسع) إذا لم يتزوج فضمنوه معنى منقطع عن الزواج،

ثم (الكسفة) القطعة من الشيء . (وكسفت) الشمس والقمر . احتجبا فضمن معنى الانتقاطع عن النور ، ثم (الكسل) فضمن معنى الانتقاطع عن النشاط. وانظر أيضاً إلى غمّ وغمت وغمد وغمر وغمس وغمص وغمض وغمط وغمق وغمل وغمن وغمى فإنها كلها تدل على الستر والتغطية مع اختلاف المعاني. " (سر الليال ص ٢٧ ، وانظر ص ٤ ، ٥).

أما النوع الأول الذي يقوم على ربط معاني المادة الواحدة بمعنى عام يجمعها ، فهو الذي يهمننا هنا ، وهو الذي ينبغي على المعاجم العربية أن تتفطن إليه ، وأمثله في كتبه المتعددة كثيرة ، ولذا سنتنصر على النماذج الآتية منه:

١- تغليط الفيروزابادي في اشتقاقه السُّرية من السر للجماع ، وذهابه في اشتقاقها إلى أنها من السُّر بمعنى السرور. (السابق ص ١١).

٢- اشتقاقه العمامة من عمّ بمعنى شمل ، لأنها تعم الرأس (السابق ص ٢١).

٣- رده معنى " العبد " إلى عبد بمعنى غضب لأنه يغضب لمالكه (سر الليال ٥٨).

٤- قوله إن "حمو الرجل" و"حمو المرأة" مأخوذ من حمو الشمس وحقيقة معناه: من به حمو للغيرة على المرأة . ومثله لفظ الصهر للقرابة ولزوج بنت الرجل وزوج أخته فإن معناه في الأصل من الحرارة (السابق ص ٥٨).

٥- ذكره أن للجبر معنيين أصليين هما ضد الكسر، والإجبار على الشيء. ثم أطلق الجبر على الملك والشجاع ويصح أن يكونا من كلا المعنيين، ثم على الغلام لأن فيه جبراً لأبيه. ثم قيل من المعنى الأول: جبر العظم ، وجبر الفقير ، والمتجبر : الأسد، والجبار: الله تعالى لتكبره، والنخلة الطويلة الفتية، والجبيرة.. إلخ (السابق ص ٩٩).

٦- رده معنى "القيء" إلى الرجوع ، ومنه سمي الظل فيناً لرجوعه من جانب إلى جانب ، ومن معنى الرجوع أيضاً: الغنيمة والخراج ، وفي الحديث: القيء على ذي الرحم ، أي العطف عليه والرجوع إليه بالبر (السابق ص ٢٦٣).

٧- رده معنى "السبت" إلى القطع . ومنه جاء السبت بمعنى حلق الرأس ، وضرب العنق ، ويوم من أيام الأسبوع لانتقاطع الأيام عنده ويوم الراحة لانتقاطع الإنسان عن العمل (السابق ص ٢٦٤).

(د) وضوح التعاريف وتعدد طرق التفسير:

يشترط الشدياق لصحة التعاريف شروطاً ثلاثة هي:

أولاً: وضوحها ، وعدم إيقاعها في لبس.

ثانياً: تعدد طرقها .

ثالثاً: خلوها من الدور والتسلسل.

أما بالنسبة لوضوح التعاريف فقد ألح عليه في كتبه وبخاصة في "الjasوس" (المقدمة ٣) ، وعد من عدم الوضوح إيراد ألفاظ في التعريف لا ترد في مظانها مع توقف المعنى عليها كقول الجوهرى في ربح: ربح في تجارته أي استشف ، ولم يذكر استشف في بابها ، وقول ابن سيده في بلد: البلد: كل قطعة مستحيزة من الأرض . ولم يذكر استحاز في حوز ولا في حيز (الjasوس ص ١٤ ، وانظر سر الليال ص ٢٦٠). كما عد منه ذكر اللفظ دون تفسيره كقول الفيروزابادي في بعر: "والبعار: الشاة تباعر حالها ، وككتاب الاسم" ، قال الشدياق: "ولم يفصره . وعبارة المحكم: باعرت الناقة والشاة إلى حالها: أسرعت ، والاسم البعار" . (الjasوس ص ٥٧).

وكقوله في صيف: "صيفت الأرض كعني فهي مصيفة ومصيوقة" قال الشدياق: "ولم يفصره ، وعبارة الصحاح: صيفت الأرض فهي مصيفة ومصيوقة إذا أصابها مطر الصيف. وعبارة المحكم: الصيف: مطر الصيف ونباته ، وصيفت الأرض فهي مصيفة إذا أصابها الصيف" (السابق ص ٥٩).

وعد منه كذلك غموض عبارة الشرح كقول الفيروزابادي: "جُئس وتبجُئس نقص ولم يبق إلا في السلامى والعين" قال الشدياق: "وهي عبارة مبهمة والواضح ما قاله الجوهرى: جُئس المخُ تبخيئساً: أي نقص ، لم يبق إلا في السلامى والعين ، وهو آخر ما يبقى" (سر الليال ص ٥٥) . ولهذا قسا على الفيروزابادي في مقدمة جاسوسه لأنه في نظره - يبدل عبارة المعاجم الفصيحة إلى عبارة غامضة مبهمة حشوها عجمة قبيحة. ومن كان شأنه هكذا قلت به الثقة . لأن تعريف الكلام العربى ينبغي أن يكون فصيحاً مبيناً، محكماً رصيناً ، وإلا مجه السمع ، ونا عنه الطبع. (الjasوس ص ٥٤).

وفي مكان آخر يعقب على عبارة للفيروزابادي بعد تقدها - يعقب بقوله: "فإن كتب اللغة ليست ألعازاً" (ص ٤٩).

وأما بالنسبة لتعدد طرق التفسير، فقد ذكر منها المرادف، والمضاد، ووضع الكلمة في سياقاتها المختلفة . وليس له طريقة محددة يفضلها على غيرها فتارة يقنع بالمرادف وتارة يفضل المضاد عليه كتفضيله تفسير الحبس بـ ضد التخلية على تفسيره بالمنع (سر الليال ص ٤٢) كما أنه في كثير من الأحيان يحذر من التعريف بالمرادف لعدم وجود التطابق التام في اللغة . (انظر ما سبق عن رأيه في الترادف) ، ولأنه ربما تعددت معاني اللفظ المفسر فلا يُعلم المراد منه بالتحديد ، ولهذا فهو ينصح بالحذر في استعماله.

والاقتباسات الآتية تكشف عن صعوبة التفسير بالمرادف في نظر الشدياق:

١- وصف الشدياق ابنة أحد الأمراء فقال: "كانت ذات طلعة بهية وشمائل مرضية تامة الظرف ، ناعسة الطرف". ولكنه استدرك على وصف طرفها بالنعاس فقال: "ولكن ليس المراد من ذلك أنها كانت لا تبصر من يجيها كما يكون من به نعاس ، وإنما المعنى أنها ذابلتها". ولكنه عاد فاستدرك قائلاً: "حتى ولا هذه العبارة مفصحة عما أريد أن أقوله فإنها توهم أنها كانت ذابلة مع أنها كانت غضة بضة" وعقب بمقصوده من الكلمة قائلاً: "بل المقصود أن أقول إنها كانت تنظر عن تحشيف" وعاد فاستدرك قائلاً: "ولكن مادة حشف لا تعجبني لأنها تدل على اليبوسة والحساسة والرداءة ، بل المراد أنها كانت تكسر جفنيها عن النظر"، واستدرك للمرة الرابعة قائلاً: "ولا الكسر أيضاً لائق بها ، فلا أدري كيف ألحن للقاريء ما أردت . ولعل الأوفق أن يقال إنها كانت ترمي بسهام من عينيها ولم يكن صغر سنها مانعا من تتبيل من ينظرها" (السابق ص ٦٢).

٢- عد الشدياق من قصور المعاجم أنها حين تعرف لفظة بأخرى لا تهتم بذكر الفرق بينهما بالنظر إلى تعدديتهما بحرف الجر كقول الجوهري مثلا: الوجل: الخوف ، مع أن وجل يتعدى بمن وخاف يتعدى بنفسه . وكقوله أيضاً الجنف: الليل . وهو يوهم أنه يقال جنف عنه وعليه وإليه كما يقال مال عنه وعليه وإليه . (الجاموس ص ١٢).

٣- أخذ الشدياق على القاموس أنه يفسر الكلمة بكلمة أخرى لها معان مختلفة فلا يعلم المتعین منها ، كقوله: البغس: السواد ، وهو يطلق على اللون المعروف ، وعلى

الشخص ، والمال الكثير ، وعلى القرى ، والعدد الكثير ، وغير ذلك. وقوله :البند: العلم الكبير ، وهو يطلق على الجبل والراية ، وسيد القوم ، وغير ذلك (السابق ص٢٠١).

أما وضع الكلمة في سياقاتها اللغوية المختلفة فهو أفضل وسيلة عند الشدياق ، وهو بذلك يتفق مع أصحاب المدرسة السياقية الذين يرون أن معنى الكلمة هو تسييقها ، أو وضعها في سياقاتها اللغوية المتعددة . والأمثلة كثيرة على حرص الشدياق على توضيح معنى الكلمة بذكر استعمالها المتنوعة والنص على مصاحباتها من الألفاظ، نذكر منها:

١- عرضه الفعل باع في تعبيراته السياقية المتعددة ، فيقال: باع زيدا الدار ، وقد يقتصر على المفعول الثاني، ويجوز الاقتصار على المفعول الأول عند أمن اللبس كقولك: بعث الأمير ، وقد تدخل " من" على المفعول الأول كقولك "بعث من زيد الدار" وربما دخلت اللام مكان "من" كقولك: بعثك الشيء، وبعته لك (سر الليال ص٦٤).

٢- ذكره لكلمات الألوان التي تأتي وصفاً للفظ الموت مثل:

- الموت الأحمر: وهو أن يتغير بصر الرجل من الهول فيرى الدنيا في عينيه حمراء وسوداء.
- الموت الأغبر: وهو الموت جوعاً . لأنه يغبّر في عينيه كل شيء.
- الموت الأسود: وهو الموت في غمة الماء .
- الموت الأبيض: وهو موت العافية ، أو موت الفجاءة ، لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه (السابق ص ٣٣٧).

٣- يمدح الشدياق الصحاح ويميزه على القاموس لحرصه على جملة أشياء منها "تعليم المركب من الكلام فضلا عن تعريف المفردات". ويمثل لذلك بقوله: "ما كنت عمًا ، ولقد عممت عمومة ، وبينى وبين فلان عمومة ، كما يقال أبوة وخؤولة ، وعمّم الرجل: سُود لأن العمائم تيجان العرب ، كما قيل في العجم تُوج" ، وقوله: "أية غول أغول من الغضب" ، وقوله: " دعني وعليّ خطي وصوبي ، أي صوابي" ، وقوله: "الإسجاج: حسن العفو ، يقال ملكت فأسجح ، ويقال: إذا سألت فأسجح ، أي سهّل ألفاظك وارفق".

ويفضل أساس البلاغة على جميع المعاجم لحرصه على عرض الألفاظ في تراكيبها فيقول: " وأشهر من تحرى تعليم المركبات مع السجع الزمخشري في أساس البلاغة ، فهذا الأسلوب انتهى إليه " (الجالسوس ص ٨١).

أما بالنسبة للشرط الثالث ، وهو خلو التعاريف من الدور والتسلسل ، فقد تناوله أكثر من مرة في كتابه "الجالسوس" واعتبر عدم التزامه من خلل القاموس يقول الشدياق في مقدمة كتابه: "ومن تعريفه الدوري والتسلسلي: باحة الدار: ساحتها، ثم قال في فصل السين: ساحة الدار باحتها... تسنيم القير: خلاف تسطيحه ، وفي سطح: تسطيح القير: خلاف تسنيمه..، تسور الحائط: تسلقه: وفي سلق: تسلق الحائط تسوره" (ص ٨٦).

ويقول في نقده الرابع للقاموس: "في روح: الروح ما به حياة الأنفس وقال في تعريف النفس: إنها الروح، فيكون حاصل المعنى: الروح: ما به حياة الأرواح. فلو قال: الروح ما به حياة الإنسان أو الجسد لسلم من العجمة" (ص ٢١٧). ويقول تعقيباً على قوله: "الضرس : السن": وقال في باب النون: السن: الضرس ، وهو تعريف دوري . والضرس غير السن ، وهو المتعارف بين الناس (ص ٢٢٥). كما خصص النقد الثالث عشر من نقوده لتعريفات الفيروزبادي الدورية والتسلسلية وضرب أمثلة كثيرة عليها (ص ٣٠٢- ٣٠٣).

(هـ) الوقوف عند اختصاص المعجم:

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يقصر مادته على ألفاظ اللغة غير القياسية، ولذلك اعتبر من قبيل التجاوز لوظيفة المعجم أن يهتم المعجمي بما يعد من المعلومات الموسوعية ، أو بما يعتبر من المشتقات القياسية ، أو بما يدخل في باب الفضول أو الاستطراد الذي لا فائدة فيه . وقد انصب كثير من نقده للقاموس على هذه النقطة التي اعتبرها من أقبح أنواع الخلل فيه.

وقد اعتبر من باب المعلومات الموسوعية التي يجب أن يتجرد منها المعجم "خواص الأشياء ومضارها ومنافعها مما حرص عليه صاحب القاموس كل الحرص؛ فكل

يعلم أن موضعها كتب الطب لا كتب اللغة" (سر الليال ص ٦٠٧ وانظر الجاسوس ص ٣١٧). وكذلك المعلومات الجغرافية التي جعلت القاموس "عبارة عن كتاب في الجغرافية" (الجاسوس ص ٣٢) وذكر الأعلام "كأسماء المحدثين والفقهاء وغير ذلك مما لم تكن العرب تعرف له عينا ولا أثراً ، حتى إن المصنف من شدة تهافتة على ذكر الأعلام أهمل ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف. ففي مادة رحم أهمل الرحمن والرحيم واجتزأ عنهما بذكر محمد بن رحمويه.. ورحيم كزبير.. ومرحوم العطار" (السابق ص ٨٠ ، ٨١ وانظر ص ٣٠٥ - ٣٠٨).

وقد اعتبر الشدياق تعرض الفيرزابادي إلى ما ليس من اختصاصه السبب في وقوعه في الأخطاء والأوهام التي لا تكاد تقع تحت حصر: "إن حق اللغة اقتصر من مصنفه فإنه ربه في أغلاط كثيرة في ذكر تلك الأعلام التي فضلها على كلام العرب . حيث جعل الابن أبا، والأب ابنا، والرجل امرأة، والمرأة رجلا، والمدينة جبلا، والجبلى مدينة والغرب شرقاً، والشرق غرباً" (السابق ص ٨١).

واعتبر الشدياق كذلك من باب الفضول واللغو ذكر ما يمكن الاستغناء عنه من المشتقات لقياسيته ، ولضرورة العلم به لإيراد الفعل المبني للمجهول بعد الفعل المبني للمعلوم ، وكذكر مصدر غير الثلاثي ، وكانص على اسم المرة أو الهيئة أو الزمان أو المكان . ومن الأمثلة الكثيرة التي ذكرها نلتقط ما يأتي:

١- قال الجوهري: حايته البيع محابة . ولو حذف المصدر وأتى بلفظة تفسر الفعل لكان أولى لأن المصدر قياسي لا يلزم ذكره (سر الليال ص ٤٦).

٢- أهل اللغة لا يستوفون من كل فعل ثلاثي مشتقاته ومزيداته ، إذ لم أر في القاموس والصحاح: استبخله: عده بخيلا، ولا باخله: غالبه بالبخل ، ولا تباخل: كما تقول تمارض وتباله (السابق ص ٥٧).

٣- إيراد الفعل المجهول بعد الفعل المعلوم لغو لأنه حيثما وجد المعلوم المتعدي وجد المجهول . نعم إذا ثبت أن العرب لم تنطق بفعل إلا مبنياً للمجهول فحينئذ يتعين ذكره (الجاسوس ص ٢٤١).

٤- عقد الشدياق فصلا سماه "فيما ذكره من قبيل الفضول والحشو والمبالغة واللغو" ضمنه كثيرا من الصيغ القياسية التي لم يكن هناك داع لذكرها. (الjasوس ص ٣٠٣ وما بعدها).

أما ما يدخل في باب الفضول والاستطراد ، ولا يعد من باب اللغة في شيء ، ولذا لا يصح للمعجمي أن يذكره فقد استقى الشدياق أمثلته من القاموس الذي بلغ الغاية في ذلك حتى تجاوز كل حد ومن ذلك:

١- قول الشدياق : لم يزد القاموس شيئا على العباب والمحكم إلا ما كان من قبيل الحرافات ، التي لا يتلفث إليها الثقات الأثبات، وذلك كخرافة الفقنس واللوف والزبيري والرخ والجزائر الخالدات ، وغير ذلك من المحالات (الjasوس ص ٥٤).

٢- وقال الشدياق: ومما تصدى له من الحكايات التي لا تعلق لها باللغة أصلا حكاية ثلاث بنات كن لهمام بن مة وكان أبي أن يزوجهن فأشدت كل واحدة منهن بمسمعه بيتا ينبي عن اغتلامها . وهي حكاية سخيفة تنبو عنها كتب المجون. ذكر ذلك في قنف ومثله ما ذكره في زول (السابق ص ٣١١ وما بعدها).

٣- ومن ذلك ذكره أسماء أصحاب الكهف (ص ٣٠٥) وأسماء جماعة من المخنثين (ص ٣٠٧).

٤- وكذلك قول الفيروزابادي: شحينا كلمة سريانية تفتح بها الأغاليق وقد عقب الشدياق قائلا: "قال المحشي: أي مناسبة بين هذا وبين كلام العرب ولغاتهم على أنه لغو من الكلام وباطل فلا تفتح به الأغاليق ولا ينبغي ذكره من المصنف لو كان صحيحاً ولا يليق" (ص ٣٠٩).

وقد أوقع تعرض الفيروزابادي لما ليس من اللغة في معجمه - أوقعه في الوهم والتخليط مما فتح الباب أمام الشدياق ليخصص تقده الثاني والعشرين لأوهام الفيروزابادي فيما خرج عن اللغة ، وعد منه حديثه عن النسطورية والبطريق ، وشمعون الصفا ، والذبيح ، والسقالبة ، والإسكندر وغيرها ، وكشف عن خلطه فيها واتخذ مادة للسخرية (الjasوس ص ٣٩٦ - ٤٠٣).

(و) وضع اللفظ المشتبه أصله في مظانه المختلفة:

هناك كلمات كثيرة في اللغة العربية يشبه أصلها ومعرفة جذرها على اللغوي المتخصص فضلا عن ابن اللغة العادي. وقد كان هذا النوع من الكلمات محل خلاف بين المعجميين ، ولذا اختلفت مواضعه في المعاجم.

وكان رأي الشدياق وضع أمثال هذه الكلمات حسب احتمالاتها المختلفة في مظانها المختلفة مع الربط بين هذه المظان ، واعتبر من الخطأ الاقتصار على احتمال واحد. ومن أمثلة ما رأي وضعه في أكثر من موضع الكلمات الآتية:

١- كلمة "أثفية" التي وضعها الفيروزآبادي في (أثف) و (ثفي) وله وجه. لأنه يقال: أثف القدر وآثفها وأثفاها وثفاها. وجاء من الأول: أثفه: تبعه وطرده وطلبه. وجاء من الثاني: ثفاه يثفيه ويثفوه . غير أن وزن الأثفية من أثف فعلولة ، وجمعها على فعاليل ومن ثفي أفعولة وجمعها على أفاعيل (الجالسوس ص ٣٢).

٢- كلمة مكان التي أوردتها المعاجم في (مكن) و (كون)، وفسر ابن منظور وضعها في المكانين بقوله: "المكان: الموضع والجمع أمكنة وأماكن توهموا الميم أصلا..". (كون) ، وقوله "وقيل الميم في المكان أصل كأنه من التمكن دون الكون" (مكن) (السابق ص ٣٢ ، ٣٣).

٣- كلمة "ترجمان" التي أوردتها اللسان في (ترجم) و (رجم) على اعتبار أصالة التاء أو زيادتها (السابق ص ٢٩).

واعتبر الشدياق من التعتت الاقتصار على احتمال واحد أو تحطئة من اختار الاحتمال الآخر . ولهذا يقول عن كلمة كبريت وخوها: "ذكر الكبريت في باب التاء.. بناءً على أصالة التاء لقولهم: كبرت بعيره: إذا طلاه بالكبريت والجوهري أوردته في (كبر) فعامله معاملة العفريت . والمصنف تابعه على ذكر العفريت في (عفر) مع أنه ذكر له فعلا وهو تعفرت.. فكان ينبغي له أن يذكره في التاء أيضاً وبنه على أن أصله (عفر). كما قال في (رعش): الرعشن في النون وإن كانت النون زائدة ، لكنني ذكرتها على اللفظ

وبينت الزيادة . ولكنه لم يبين زيادة النون في الضيفن. وهما من باب واحد" (السابق ص ٢٨٨ ، ٢٨٩).

ويقول عن كلمة "توأم" التي وضعها الجوهري في فصل التاء: "ذكر (الفيروزابادي) التوأم في مادة على حديثها بقوله: التوأم من جميع الحيوان المولود مع غيره في بطن ثم أعاده في (وأم). إلى أن قال: وهم الجوهري في ذكر التوأم في فصل التاء . فانظر كيف يخطئ الجوهري وهو متابع له" (السابق ص ٣٩٣).

ويقول عن كلمة "مرهم" التي وضعها الجوهري في (رهم): "ذكر (الفيروزابادي) في (رهم) المرهم: طلاء لين يطلى به الجرح. ثم قال في تركيب (مرهم): المرهم دواء مركب للجراحات ، وذكر الجوهري له في رهم وهم والميم أصلية لقولهم مرهمت الجرح. قلت: قوله: "لقولهم مرهمت الجرح قد يقال إن ذلك على توهم أن الميم أصلية وهو من أساليبهم كقولهم تمكحل وتمذهب". (السابق ص ٣٩٤ - ٣٩٥).

ويرى الشدياق أن ضرورة وضع الكلمة في مظانها المختلفة لا يستلزم التكلف في التحليل، ولهذا فهو ينتقد من وضع كلمة "استكان" في "سكن" ويرى أنها من الأجوف وأن مكانها (كين) يقول الشدياق: "ذكر استكان بمعنى ذل وخضع في (سكن)، افتعل من المسكنة أشبعت حركة عينه مع أنه ذكر كان يكين بمعنى ذل وخضع فالأوجه أن يكون استكان: استفعل منه . والإشباع إنما يرتكب لضرورة الشعر . والبيضاوي جعل اشتقاق استكانوا من (سكن) أصله استكن ، أو من استكون من الكون لأنه يطلب من نفسه أن تكون لمن تخضع له . وفيه من التكلف ما لا يخفى . والراغب ذكرها في كان الواوي" (السابق ص ٢٩١).

ويرى الشدياق أنه في حالة تعدد المظان يجب على المعجمي الربط بين المظان المختلفة والإشارة إلى كل منها في الموضع الآخر ، ولذلك عقد فصلا في كتابه "الjasوس" بعنوان: "النقد الحادي والعشرون: فيما ذكره في موضعين غير منه عليه ، وربما اختلفت روايته فيه"، ذكر فيه كلمات مثل: أول ، واست ، وآتق ، وذرية ، والبذية ، ودكان، ويستان، وريان، واللات، وهات، ولدة، وحاش (لله) وغيرها (ص ٣٧٢ وما بعدها).

ويحدد الشدياق أصولاً معينة يكثر الخلط فيها، وهي المشتمة على علة يصعب ردها إلى الواو أو الياء مثل جبيّ جبا مما يؤدي كثيراً إلى الخلط بين الواوي واليائي (وانظر: أبي ، وذرى ، وروح ، ورنأ ، وشكا).

وكذلك يكثر الخلط بين المعتل والمهموز مثل ذرية التي يشتهب وضعها في ذراً أو ذري، وفئة التي يشتهب وضعها في فياً أو فأو. ويكثر الخلط أيضاً في الهمزة والنون: "وأكثر ما يزلق فيه أئمة اللغة من حيث إيراد الألفاظ هو ما كان فيه الهمزة والنون. فمزلفة الهمزة أن بعضهم يراها أصلية وبعضهم يراها منقلبة عن حرف علة"، "ومزلفة النون أطم وأعم فإنها تلتبس في أوائل الألفاظ وأواسطها وأواخرها ، مثال الأول: لفظة نرجس . ومثال الثاني: لفظة الخنزب أمي الديك . وقس عليه العنصر والعندل والعنصل، ومثال الثالث الربان والدكان والبرهان والبستان والعنوان وما لا يحصى من نظائرها" (انظر الجاسوس ص ٣٣ ، ٣٨ ، ٢٨٦ وما بعدها و ٣٧٢ وما بعدها).

(ز) وضع العرب تحت لفظه:

سبق أن عرضنا رأي الشدياق ضرورة التثبت قبل ادعاء تعريب الكلمة . فإذا ثبت لدى المعجمي أن الكلمة معربة وجب عليه أن يعامل حروفها كلها على أنها أصلية ويضعها تحت لفظها دون ادعاء بوجود زوائد فيها . يقول الشدياق منتقدا الفيروزابادي لوضعه كلمة إستبرق في (برق) والأرجوان في (رجو): "ومن أمثلة الإجحاف : إيراد المصنف لفظة الإستبرق في برق فأنزل الألف والسين والتاء فيها وهي نصف الحروف منزلة استخراج . وكذلك أورد الأرجوان في رجو فأنزلها منزلة الأفعوان والأقحوان مع أنها عجمية فكان ينبغي أن تعامل معاملة العنقوان وبهذا الاعتبار أبعدها عن أصل وضعها، وحجبها عن طالبها، لأن الطالب يعتقد أن الهمزة والواو والنون فيها أصلية، وأن حكم (سألتمونيتها) لا يجري على الألفاظ العجمية. وفي المطالع النصيرية أن الألف أصلية غير مبدلة من شيء في الحروف والأسماء المبنية والأسماء العجمية لأنها غير مشتقة ولا متصرفة فلا يعرف لها أصل غير هذا الظاهر فلا يعدل عنه من غير دليل"، ثم يقول: "وفي الواقع فإن اعتبار زيادة الحروف في الألفاظ العجمية أمر غريب لأن شأن المزيد أن

يستغنى عنه بالأصل الذي زيد عليه ، وهنا ليس كذلك إذ لا شيء من الهمزة والألف والنون في أرجوان زائد" (الجالسوس ص ٢٧ ، ٢٨).

ويقول منتقدا بعض اللغويين الذين يبحثون عن اشتقاقات عربية لكلمات أعجمية: "ثم إن اعتبار هذه الزيادات أغرى الإمام ابن سيده والإمام النواوي باشتقاق الأندلس من مادة الدلس وهو الظلام، واعتبار النون لا محالة زائدة" ثم يمضي قائلاً: "فما معنى كون النون لا محالة زائدة واللفظة عجمية. فهل يقال إذن إن النون والهمزة في إسرافين زائدتان حتى يرجع أصلها إلى السرف أو إن الهمزة في إسحاق زائدة حتى يرجع إلى السحق؟" (السابق ص ٢٩ ، ٣٠).

(ح) بيان درجة اللفظ في الاستعمال:

اعتبر الشدياق من وظيفة المعجم النص على درجة اللفظ في الاستعمال فقال: "من عادة المحققين من اللغويين أن ينبهوا على الفصيح من الكلام، وعلى غير الفصيح، وعلى الغريب، والحوشي، والمتروك، والمهمل، والمذموم، واللثغة، ونحو ذلك" ولذلك عاب على صاحب القاموس "إيراده الألفاظ إيراداً مطلقاً من دون أن ينبه عليها" في حين أن غيره نبه على درجتها.

- فمما أطلقه صاحب القاموس ونبه عليه بعضهم بقوله: ليس بثبت ، أو لا أدري صحته، أو لا أحقه: الإردب: القناة التي يجري فيها الماء في باطن الأرض (الجالسوس ص ١٣٠).
- ومما أطلقه ونبه غيره على أنه مختص ببعض القبائل العربية: الهَيْبِخَةُ الجارية الناعمة وهي بلغة حمير (السابق ص ١٣١).
- ومما ذكره من لغة العوام: "أعطني شحتلة من كذا أي نتفة" مع أن الصاغاني نبه على أن هذه الكلمة ليست من كلام العرب وأنها من كلام أهل بغداد. وقد تساءل الشدياق قائلاً: "فإذا ساغ أن يروي عنهم الشحتلة ساغ أيضاً أن يروي عن أهل الشام الشحتول والمشحتل بمعنى الصعلوك.. وساغ أيضاً أن يروي عن غيرهم إلى ما لا نهاية (السابق ص ١٣٢ ، ١٣٣).

- ومما ذكره مطلقا مع نص غيره على أنه لثغة أو لهجة غير فصيحة قوله: "النات: الناس"، وقوله "الديش: الديك"، وقوله: "الثلتان: السلطان"، وقوله: الثأبة: الشابة وقوله: "اعتشم به بمعنى اعتصم" (السابق ص ١٣٤، ١٣٥).
- ومما ذكره مطلقا وهو نادر أو ضعيف جمع حداة على حياء بالمد، وإثبات رقا في الدرجة: صعد فيها، والمعروف رقى، وإثبات اسم المفعول من قرأ: مقرئ.. (السابق ص ٣٢١ وما بعدها) وإثبات كلمة "الأعصج" بمعنى الأصلع مع قول ابن سيده في المحكم: "رجل أعصج: أصلع، لغة شتعاء لقوم من أطراف اليمن لا يؤمن بها" (السابق ص ١٣٢).

٣- مواصفات المعجمي الناجح:

اشترط الشدياق فيمن يتقدم للعمل المعجمي جملة شروط رآها ضرورة لتحقيق الدقة المطلوبة. وقد رد إلى فقد هذه الشروط أو بعضها ما شاب العمل المعجمي العربي من هنات، وأهم هذه الشروط:

(أ) تفرغه التام وإخلاصه للغته:

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يتعامل مع اللغة تعامل المحب مع محبوبه، فلا يشغل باله إلا بها، ولا يعصرف همه عنها إلى غيرها، وهو يصور حبه لغته فيقول: "إن يكن المتقدمون قد اشتغلوا بهذه اللغة الشريفة فإني قد عشقتها عشقا، وكلفت بها حقا، حتى صرت لها رقا. فأزهرت لها ذبالي، وسهرت فيها لياالي." (سر الليال ص ٢).

ويرد كثيرا من أخطاء اللغويين إلى عدم تفرغهم لها فيقول: "هذا الخلل فاش في غيره (غير القاموس) أيضا. وسببه توزيع أوقات هؤلاء المؤلفين على مصالح مختلفة. فينبغي لمن تصدى للغة ألا يشتغل بشيء آخر غيرها، فإن اللغة العربية كالجرة تأبى الضرة" (السابق ص ٢١) ويكرر نفس المعنى في كتابه الجاسوس فيقول: "من يتصدى للتأليف في اللغة العربية ينبغي له أن يقتصر عليها ولا يشرك بها شيئا فإنها كالزوج الحرة تأنف من الضرة" (ص ٧٣).

وينسب كثرة ما وقع فيه الليث من تصحيف إلى أنه "كان غنيا وعائشا بين ضرتين وهاتان الخطتان تحملان الإنسان على أن يرتكب ما هو أعظم من التصحيف والتحريف (الجالسوس ص ٤١٧).

كما ينصح من يؤلف في اللغة ألا يوزع فكره بين أكثر من عمل في وقت واحد ، لأن العمل اللغوي يحتاج إلى تروٍّ ومراجعة وحسن تدبر "أعتقد أنه لم يكن لخلل كتابه (القاموس المحيط) من سبب سوى أنه كان رحمه الله في خلال تأليفه له مشتغلا بتأليف كتب أخرى ، فقد ذكر له الشارح في تاج العروس نيفا وأربعين مؤلفا فكان لا يراجع ما يكتبه في القاموس. وأعظم شاهد لذلك أنه لم ينسق الواو والياء في المعتل وكثيرا ما يكرر اللفظة في مادتها أو يحيل ذكرها في موضع ولا يذكرها فيه ، شأن من تنازعته الأشغال وتجاذبته خوالج البال" (السابق ص ٧٣).

(ب) استفاد المراجع الممكنة والتزام الأمانة العلمية:

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يستنفذ كل المراجع الممكنة قبل أن يثبت كلمة في معجمه ، وأن يذكر اختلاف الأقوال فيما يتعرض له من مسائل ، وألا يخفي شيئا من مصادره أو يحجب أسماء بعضها ، وهو من أجل هذا يقسو على الفيروزآبادي الذي كثيرا ما أخل بهذه الشروط فيقول: "فإن من تصدى للتأليف في العربية تعين عليه أن يذكر اختلاف الأقوال فيما يجره من المسائل ولا يقول فيها بهوى نفسه ، ولا يعتمد فيها على حدسه ، ألا ترى أن شراح الحديث الشريف إذا أوردوا حديثا ذكروا الخلاف في لفظه ومعناه ، وكذلك المفسرون يذكرون اختلاف القراءات والتأويل فما ضر المصنف لو كان تروى في (تقيآت) وذكر الخلاف فيها. فإن قيل: إنه لم يكن عنده نسخة من التهذيب ولسان العرب وأساس البلاغة قلت هذا من قبيل قولهم: عذر أقبح من ذنب. أما أولا فلأنه شهد على نفسه بأنه جمع كتابه من المحكم والعباب، وصاحب العباب لم يذكر هذا الحرف فكان ينبغي له أن يفكر في سبب ذلك لأن العباب من الكتب الجامعة. والثاني أنه ألف قاموسه في زييد بعد أن زار مصر وأخذ عن علمائها. فكيف يحتمل أنه لما كان بمصر لم يسمع بذكر اللسان ، وبالتنويه به؟ فليس من المحتمل أنه سافر من مصر من دون الحصول على نسخة من اللسان ، فمن ثم أقول: إما أنه لم يكن عنده نسخة من

اللسان وهو قصور ، وإما أنه كان عنده ولم ينقل منه حسدا فالقصور أعظم. ولكن إذا لم يكن عنده التهذيب واللسان في جملة كتبه فما معنى قوله في خطبة القاموس إنه صريح ألقى مصنف من الكتب الفاخرة. وأغرب من ذلك أنه مع شدة حرصه على ذكر أسماء الفقهاء والمحدثين في مشارق الأرض ومغاربها لم يذكر الأزهري وابن منظور في جملتهم ولا في جملة المؤلفين. (الjasوس ص ٤١٨). كما كان نائب الانتقاد للفيروزابادي لتجاهله هذين العالمين الجليلين فيقول عن الأول: "يتبين من كلام الشارح أن المصنف كان عنده التهذيب للأزهري فكيف قال إذن في الخطبة: (وكننت برهة من الدهر ألتمس كتاباً جامعاً بسيطاً. ولما أعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم باللامع المعلم العجائب الجامع بين المحكم والعباب؟) (الjasوس ص ٤٤١) ويقول عن الثاني: فأجدر بمن يأتي هذا الإسهاب لغير طائل أن يذكر ابن منظور الذي شرف أمة الإسلام بلسانه ، وأوضح مشكلات اللغة ببيانه وإنما هو الحسد. كم أضنى من جسد، وأذكى من كمد، وأوهى من جلد، وألقى في كبد" (السابق ص ٤١٩).

(ج) تمكنه من قواعد الصرف:

لما كان أساس ترتيب الكلمات في المعجم تجريدها من الزوائد وردها إلى أصولها فإن على المعجمي أن يكون على دراية كافية بقواعد تصريف الكلمات. وتمييز مجردها من مزيدها ، وتحديد أحرف الزيادة من بين حروفها ، وعلى معرفة بالأصول الواوية واليائية، وعلى مقدرة في تمييز المعتل من المهموز. وقدما عيب على ابن دريد كثرة أخطائه الصرفية في معجمه الجمهرة حتى قال عنه ابن جنى: "فيه أيضا من اضطراب التصنيف وفساد التصريف ما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر. ولما كتبه وقّعت في متونه وحواشيه جميعا من التنبيه على هذه المواضع ما استحيت من كثرته" (الخصائص ٢٨٨/٣).

وقد مرت أمثلة كثيرة للكلمات التي تشبه أصولها. ونضيف الآن أمثلة للكلمات التي أخطأ المعجميون في معرفة أصولها ، كما ذكر الشدياق:

- ١- وضع أنقني الشيء ، أي أعجبنني في "أنق" و "نيق" والصواب أن يذكر في أنق فقط. فإن أصله أنقني فقلبت الهمزة الثانية ألفا كما قلبت في آمن. ولو كان من نيق لقلت: أنقني ، كما تقول أصارني وعلى الأصل أنيقني.
 - ٢- وضع الفيروزابادي حرف (ي) مقابل مادة رنا، وهي واوية.
 - ٣- ذكر الفيروزابادي "الحارة" في "حير" وموضعها في الواو.
 - ٤- وضع "التميمة" في "تم" و "تيم" والصواب ذكرها في تم فقط لأنها تفاعل بتمام عمره.
 - ٥- التخليط في إيراد مضعف الرباعي فهم يوردونه تارة في مضعف الثلاثي على مذهب الكوفيين، كما فعل الفيروزابادي في "ششل" وتارة يوردونه بمادة على حدتها كما فعل الفيروزابادي في "سلسل".
- (الجالسوس ص٢٩٠-٢٩٣، ٥٠٠ وانظر سر الليال ص ٣٢).

ويدخل كذلك في التمكن من قواعد الصرف المعرفة بأجناس الكلام كاسم الفاعل والمفعول وصيغة المبالغة والمصدر واسم المصدر. وقد عاب الشدياق على الفيروزابادي خلطه بعض الأجناس ببعض كخلطه المصدر باسم المصدر (انظر الجالسوس ص ١٩٦ - ١٩٨)، ويدخل كذلك توزيع الجموع على مفرداتها فلا يقع فيما وقع فيه الفيروزابادي حين قال: " الرزينة: المصيبة كالرزء...ج أرزاء ورزايا" فالأول جمع الرزء ، والثاني جمع الرزينة" (السابق ص ٢٠٥).

(د) معرفته بعدد من اللغات الأجنبية وبخاصة السامية:

- يجب على اللغوي أن يعرف عدداً من اللغات الأجنبية لأنه يحتاج إليها في:
- ١- الحكم بتعريب كلمة أو عربيته.
- ٢- الاستعانة بالأصل السامي في تفسير الكلمة أو ردها إلى أصلها.
- ٣- الوصول إلى جذر الكلمة بناء على الحكم بعربيته أو عجميتها.
- ٤- نسبة الكلمات المعربة إلى لغاتها الأصلية.

والاقتباسات الآتية من نص كلام الشدياق تدل على ما ذكرنا:

- ذكر صاحب المصباح.. النرجس في رجس ، وقال إن النرجس معرب ونونه زائدة باتفاق . قال الشدياق: "والغرابة هنا.. أنه أقر أولاً بأنه معرب ، ثم قال إن نونه زائدة ، وهو عندي تناقض محض ، لأن نونه في أصله أصلية لأنه معرب نركس كما في العباب ، فهل يقال إنه بعد التعريب صارت نونه زائدة؟ " (الجاوسوس ص ٢٨).
- أورد الفيروزبادي الكرويين مخففة الراء في "كرب" وفسرها بسادة الملائكة. قال الشدياق: "وهي لفظة عبرانية أصلها كرويم ومفردها كروب فإن الياء والميم في هذه اللغة علامة الجمع . وقد ذكرت في التوراة غير مرة وترجمت إلى سائر اللغات بهذا اللفظ ، واشتقاقها من فعل يدل على القرب" (السابق ص ٢١١).
- أخطأ الفيروزبادي في كثير من محاولاته رد المعرب إلى أصله وقال الشدياق: "كقوله في الترياق إنه من اليوناني.. مع أن القاف لا توجد في لغة اليونان ولا في غيرها" (السابق والصفحة).
- قال الشدياق: "النعث بالصفاء (شمعون الصفاء) لقب أحد الحواريين المشهور باسم بطرس . وكان يقال له أولاً شمعون فشبهه عيسى عليه السلام بالصخرة وهي في اللغة اللاتينية واليونانية بتروس فعربها نصارى الشام بطرس ، واستعملوا مرادفها في العربية وهو صفا ، وهو في أصل اللغة جمع صفاة وهي الصخرة الملساء ، فليس هو مصدرًا لصفاء يصفو كما توهمه المصنف" (السابق ص ٣٩٨ ، ٣٩٩).
- قال الفيروزبادي إن اشتقاق الاسم "موسى" من الماء والشجر، فمؤ: الماء، وسا: الشجر. وقال صاحب الكلبيات: إنها من السريانية. وقال صاحب اللسان: هي بالعبرانية موسى، ومعناه الجذب، لأنه جذب من الماء. وعقب الشدياق على هذه الآراء قائلا:

٢- الأخرى أنه من لسان القبط القديم فإن ابنة فرعون لم تكن يهودية حتى يكون اللفظ عبرياً .

٣- عبارة التوراة: ولما كبر الصبي جاءت به أمه إلى ابنة فرعون فاتخذته ابناً لها وسمته موسى ، قالت لأني انتشلته من الماء .

٤- اسم موسى في التوراة: موسى بغير إشباع ومعناه منشول .

٥- لفظ موسى لا يدل على الماء وإنما تدل عليه قرينة الحال (السابق ص ٣٩٩).

(هـ) تنبيهه لاحتمالات التصحيف :

من أهم مواصفات المعجمي العربي يقظته الشديدة ، وحساسيته المرهقة وتنبيهه لاحتمالات التصحيف أو التحريف حين يبدو أحد المعاني نافراً عن القواعد الصوتية أو الاشتقاقية ، أو عن المعنى العام للمادة .

وقد سبق التمثيل لذلك أثناء الحديث عن منهجيته المعجمية ، ونضيف هنا تشبيهاً طريفاً استعمله الشدياق وهو تشبيه من يروي الكلمات محرقة أو مصحفة "بتاجر يبيع الخرز على أنه ياقوت" (الجالسوس ص ١٣١).

(و) غوصه على المعاني ودقته في ربط ما يبدو منها متناقراً :

من أهم مواصفات المعجمي العربي كذلك قدرته على التجريد ، والربط بين المعاني الجزئية أو المتنافرة وقد سبق التمثيل للمعاني الجزئية أثناء الحديث عن منهجيته المعجمية .

أما ربط المعاني المتنافرة فيتمثل بوضوح في الكلمات ذات المعاني المتضادة . وقد أجاد الشدياق التمثيل لهذا النوع من الكلمات والتماس الأسباب التي أدت إلى وجوده، ومن ذلك تفسيره التضاد على أنه من باب حمل النقيض على النقيض، وقوله "والغالب في هذا الأسلوب أن يكون المعنى المنفور منه هو الأصل ، ثم تستعمله العرب بنقيض معناه جبراً له عما فاته ، وهو على حد قولنا للأعمى بصير . والسبب

الثاني: اختلاف الرأي والنظر في موصوف ١٠. والسبب الثالث كون صيغة الفعل من أصله تحتمله كما في باع الشيء بمعنى باعه ومعنى اشتراه فإن أصله من مد اليد. " (سر الليال ص ٣٣).

وتفسيره إطلاق الأبد على الولد الذي أتت عليه سنة بأنه من قبيل التفاؤل بأنه يعيش أبداً (السابق ص ٣٤).

وتفسيره التضعيف بمعنى الزيادة على الشيء والنقص منه بأن "بناء الزيادة من الضعف بمعنى المثل ، وبناء النقص من الضعف الذي هو ضد القوة". (الجاسوس ص ٢٩٨).

مراجع البحث

- ١- أحمد فارس الشدياق - د. محمد يوسف نجم - رسالة دكتوراة من الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩٤٨.
- ٢- أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية - د. محمد أحمد خلف الله معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥.
- ٣- الجاسوس على القاموس - أحمد فارس الشدياق - القسطنطينية - طبع الجوائب ١٢٩٩ هـ.
- ٤- الخصائص - ابن جنبي - دار الهدى - بيروت - ط. ثانية.
- ٥- الساق على الساق فيما هو الفاريق - أحمد فارس الشدياق باريس ١٨٥٥ .
- ٦- سر الليال في القلب والإبدال - أحمد فارس الشدياق الآستانة ١٢٨٤ .
- ٧- علم الدلالة - د. أحمد مختار عمر - دار العروبة بالكويت - ١٩٨٢ .
- ٨- القاموس المحيط للفيروزبادي.
- ٩- كنز الرغائب في منتخبات الجوائب - مجموعة مقالات كتبها أحمد فارس الشدياق وجمعها ابنه سليم الآستانة سنة ١٢٨٨ هـ وما بعدها.

ابن منظور اللغوي

العالم الحائر بين مصر وليبيا وتونس*

من أعلام اللغة والأدب الذين تفخر بهم الأمة العربية جمعاء ، وتعزز بانتسابهم إليها: عبد الله محمد بن المكرم أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي القاسم الملقب بجمال الدين والمشهور بابن منظور.

ولا ترجع شهرة ابن منظور إلى معجمه الموسوعي الضخم "لسان العرب" فحسب، وإنما كذلك إلى مئات الكتب والمجلدات التي تركها بخطه ، وبعضها تأليف، وبعضها اختصار. يقول الصفدي في "نكت الهميان": "لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولاً إلا وقد اختصره". ويقول السيوطي: "واختصر كثيراً من كتب الأدب المطولة كالآغاني والعقد والذخيرة ومفردات ابن البيطار. وتقل أن مختصراته خمسمائة مجلد". ومن آثار ابن منظور المطبوعة - إلى جانب لسان العرب - مختار الآغاني ، وأخبار أبي نواس، وثمار الأزهار في الليل والنهار. أما المخطوطة فمنها: مختصر تاريخ دمشق، وتواريخ الشعراء، وتهذيب الخواص من درة الغواص، ومختصر مفردات ابن البيطار^(١).

وقد ولد ابن منظور في شهر المحرم من عام ٦٣٠ هجرية^(٢) (يوافق شهر نوفمبر من عام ١٢٣١ ميلادية)^(٣). وتوفي عام ٧١١ هجرية (يوافق ١٣١١م) ، فيكون قد عاش نحو من واحد وثمانين عاماً هجرية. وقد كان امتداد عمره ، إلى جانب نشأته في أسرة علمية عريقة ، من أهم الأسباب التي مكنت ابن منظور من إنجاز هذه الأعمال الضخمة التي خلفها من ورائه. يقول الأستاذ أبو القاسم كرو متحدثاً عن أسرة ابن منظور: "ابن منظور من أسرة علمية عريقة، اشتغل معظم أبنائها بالقضاء، وكان لهم في العلوم الدينية

* نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطرد.

(١) انظر : ملئقى ابن منظور ص ٤٢-٤٦ .

(٢) الدرر الكامنة ٣١/٥ ونكت الهميان ص ٢٧٥ .

(٣) راجع The Muslim Christian Calendars

والأدبية مكانة محترمة". وقد ذكر من أفراد أسرته خمسة رجال تولى منهم أربعة منصب القضاء ، وتلقبوا جميعهم بألقاب أهل العلم والقضاء في تلك العهود ، فقد لقب والده بجلال الدين وأخوه بشرف الدين وجده بنجيب الدين ، وابنه بقطب الدين. وحدثنا ابن منظور عن أحد مجالس والده فيقول: "كنت في أيام الوالد - رحمه الله - أرى تردد الفضلاء إليه ، وتهافت الأدباء عليه . ورأينا الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف النيفاشي في جملتهم وأنا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه"^(١).

* * *

وقد ظل ابن منظور في جميع المراجع القديمة وحتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري يحمل نسبتين اثنتين فقط هما " المصري " و " الإفريقي " . وقد وردت نسبة " الطرابلسي " أول ما وردت في كتاب يحمل اسم " المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب " لأحمد بك النائب الأنصاري ، ظهر جزؤه الأول عام ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ، فقد ترجم هذا المؤلف (وقد توفي عام ١٨٩٧م) لابن منظور ضمن علماء طرابلس وقال عنه " الطرابلسي نزيل مصر"^(٢).

وتلقف بعض المعاصرين الليبيين هذه النسبة فأخذوا يلحون عليها ، ويجاولون إثباتها بشتى الطرق . وأشهر هؤلاء :

- ١- الأستاذ علي مصطفى المصراتي ، الذي قال في كتابه "أعلام من طرابلس"^(٣) :
"ابن منظور صاحب لسان العرب طرابلسي نشأة وأصلاً ، وفرعاً وممتناً".
- ٢- الشيخ الطاهر الزاوي الذي قال في كتابه "أعلام ليبيا"^(٤) ما خلاصته:

(١) ملقى ابن منظور ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ١٦٩/١ .

(٣) ص ٦٩ .

(٤) ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

أ- لم يذكر أحد ممن ترجموا له أنه طرابلسي إلا أحمد النائب المؤرخ الطرابلسي.

ب- لا نسيء الظن بغير النائب ، ولكنهم جهلوا ما علمه. فالنائب طرابلسي عالم بعلماء طرابلس وبالأسر الطرابلسية ، وقد أدرك بعض أفراد أسرة ابن مكرم مما جعله يجزم بأن ابن مكرم طرابلسي.

ج- ذكر أكثر من ترجموا له أنه تولى قضاء طرابلس ، وبعده أن يكون ولد بمصر ثم جاء إلى طرابلس وتولى بها القضاء عدة سنين ثم رجع إلى مصر ومات بها.

د- أسرة ابن مكرم تنتمي إلى رويغ الأنصاري، ورويغ كان أمير طرابلس، ولاه معاوية إياها سنة ٤٦هـ .

هـ- أقرب الآراء إلى القبول أنه بعد أن تولى قضاء طرابلس واتسعت مداركه العلمية رأى أن إشباع رغبته العلمية لا يتسع له المحيط الطرابلسي فانتقل إلى مصر وتولى فيها رئاسة ديوان الإنشاء ، وبقي بها حتى توفي.

و- يجب الرجوع إلى ما قاله النائب لأنه أمين فيما نقل وعالم فيما كتب ، وابن منظور لا يضيره أن يكون طرابلسيا، كما هي الحقيقة.

٣- الأستاذ علي الفقيه حسن الذي لم يترك فرصة إلا تحدث فيها عن ابن منظور بوصفه ليبيا ، وكتب عدة مقالات لمحاولة إثبات ذلك. وهو في حججه لا يخرج عما ذكره الأستاذ الزاوي ولكنه أضاف أن أسرة ابن مكرم كانت معروفة بطرابلس وانقرضت منذ قرن تقريباً^(١).

ورغم أنني لست ممن يحبون نسبة العلماء - وبخاصة في العصور الإسلامية الأولى - إلى إقليم بعينه ، لأنهم بعلمهم يتجاوزون الحواجز ، ويتخطون الحدود المصطنعة ، ورغم أنني أومن بأن من الصعب أن ينسب العالم العربي - فيما قبل العصور الحديثة- إلى بلد معين نظراً لكثرة الأسفار فيما مضى وعدم الإقامة في مكان واحد وحب التنقل من بلد إلى بلد - أقول رغم هذا وذاك فإنني أرى ضرورياً الوقوف أمام دعوى

(١) انظر مثلا مجلة المجمع العربي بدمشق مجلد ٣٢-٣/٤٦٦ وما بعدها .

أحمد النائب ومن تبعه لمناقشتها ، لا تعصبا ، وإنما قصدا للتمحيص التاريخي، ومحاولة للوصول إلى الحقيقة ، خصوصاً وأن صلة ابن منظور بطرابلس الغرب - حتى على سبيل الإقامة الجزئية- مشكوك فيها ، بل يكاد ينفيها التمحيص التاريخي نفيًا باتًا.

١- وأول شيء لا مجال للشك فيه ما سبق أن ذكرناه من أن أحمد النائب هو أول من أطلق هذه النسبة: الطرابلسي ، وهو قد أطلقها دون أن يقدم أي إثبات أو دليل.

٢- قد يقال كما قال الزاوي "إن النائب طرابلسي ، عالم بعلماء طرابلس وبالأسر الطرابلسية". ولكن قد يكون مفاجأة للقارئ إذا قلنا إن ترجمة النائب ليس فيها كلمة واحدة جديدة، وأنه لم يصف فيها حرفاً واحداً على ما ذكره غير الطرابلسيين. وهو ينقل نقلاً حرفياً عن كتب التراجم السابقة مثل بغية الوعاة للسيوطي، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، ونكت الهميان في نكت العميان لخليل بن أبيب الصفدي.

وقد أحس الأستاذ علي مصطفى المصراطي نفسه بعدم قيمة هذه الترجمة ، فقال في مقدمة تحقيقه لكتاب "نفحات النسرین" لأحمد النائب ما نصه: "اكتفي بمجرد الترجمة العادية ، تلك الترجمة المتداولة والتي لاكها السيوطي وغيره"^(١). واعترف بأن أحمد النائب لم يقدم دليلاً على دعواه ، واتخذ من عدم إشارة ابن غلبون^(٢) إلى ابن منظور دليلاً على تثبت ابن غلبون أكثر من النائب^(٣). فأين إذن ثمرة علم النائب بالأسر الطرابلسية؟

(١) نفحات النسرین ص ٤٧ .

(٢) في كتابه المسمى: التذكار فيمن ملك طرابلس، وما كان بها من الأخبار. وقد كان ابن غلبون أقدم من أحمد النائب إذ عاش الأول في القرن ١٢هـ . في حين عاش الثاني في القرنين ١٣، ١٤هـ .

(٣) نفحات النسرین ص ٤٦، ٤٧ .

٣- أما كون ابن منظور ينتمي إلى روفيع بن ثابت الأنصاري.. ورويفع كان أمير طرابلس من قبل معاوية.. فليس فيها ما يدل على طرابلسية ابن منظور. فرويفع كان من قبل يسكن مصر ، واختط بها داراً^(١). وبين روفيع وابن منظور ما يزيد على ستمائة وخمسين سنة ، وهي فترة يكفي عشر معشارها إلى انتقال أسرة من بلد إلى بلد.

٤- وأما ما يقال عن دفن جده الأعلى روفيع في برقة ، فليس يعني - لو صح تاريخياً- أي شيء على الإطلاق . فما بالك إذا كان الخبر مشكوكاً فيه . وقد شك فيه ابن منظور نفسه حين قال بمادة "جرب" من لسان العرب ما نصه : " فيقال مات بالشام، ويقال مات ببرقة ، وقبره بها " .

ويزيدنا شكاً قول العياشي^(٢) عن برقة: " بها قبر مشهور يزار. ويزعم أعراب البلد أنه قبر نبي. والغالب أنه قبر صحابي. ولعله روفيع بن ثابت بن السكن الأنصاري النجاري من الصحابة ، أو زهير بن قيس البلوي ، وكلاهما صحابي..". فصاحب المقام ليس معروفاً على وجه التأكيد.

٥- من الثابت تاريخياً أن ابن منظور قد ولد بمصر^(٣) وأنه نشأ وترعرع بها ، وقد حدثنا هو نفسه عن مجالس أبيه بمصر التي كان يحضرها العلماء والأدباء. ومن الثابت كذلك أنه ولي ديوان الإنشاء بمصر مدة طويلة عبر عنها المؤرخون بقولهم " طول عمره"^(٤)، وأنه حدث بمصر ودمشق ، وأنه توفي - أخيراً - بالقاهرة^(٥).

(١) لسان العرب - مادة جرب.

(٢) الرحلة العياشية طبع فاس ١٣١٦ . مقتبسة في "ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات" ص ٢١٩.

(٣) تاج العروس للزبيدي - مادة كرم .

(٤) الدرر الكامنة ٣٢/٥ .

(٥) شذرات الذهب ٢٦/٦ ، ٢٧ والسلوك للمقريزي ج ٢ قسم ١ ص ١١٤ .

٦- كذلك فإن والده - على ما ذكر الأستاذ أبو القاسم محمد كرو - من مواليد القاهرة أما جده الأدنى فمن مواليد إفريقية ، ومن ناحية باجة^(١) بالذات^(٢) . ومن المؤكد أن المجالس التي حدثنا ابن منظور عنها وكان يحضرها التيفاشي - كانت تعقد بالقاهرة. فمن المعروف أن التيفاشي مع أنه قد ولد بقفصة قام بزيارة مصر عدة مرات وأنه استقر بها نهائياً منذ عام ٦٣٠ هجرية^(٣) ، وهو العام الذي ولد فيه ابن منظور وقد توفي التيفاشي بالقاهرة عام ٦٥١ هـ.

٧- أما ما يقال من وجود أسرة بطرابلس تحمل اسم ابن مكرم وانقراضها منذ قرن تقريباً ، فليس هناك من دليل على أن هذه الأسرة من نسل ابن منظور. فهناك كثيرون حملوا لقب "المكرم" ، فهو لقب اشتهر في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً. كما أنه لم يشتهر من نسل ابن منظور سوى ابنه الملقب بقطب الدين الذي ولد بمصر عام ٦٧٠ ، وكان كآبيه أحد كتاب ديوان الإنشاء بالقاهرة. ثم جاور في مكة مدة طويلة وانتقل إلى بيت المقدس حيث توفي ودفن بها.^(٤)

٨- وبقي بعد هذا ما تردده بعض المراجع التاريخية من أنه " ولي قضاء طرابلس"^(٥) أو أنه "ولي نظر طرابلس"^(٦) . فكم من عمره قضاء - لو صح - بطرابلس؟ ومتى حدث ذلك؟ وأي طرابلس؟ لم تتفق المراجع أولاً على ذهابه إلى طرابلس . وعلى فرض ثبوته لم تحدد زمنه ولا مقداره ، وإن كان من المعقول أن يكون لفترة وجيزة تتناسب

(١) في معجم البلدان: باجة في خمسة مواضع منها بلد بإفريقية بينها وبين تونس يومان . وهي المقصودة هنا . وكلمة "إفريقية" في هذا النص تعني البلاد التونسية، كما كانت تعرف في القديم .

(٢) انظر ملتقى ابن منظور - مقدمة الأستاذ كرو ص ٥ ، ٦ .

(٣) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية لحسن حسني عبد الوهاب - القسم الثاني ص ٤٥٠ .

(٤) السلوك جـ ٢ قسم ٣ من ص ٨٥٦ ونكت الهميان ص ٢٧٦ وملتقى ابن منظور ص ٣٥ .

(٥) الدرر الكامنة ٣٢/٥ .

(٦) نكت الهميان ص ٢٧٥ .

مع قولهم إنه تولى ديوان الإنشاء بمصر طول عمره . فلنسلم إذن أنه تولى قضاء طرابلس فترة ما من الزمن ، ولكن يظل سؤالنا قائماً: أي طرابلس؟ طرابلس الشام أم طرابلس الغرب؟ إن الخلط بين البلدين وعلمائهما معروف لمن اشتغل بالتراجم والتاريخ . ويكفي أن أشير إلى الشاعر الطرابلسي المشهور باسم ابن خراسان (اسمه أحمد بن الحسين بن حيدرة) صاحب الأبيات الجميلة التي منها :

أحبابنا غير زهد في محبتكم كوني بمصر وأنتم في طرابلس
 إن زرتكم فالمنايا في زيارتكم وإن هجرتكم فالهجر مفترسي
 ولست أرجو مجاحا في زيارتكم إلا إذا خاض مجرا من دم فرسي

فمعظم المراجع تنسبه إلى طرابلس الشام ونسبه ياقوت في "معجم البلدان" إلى طرابلس الغرب.

وإذن فالمسألة في حاجة إلى ترو وتحييص . وقد هدانا البحث والتنقيب إلى أن "طرابلس" هذه لا يمكن أن تكون طرابلس الغرب ، ولا بد أن تكون طرابلس الشام للأسباب الآتية:

أ- أن ابن منظور كان شافعي المذهب كما نص على ذلك المقرئ في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك^(١)، وقد وصفه بقوله "وكان من أعيان الفقهاء الشافعية" فكيف يتولى القضاء في بلد يدين بالمذهب المالكي أو الحنفي، ولا يعرف المذهب الشافعي، بل لا ينظر إليه نظرة تقدير. يقول المقدسي: "بساتر المغرب - ما عدا الأندلس - إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي رحمه الله ، إنما هو أبو حنيفة ومالك . وكنت يوماً أذاكر بعضهم في مسألة فذكرت قول الشافعي ، فقال : اسكت !! من هو الشافعي؟ إنما كانا بحرين: أبو حنيفة لأهل المشرق ، ومالك لأهل المغرب ، أفتتركهما وتشتغل بالساقية؟ ورأيت أصحاب مالك يبغضون الشافعي ، قالوا أخذ العلم عن مالك ثم خالفه . وما

(١) ج ٢ قسم ١ ص ١١٤ . وقد لفتني إلى هذا المرجع أبو القاسم كرو ص ٥٥ .

رأيت فريقين أحسن اتفاقاً وأقل تعصباً منهم . وسمعتهم يحكون عن قدمائهم في ذلك
حكايات عجيبة حتى قالوا: إنه كان الحاكم سنة حنفياً وسنة مالكياً..."^(١).

أما المذهب الشافعي ، فمن المعروف أن مصر والشام كانا من أهم مراكزه . وفي
هذا يقول السبكي "هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية منذ ظهر المذهب الشافعي. اليد
العالية لأصحابه في هذه البلاد لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم"^(٢).

ب- لم يكن إقليم طرابلس (الغرب) من الناحية الإدارية تابعاً لمصر ، على خلاف
إقليم برقة. وفي فترة حياة ابن منظور كانت طرابلس الغرب تحت حكم الحفصيين (من عام
٦٢٥ - ٧٢٤هـ) الذين كانوا يتولون الحكم من قبل أمير تونس^(٣).

أما صلة طرابلس الشام بمصر فمعروفة ثابتة . وقد ثبت أن ابن منظور رحل إلى
دمشق رفقة السلطان قلاوون سنة ٦٨٢ و ٦٨٣هـ وعاد معه إلى مصر^(٤). كما ثبت أن
ابن منظور قد حدث بدمشق^(٥). فمن المعقول إذن أن يكون توليه القضاء بطرابلس الشام.
ومن المعروف تاريخياً أن السلطان قلاوون استرد مدينة طرابلس الشام من الصليبيين عام
٦٨٨هـ ، فيكون احتمال تولي ابن منظور قضاءها قد وقع في هذه السنة أو بعدها^(٦).

ج- لو كان ابن منظور قد ولي قضاء طرابلس الغرب ، لما غفل عن ذكر ذلك
الرحالة الذين زاروا طرابلس في خلال تلك الفترة ، ومن بينهم ابن رشيد السبتي (قام بها

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٣٧ .

(٢) الشافعي لمحمد أبو زهرة ص ٣٧١ .

(٣) ولاية طرابلس للطاهر الزاوي ص ١١٣ وما بعدها .

(٤) ملتقى ابن منظور ص ٥٥ نقلاً عن تاريخ ابن الفرات .

(٥) شذرات الذهب ٢٦/٦ .

(٦) ملتقى ابن منظور ص ٥٥ .

سنة ٦٨٥هـ) والتجاني (قام بها بين عامي ٧٠٦، ٧٠٨)^(١).

* * *

فإذا كانت نسبة ابن منظور إلى طرابلس (الغرب) محفوفة بالشك إلى هذا القدر بل يكاد يُقطع بانتفائها ألبتة فهل يبقى لمنصف من مسوغ للتمسك بانتمائيه إلى ليبيا؟ وهل غنى مصر بالشخصيات العلمية والأدبية وفقر ليبيا - على حد تعبير أحد الأدباء الليبيين- يكفي مبرراً لسلخ ابن منظور من وطنه الأم وحمله على بلد لم يعيش فيه ولم يتربّ بين ربوعه؟. وكأنما أحس الأستاذ علي المصراطي بهذه المعاني فعبر عنها بشكّه في كلام أحمد النائب - الذي تولى كبر هذه القضية من أولها إلى آخرها - فقال "المؤلف يذكر أن ابن منظور من طرابلس الغرب، وكان بودنا لو ساق دليلاً يؤكد به أن هذا العالم اللغوي طرابلسي"^(٢)، وبتصويره صنيع أحمد النائب في صورة "من يشد بقوة بتلايب ابن منظور"^(٣).

وبعد:

فمن الغريب حقاً أن تخلد ليبيا اسم "ابن منظور" - وهو ليس لها إلا بمجرد الشبهة - فتطلق اسمه على معهد المعلمين بها الموجود بطرابلس ، وتحيي أثره لبنان فتسمي إحدى دور النشر بها نفسها باسم أشهر مؤلفات ابن منظور "لسان العرب" ، وأن تحتفل تونس كذلك بابن منظور ، وتعقد اللقاءات والندوات لتخليد ذكره^(٤) - وهو لا ينتسب لها إلا عن طريق جده - ثم تفرط مصر - أوّل البلاد العربية به - فلا تعبأ لذكراه ،

(١) انظر ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص ١١٧ ورحلة التجاني وملتقى ابن منظور .

(٢) مقدمة نحات النسرین ص ٤٦ .

(٣) مقدمة نحات النسرین ص ٤٦ .

(٤) من ذلك الملتقى الأول - ملتقى ابن منظور الإفريقي من ٩ إلى ١١/٤/١٩٧١ وكذلك تشكيل جمعية شباب ابن منظور القفصي ، ظناً أن ابن منظور من أبناء قفصة . وقد طبع ما ألقى في ملتقى ابن منظور الأول بتونس عام ١٩٧٢ - دار المغرب العربي .

ولا تقييم المهرجانات للاحتفاء به والتنويه باسمه . ومن أحق منه بالتخليد؟ وأولى بالتكريم؟ ومن المفارقات أن يحمل والد ابن منظور لقب "المكرم" ثم يغفل بلده عن تكريمه في شخص ابنه رائد التأليف الموسوعي في المعاجم العربية.

وتظل - بعد هذا - نسبتا ابن منظور المصري والإفريقي بافتين، أما أولاهما فتدل على مكان مولده ونشأته وعمله ووفاته ، وأما الثانية فتشير إلى ارتباط بعض أجداده بتونس أو إفريقية ، كما كانت تسمى في ذلك الوقت.

الانتصار لسيبويه من البرد

لابن ولاد*

٥٣٣٢هـ - ٩٤٣م

١- ابن ولاد^(١)

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد ، الذي ولد بمصر ، وعاش شطراً كبيراً من حياته في القرن الرابع الهجري، وهو قرن النهضة العلمية في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وقد نشأ ابن ولاد في بيت علم ، فأبوه وجده كلاهما من علماء اللغة الأعلام، وكلاهما درس في غير مصر ، وقرأ أمهات كتب اللغة والنحو على المتخصصين ، وله أخ اشتغل كذلك بالنحو وله ترجمة في كتب الطبقات^(٢). وقد تتلمذ ابن ولاد الحفيد على عدد من الأساتذة المتخصصين من مصريين وأجانب ، وعلى رأسهم والده^(٣)، وأبو جعفر

* نشر في مجلة كلية المعلمين - الجامعة الليبية ١٩٧٠.

(١) انظر ترجمته في الزبيدي ٢٣٨ وما بعدها ، والقطبي ٩٩/١ وما بعدها و٢٢٤/٣ وما بعدها، والبعية ١٦٩ ، وشنرات الذهب ٣٣٢/٢ .

(٢) اسمه أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الوليد، وقد اشتهر بعد وفاة أخيه، وكان في حوزته نسخة موثقة من كتاب سيبويه جلس لتدريسها . ومن تلاميذه الزبيدي المؤلف الأندلسي المشهور .

(٣) هو أبو الحسين محمد بن الوليد، ولد عام ٢٩٨هـ. درس في بغداد وترك كتاباً في النحو

سماه "المنمق" .

أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة^(١)، وأبو إسحاق الزجاج ، وأبو جعفر أحمد بن رستم الطبري^(٢). وحين لمع اسمه وجلس للتدريس قصده التلاميذ من كل مكان ، وكان من أشهرهم أبو الحسين علي بن أحمد المهلبي^(٣)، والقاضي منذر بن سعيد الأندلسي^(٤)، وأبو عبد الله محمد بن يحيى الرباحي الأندلسي^(٥)، وأبو عبد الله محمد بن الحسين اليميني^(٦).

ولم يكن ابن ولاد مكثراً في تأليفه ، كما لم يكن متنوع الثقافة . وكل ما عرف له من مؤلفات أربعة كتب - بالإضافة إلى كتابنا هذا - "المقصود والممدود"^(٧)، و"كتاب النقائص" ، وكتاب رابع مات بعد أن شرع في تأليفه وهو "معاني القرآن".

٢- نقد المبرد لسيبويه

أشار المؤرخون وكتاب التراجم إلى عديد من الكتب التي اتخذت كتاب سيبويه محوراً لها وتناولته أو تناولت بعض مسائله بالشرح والتحليل. ولكن هناك كتاباً فريداً من بينها له طابع خاص ، وهو واحد من خمسة كتب ألفها المبرد حول كتاب سيبويه . هذا

(١) ولد في بغداد ودرس كتب والده ووفد إلى مصر عام ٣٢١هـ حيث جلس لتدريس كتب والده بالإضافة إلى كتاب سيبويه .

(٢) من كبار القراء والنحويين في بغداد. له من المؤلفات "غريب القرآن" و "المقصود والممدود" و "كتاب النحو" .

(٣) توفي عام ٣٨٥هـ، وله تعليقات على كتاب "المقصود والممدود" لابن ولاد. ولد عام ٢٦٥هـ وتوفي عام ٣٥٥هـ. وقد كانت له أسفار في طلب العلم .

(٤) انظر معجم الأدباء ١٨٣/١٩ والقفطي ١٠٣/١ والزبيدي ٢٤٠ ونفح الطيب ٣٣٧/١ .

(٥) توفي عام ٣٥٨هـ وإليه يرجع الفضل في انتقال أمهات الكتب المصرية إلى الأندلس .

(٦) توفي عام ٤٠٠هـ وكان ضمن أساتذة "دار العلم" التي أسسها الفاطميون في مصر، وكتب عدة مؤلفات .

(٧) وصلنا هذا الكتاب وقد طبع مرتين حتى الآن .

الكتاب وصلنا اسمه واقتباسات كثيرة منه في كتب متأخرة ولم يصلنا نصه ، وقد خصصه المبرد لنقد سيبويه والاعتراض عليه. وقد ذكر ابن جني أن المبرد سماه "مسائل الغلط"^(١)، وذكر ياقوت أنه سماه "كتاب الرد على سيبويه"^(٢).

وقد كان لصدور كتاب المبرد هذا رد فعل قوي لدى النحاة ، إذ استكثروا جميعاً هذا الهجوم وانبرى بعضهم للدفاع عن سيبويه والانتصار له . ولا نجد أثراً لأي كتاب ألف للانتصار للمبرد وأخذ جانبه . وقد كان من بين من دافعوا عن سيبويه وانتصفوا له من المبرد تلامذة مخلصون للآخر مثل أبي إسحاق الزجاج الذي دافع عن سيبويه في كتابه "شرح أبيات سيبويه" كما يتضح من الاقتباسات العديدة التي نقلها البغدادي في "خزانة الأدب" عن هذا الكتاب^(٣). وممن دافعوا عن سيبويه أيضاً أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) في كتابه "شرح كتاب سيبويه" كما يتضح من الاقتباسات التي أخذها البغدادي كذلك من هذا الكتاب^(٤).

وقد كان مثار دهشة وعجب أن يأتي أقسى هجوم على سيبويه من المبرد رأس المدرسة البصرية في عهده، وأن يتعرض المبرد لسبويه بالهجوم ويتعقب زلاته ويؤلف كتاباً في مخالفته والرد عليه ، في حين أن شهرته جاءت من دراسته لسبويه وتدرسه لكتابه، بالإضافة إلى ما كان يتقاضاه من مبالغ طائلة في مقابل شرح كتابه وتصحيح النسخ عليه. ومن أجل هذا حاول بعضهم أن يبرئ المبرد من تهمة التعرض لسبويه وادعوا بطلان نسبة هذا الكتاب إليه ومنهم من ادعى أن ما اعترض به المبرد على سيبويه حدث أيام الشباب وأنه عاد فرجع عنه^(٥) وكلتا الدعويين في رأينا باطلة . أما الأولى فلأن الإشارة إلى عمل المبرد ورد عن طريق تلامذته الذين كانوا يلزمونه ويعرفون كل صغيرة وكبيرة عنه،

(١) الخصائص (ط الهلال) ٢١٣/٢ .

(٢) معجم الأدباء ١٩/١٠٦ .

(٣) انظر ٤٥١/١ و ١٣٠/٢ ، ٤٣٥ و ٦٢٩/٣ و ٤٣٦/٤ (بولاغ ط أولى) .

(٤) انظر ١٩٣/٢ ، ١٩٤ ، ٤٣٠-٤٣٢ ، ٤٣٥ و ٤٣٥/٤ ، ٤٣٦ .

(٥) انظر الخصائص (ط الهلال) ١/٢١٣ ، والمزهر (ط أولى تحقيق جاد المولى ٣٧٢/٢) .

والذين كانت لديهم الفرصة للتحقق إذا وجد أدنى شك في صحة نسبة هذا الكتاب إليه. وأما الدعوى الأخرى فلم تصح إلا في مسائل قليلة معدودة ، ربما لا تتجاوز مسألة أو مسألتين رجع المبرد عن رأيه فيها وأخذ برأي سيبويه^(١).

٣- كتاب الانتصار

نسخه:

توجد من هذا الكتاب نسخة وحيدة مخطوطة تحفظها دار الكتب المصرية برقم ٦٠٥ نحو تيمور . وهناك ملخص لهذا الكتاب مدون على هامش نسخة الزيتونة من كتاب سيبويه . وهذا الملخص مكتوب بخط عالم من علماء العربية هو ابن الحاج الأزدي الإشبيلي ناسخ الكتاب . ويبدو أن ابن الحاج لم يكتف بتلخيص مسائل الخلاف وإنما أسقط بعضها، لأن عدد المسائل في مخطوطة القاهرة ١٣٤ مسألة وفي مخطوطة الزيتونة ١١٥ مسألة فقط.

الهدف من تأليفه:

يتضح من عنوان الكتاب سواء كان "الانتصار لسيبويه من المبرد" كما سماه بعضهم ، أو "نقض ابن ولاد على المبرد في رده على سيبويه" كما سماه بعض آخر - ومن مقدمته أن الهدف من تأليفه الدفاع عن سيبويه في المسائل التي ثار الخلاف فيها بينه وبين المبرد، وليس الهدف التوسط بينهما وأخذ جانب الحياد منهما . وفي ذلك يقول ابن ولاد في مقدمة كتابه "هذا كتاب ألفناه لنذكر فيه المسائل التي زعم أبو العباس المبرد أن سيبويه غلط فيها ونبينها ونرد الشبه التي لحقت فيها". ويؤدي تصنيف مسائل الكتاب إلى نفس النتيجة، إذ أننا نجد ابن ولاد يأخذ جانب سيبويه في ١٣١ مسألة من جملة المسائل البالغ عددها ١٣٤ . أما الثلاثة الباقية فقد اتخذ في واحدة منها جانب المبرد، وفي واحدة جانب الحياد، وأما الثلاثة فكان النقد فيها موجهاً - في الحقيقة - إلى الأخفش لا إلى سيبويه.

(١) انظر الانتصار لابن ولاد ص ٩٩ ، ١٨٢ .

وصفه:

يبدأ الكتاب بمقدمة قصيرة - لم تتجاوز الصفحة الواحدة - تحدثت عن موضوعه، وهو مناقشة مسائل الخلاف بين المبرد وسيبويه، وأشارت إلى اتخاذ جانب الحياء في الخصومة واختيار رأي المبرد إن بدا أنه الصواب^(١)، كما دافعت عن مسلك المؤلف نحو المبرد وبررت هجومه عليه إذ قالت: "ولعل بعض من يقرأ كتابنا هذا ينكر ردنا على أبي العباس المبرد. وليس ردنا عليه بأشنع من رده على سيبويه، فإنه رد عليه برأي نفسه ورأي من دون سيبويه". وبعد ذلك انتقل المؤلف إلى مسائل الخلاف فذكرها مسألة مسألة بادئاً باقتباس رأي سيبويه على النحو الذي رواه المبرد ومثنيًا بنقد المبرد ثم منتهيًا برأيه هو.

هل تناول ابن ولاد جميع مسائل الخلاف؟

يبدو من النظرة الأولى أن الإجابة ستكون "نعم" ما دام ابن ولاد لم يناصر سيبويه في كل المسائل. ولكن يعكر على هذه الإجابة ما ثبت لدي من أن هناك مسائل كثيرة لم يتعرض لها ابن ولاد، ومن تلك المسائل ما رواه البغدادي في "خزانة الأدب" من مسائل الخلاف بين المبرد وسيبويه دون أن يكون له وجود في كتاب ابن ولاد هذا. ومن تلك المسائل:

الخلاف بينهما حول كلمة "بشر" في قول الشاعر:

أنا ابن التارك البكريّ بشر

هل هي منصوبة أو مجرورة.

٢، ٣- الخلاف بينهما حول محل الضمير بعد "لولا" و "عسى" في الأبيات:

(١) يبدو أن ابن ولاد لم يكن صادقاً في هذه الدعوى، وأنه رمى من ورائها إلى عدم مجابهة القارئ منذ اللحظة الأولى بهجومه على المبرد.

وكم موطنٍ لولاي طحت كما هوى
 بأجرامه من قلة النيق منهوي
 ولي نفس أقول لها إذا ما
 تنازعني لعلي أو عساني

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه المسائل الثلاث قد أجاد أبو جعفر النحاس شرحها من وجهة نظر سيبويه ، وأن المسألتيْن الأخيرتين قد دافع الزجاج عن رأي سيبويه فيهما^(١) ، والزجاج - كما سبق أن ذكرنا - من أساتذة ابن ولاد .

وتشير هذه الحقيقة سؤالاً هو : لماذا إذن أسقط ابن ولاد هذه المسائل وغيرها من كتابه مع أن وجهة نظر سيبويه فيها قوية؟ يبدو أن السبب يتمثل في أن المبرد كتب "الرد على سيبويه" في حياته المبكرة ، ثم اكتشف مسائل أخرى فيما بعد فضمنها كتباً أخرى له ، ومن ذلك ما حواه كتاب الكامل من تخطئات لسيبويه رغم قلة مسائل النحو فيه . وحينما فكر ابن ولاد في تأليف كتابه رأى أن يقصر نفسه على المسائل التي وردت في كتاب "الرد على سيبويه" ، فتناولها بالمناقشة مسألة مسألة . وعلى هذا فإن المسائل الأخرى التي مجدها في "خزانة الأدب" ليست واردة في كتاب المبرد ، "الرد على سيبويه" ، وإنما في كتب أخرى له ، وهي مسائل لم يهتم ابن ولاد بتتبعها وحصرها والرد عليها .

كيف انتصر ابن ولاد لسيبويه؟

بذل ابن ولاد أقصى ما في وسعه لنصرة سيبويه والدفاع عنه . وقد وفق في ذلك إلى حد كبير ونجح في إقناع القارئ بأن يتعاطف معه . وقد استعان ابن ولاد من ناحية باستقراء الأساليب العربية وتتبع المادة اللغوية المسجلة - وما أغزر معلوماته في هذا الخصوص - ومن ناحية أخرى استخدم طاقته في التعليل والربط والفلسفة مستعملاً المنهج العقلي المنطقي الذي كان المبرد يجيد استخدامه . ومن مجموع هذين المنهجين بنى دفاعه

(١) انظر خزانة الأدب ١/٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ .

عن سيبويه . وبشيءٍ من التفصيل يمكننا أن نقسم وسائل ابن ولاد في الدفاع عن سيبويه إلى ما يأتي:

١- الرجوع إلى المادة اللغوية المسجلة عن الثقات بدون اعتبار للقياس النظري. وعلى هذا الأساس انضم ابن ولاد إلى سيبويه في منعه أن يقال "السقي لك" و "الرعي لك" بدلاً من "سقيا لك" و "رعيا لك" مخالفاً المبرد في إجازته ذلك اعتماداً على أنه لا فرق في القياس بينهما وبين "الحمد لله" و "العجب لزيد". وقد بنى ابن ولاد رأيه على أساس أن العرب لم تتكلم بهاتين العبارتين مع الألف واللام وأن سيبويه لم يمنع من طريق القياس وإنما من قبيل السماع ، وأنه لا يصح النظر إلى القياس وترك ما تتكلم به العرب، لأن العرب يمتنعون عن التكلم بالشيء ، وإن كان القياس يوجهه ويتكلمون بالشيء وإن كان القياس يمنعه.

وفي مسألة أخرى انضم ابن ولاد إلى سيبويه في إجازته أن يقال "قال فلانة"، لأن هذا التعبير قد نقل عن العرب الفصحاء.

٢- من المعروف أن المبرد بنى كثيراً من اعتراضاته على أسس نظرية بحتة . ومن أجل هذا كان لا بد لابن ولاد أن يستعمل نفس السلاح في معرض الرد ، وأن يقرع الحجة بحجة مماثلة . ولتوضيح هذه الاتجاه نقتبس ما قاله ابن ولاد انتصاراً لسيبويه في إجازته أن يقول "زيدُ ضربتُ". قال ابن ولاد - بعد احتجاجه بروايات لبعض أهل البصرة والكوفة - "وأما طريق المقايسة فإنه أجاز العرب أن تنصب المفعول إذا تقدم وقد شغل الفعل عنه بالهاء ، كقولهم زيداُ ضربته . فعديل هذا في الحاشية الأخرى أن تجيز زيدُ ضربت فترفعه ولم يشغل الفعل عنه بالهاء في اللفظ كما نصبته وقد شغلت الفعل بالهاء لأنهما حاشيتان متحاذيتان في الجواز وإن كانت أخراهما أكثر في كلام العرب من الأولى".

واستعمل ابن ولاد سلاح المنطق مرة أخرى في رده على المبرد الذي رفض قول سيبويه "لا تستغني هذه الحروف التي للمعاني عن الاسم والفعل ، ويستغنيان عنها". قال ابن ولاد منتصراً لسيبويه: "إن سيبويه أتى بحكمين فلم يقابل المبرد واحداً منهما بنقض وذلك أنه قال: الحروف التي للمعاني لا تستغني عن الاسم والفعل ولا بد لها من أحدهما، وسبيل التناقض لهذا القول أن يطرح حرف النفي ويجعله موجباً فيقول إنه قد

يستغني عن الاسم والفعل في حال. ولن يجد ذلك لأن الحرف لا يوجد في كلام العرب إلا متشبيهاً باسم أو فعل . والحكم الآخر أن الاسم والفعل قد يستغنيان ، فكان نقض هذا بالنفي هو أن يقول: لا يستغنيان في حال ، وقد استغنيا في مثل قولنا قام زيد" (١) .

٣- وفي بعض الحالات لم يكن المبرد دقيقاً في اقتباس سيبويه ، وبالتالي لم يكن على صواب في الحكم الذي بناه على هذا الاقتباس المحرف . وقد كان ابن ولاد على وعي بهذه الحالات ، وكان رده يتلخص في تصحيح النص وتحرير عبارة سيبويه . ومن أمثلة ذلك المسألة رقم ١٢٤ وخلاصتها أن المبرد نقل عن سيبويه أنه قال: "يكون على مُفْعَل في الأسماء نحو مصحف ومخدع وموسى ولم يكثر في كلامهم ولا نعلمه صفة". ثم اعترض المبرد على سيبويه قائلاً "هذا المثال من أكثر ما جاءت عليه الصفات... وأحسب هذا في الكتاب غلطاً عليه بل لا أشك في ذلك". ثم جاء رد ابن ولاد مقررماً ما يأتي:

أ- هذا غلط من المبرد على الكتاب وليس على سيبويه ، لأنه اعترف بأنه ليس من كلام سيبويه وإنما غلط عليه في كتابه.

ب- نظرنا في عدة نسخ من الكتاب فوجدنا الكلام صحيحاً مستقيماً على غير ما حكى المبرد. وليس المبرد عندنا ممن يكذب ، ولكن موضع ظننا أنه تجاوزه نظره لأن هذا الكلام الذي ذكره يتلوه بسطر في مثال مخالف لذلك المثال .

ج- نص سيبويه "ويكون على مُفْعَل نحو مصحف ومخدع وموسى ولم يكثر هذا في كلامهم اسماً وهو في الوصف كثير . والصفة قولهم مكرم ومدخل ومعطى. ويكون على مُفْعَل نحو منخل ومسعط ومدق ومنصل ولا نعلمه صفة" (٢). فوزن مُفْعَل هو الذي عند سيبويه أنه لا يعمله صفة.

٤- وأحياناً كانت تحطئة المبرد لسيبويه ترجع إلى سوء فهمه لعبارة سيبويه ، فكان عمل ابن ولاد يتلخص حينئذ في شرح عبارة سيبويه وبيان المراد منها. ومن أمثلة ذلك المسألة الثانية عشرة ، ونحن نقلها باختصار هنا:

(١) الانتصار ص ٣١٠ .

(٢) المرجع ص ٣١٦-٣١٨ .

سيبويه: الرفع بعد "إذا" و "حيث" جائز في مثل "حيث زيد لقيته فأكرمه" و "إذا زيد تلقاه فأكرمه".

المبرد: أما "إذا" هذه فابتداء الاسم بعدها محال لأنك لا تقول: "اجلس إذا عبد الله جالس". وقد نقض هذا قوله: إذا كانت ظروف الزمان في معنى "إذا" فلا تصفها إلا إلى الفعل. وقد أجاز في غير هذا الباب الرفع في البيت: لا تجزعي إن منفس أهلكته... ولا يجوز الرفع على ما ذكر لأنه يرفعه بالابتداء والقول فيه متى رفع أن يكون على إضمار "هلك".

ابن ولاد: هذا لا يجوز بهذا اللفظ ولا هو الذي أجازه سيبويه، وإنما يجيز مثل قولك: اجلس إذا عبد الله جالس، فتكون الجملة بعد "إذا" مبنية من اسم وفعل إلا أن تقديم الاسم على الفعل يقبح من جهة الترتيب. وبهذا يكون سيبويه لم يصف "إذا" إلا إلى الفعل فلا تناقض. ومعنى إضافة إذا لفعل إضافتها للجملة الفعلية. فهو إذا قدم الاسم أو أخره إنما يضيف إلى تلك الجملة بعينها، لأنه لا فرق بين قولنا "زيد قام" و "قام زيد" في المعنى^(١).

٥- وأخيراً فقد رفض ابن ولاد في كتابه أن يضع أي نحوي في مركز أقوى من مركز سيبويه، وبالتالي رفض أن يحتج على سيبويه برأي قاله نحوي آخر. ومثال ذلك ما ذكره المبرد من أن سيبويه منع تصغير كلمة "اللائي"، ثم رده ذلك بإجازة الأخفش لهذا التصغير قياساً. وقد كان رد ابن ولاد يتلخص في أن ما حكاه الأخفش إنما أجازة قياساً لا سماعاً. وقياس مثل هذه الأمور سهل على سيبويه وعلى من هو دونه^(٢). وفي مسألة أخرى رفض ابن ولاد أن يعتبر ما سماه المبرد (إجماعاً) بدون وجود سيبويه، ذاكراً أن

(١) الانتصار ص ٣٤-٣٧.

(٢) المرجع ص ٢٧٧-٢٧٩.

الإجماع لا يتحقق إلا بوجود سيبويه^(١).

قيّمته:

لهذا الكتاب قيمة خاصة تتلخص فيما يأتي:

١- أنه أول كتاب يخصص للدفاع عن سيبويه ضد هجمات المبرد، وربما كان الكتاب الوحيد الذي يخصص لهذا الغرض ، إذا استثنينا ما ذكره ياقوت في معجم الأدباء من أن هناك نحوياً اسمه عبيد الله بن محمد ابن أبي بردة القصري قد ألف كتاباً بعنوان "الانتصار لسيبويه على أبي العباس المبرد في كتاب الغلط"^(٢). ولكن ياقوتاً لم يلق أي ضوء على هذا المؤلف المجهول ولا على كتابه.

٢- أصالة المؤلف في هذا الكتاب وظهور شخصيته . وعلى الرغم من أن أستاذه الزجاج قد سبقه في مهمة الدفاع عن سيبويه إلا أنه يبدو أن ابن ولاد لم يستفد كثيراً من هذا الدفاع . ودليلنا على هذا أمران: أولهما ما ذكره القفطي من أن الزجاج كان يضع ثقته في تلميذه ابن ولاد وأنه كثيراً ما كان يسأله رأيه في بعض مشكلات "الكتاب" وأن الزجاج كثيراً ما كان يختار تفسير ابن ولاد وبنضم رأيه^(٣). وثانيهما أننا لو قارنا دفاع ابن ولاد بأي دفاع للزجاج لظهر الفرق بين الدفاعين واضحاً. فأما دفاع الزجاج فمختصر جداً وغير كاف وأما دفاع ابن ولاد فدفاع شامل مستفيض وفي نفس الوقت مقنع وسديد. ويكفي أن نحيل القارئ إلى الخلاف بين المبرد وسيبويه في "إن" في قول الشاعر:

(١) المرجع ص ٢٧٥.

(٢) معجم الأدباء ٥٩/١٢، ومعجم البلدان ١١٢/٤ .

(٣) القفطي في إنباه الرواة ٩٩/١ .

سقته الرواعد مِنْ صَيْفٍ وإن مِنْ خريف فلن يعدما

أهي "إمأ" حذف من "ما" أم هي "إن" الجزائية . أما دفاع الزجاج فلم يشغل أكثر من بضعة أسطر من كتاب الخزانة، وأما دفاع ابن ولاد فقد شغل ثلاث صفحات كاملة من مخطوطة الانتصار^(١).

٣- أن ابن ولاد في هذا الكتاب أثار عدة مشكلات تتعلق بكيفية تععيد القواعد، ومهمة النحوي في ذلك ورسم الطريق لمن يتصدى للدرس النحوي ، وأسهم في وضع أسس ذلك العلم الذي عرف فيما بعد باسم "أصول النحو" . ومن أهم الأسس التي نادى بها ابن ولاد وطبقها في كتابه ما يأتي:

أ- أنه لا يصح الطعن على العربي ، أو رميه باللحن أو الخطأ ، أو تقديم القياس النظري على المادة اللغوية المسموعة. وفي هذا يقول رداً على المبرد "إن كانت التخطئة لمن قال ذلك من العرب فهذا رجل يجعل كلامه في النحو أصلاً وكلام العرب فرعاً فاستجاز أن يخطئها إن تكلمت بفرع يخالف أصله" ويقول: الذي للنحوي أن يفعله أن يمثل وبعثل لما جاء عن العرب فأما أن يرده فليس ذلك له"^(٢).

ب- أنه يجب الوقوف عند المادة المسموعة ، ولا يجوز تصحيح ما لم يرد عن العرب بمقتضى القياس النظري. فهناك من الأساليب والكلمات ما يصح في القياس ولكنه لم يسمع فيجب أن نقف عند ما قالته العرب ولا نغيره . وفي هذا يقول: "سبيل النحويين اتباع كلام العرب إذا كانوا يقصدون إلى التكلم بلغتهم . فأما أن يعملوا قياساً وإن حسن يؤدي إلى غير لغتها فليس ذلك لهم ، وهو غير ما بنوا عليه صناعتهم" ، ويقول "لا بد من متابعتهم إذا كان يريد التكلم بلغتهم دون ما يطرد لنا ويحسن من مقاييسنا"^(٣).

ج- أن تعدد الروايات في البيت الواحد لا يسقط حجيتها ، وأن كل رواية - ما دامت قد نقلت عن ثقة - يصح الاستشهاد بها . وهو يقول في ذلك: "الرواة عن الفرزدق

(١) راجع خزنة الأدب ٤/٤٣٥، والانتصار ٧٤-٧٧ .

(٢) الانتصار ص ١٢٠، ١٢١ .

(٣) المرجع ص ٢٣٧، ٢٣٨ .

وغيره من الشعراء قد تغير البيت على لغتها وتروبه على مذاهبها مما يوافق لغة الشاعر ويخالفها ولذلك كثرت الروايات في البيت الواحد... ولغة الرواة من العرب شاهد كما أن قول الشاعر شاهد" ويقول "مجىء الروايات في البيت الواحد يجعل كل رواية حجة إذا رواها فصيح لأنه يغير البيت إلى ما في لغته فيجعل ذلك أهل العربية حجة"^(١).

د- أنه لا يصح تأويل كلام العرب وصرفه عن ظاهره وادعاء الحذف والإضمار بدون داع . وهو لهذا يخالف المبرد في إعرابه قوله تعالى " ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين". فقد كان المبرد يقول إن فاعل "بدا" مصدر مقدر ، وتأويل الآية: ثم بدا لهم بدو ولكن حذف بدو من الكلام لأن "بدا" تدل عليه . أما ابن ولاد فيقول: ليس الأمر كذلك لأن "ليسجننه" جملة في موضع الفاعل... وأما قوله إنه يضم فيه البدو فإننا إنما نضم إذا كان الكلام محتاجاً إلى الإضمار ناقصاً عن التمام . فأما إذا كان الكلام تاماً مفيداً.. فلا حاجة بنا إلى الإضمار^(٢)..

٤- ولعل خير ما يدل على تقدير القدماء لهذا الكتاب وإعجابهم به تلك الاقتباسات العديدة الطويلة التي نجدتها في كتب المتأخرين منهم. وبكفيينا أن نشير إلى "خزانة الأدب" للبغدادي^(٣) وإلى نسخة الزيتونة من كتاب سيبويه، التي سبق الحديث عنها.

(١) المرجع ص ١٩، ١٩٣ .

(٢) المرجع ص ٢١٢، ٢١٣ .

(٣) انظر على سبيل الخصوص ١٧٤/١ و ١٣١/٢ و ٤٣٦/٤ . وانظر كذلك ٢٨٧/١، ٣٩٤،

٣٩٥ و ٦٢/٢، ٢٧٥ و ٢٠٢/٣، ٣٨٨ و ١٣٧/٤ .

الفصل الثاني

كلمات عن اللغة

الاتصال اللغوي

عن طريق الجلد*

إن أهم وظيفة للاتصال اللغوي هي تلقي أفكار الآخرين ومشاعرهم، أو نقلها إليهم. ولا تقف وسائل الاتصال اللغوي عند حدود الألفاظ والكلمات؛ فهناك وسائل كثيرة غير لفظية يستخدمها الإنسان، أو تصدر عنه، بهدف نقل المعلومات أو الأفكار أو المشاعر، أو بهدف المساعدة على نقلها، أو الدقة في التعبير عنها.

وتتعدد الوسائل غير اللفظية لتشمل الحركات الجسمية لكامل الجسم، أو لعضو معين من أعضائه (مثل الرأس أو الوجه أو العين أو الكتف أو اليد..). مما يمكن إدراكه بحاسة البصر، كما تشمل الإمكانات الصوتية (مثل علو الصوت، ودرجته، ومعدل سرعته، وكميته، وكيفيته..). مما يمكن إدراكه بحاسة السمع. وتشمل أخيراً بعض الأنظمة غير المرئية أو المسموعة مثل اللمس والشم.

وكل وسيلة من هذه الوسائل نظام تواصلية متكامل، يمكن أن يؤدي وظيفته مستقلاً عن غيره، ومستقلاً عن الوسيلة اللفظية، كما يمكن أن يؤديها في صحبة وسيلة أخرى لتحقيق مستوى أعلى من الدقة أو الوضوح أو التأثير.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن نسبة ما تحمله الألفاظ في الحوار المباشر من معان لا تزيد على ٣٥٪ من مجموع الرسالة، ولذا فقد أعطى الوسائل غير اللفظية ثقلاً أعظم في أي حوار بين شخصين interpersonal بل هناك من بالغ في تحديد هذا الثقل للوسائل غير اللفظية فرفع نسبته إلى ٩٣٪ من التأثير الكلي للرسالة.

وتتفوق الوسائل غير اللفظية على نظيرتها اللفظية في أنها غالباً ما لا تقع تحت سيطرة المتصل أو تحكّمه أو وعيه، ولذا فهي عادة ما تكون صادقة خالية من الخداع أو التشويه أو التضليل. وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن الأفراد يعتمدون - حين تتعارض الإشارات- على الإشارات غير اللفظية؛ كما لو عقب شخص على كلامك بقوله: " رأيك واضح جداً عندي"، ولكنه في نفس الوقت أخذ يصدر إشارات تدل على غير ذلك، كأن أخذ يحكّ رأسه بقوة، أو أبدت ملامح وجهه أمارات الحيرة. فأنت عادة ما تعتمد على تعبيرات الوجه والإشارات غير اللفظية باعتبارها المؤشر الحقيقي للمعنى الذي يدور في ذهن سامعك.

كما تتفوق كذلك في المواقف العاطفية التي تعتمد على التأثير والإيحاء. ولما كانت طبيعة بعض المواقف الاتصالية عاطفية كان التعبير عنها بصورة غير مباشرة (عن طريق ابتسامة، أو إيحاءة، أو تربيطة على الكتف، أو نحو ذلك) أفضل من التعبير عنها بصورة مباشرة. ومن أجل هذا يعتمد المعلنون على الإشارات غير اللفظية في التأثير على الناس، والإيحاء إليهم بما يريدون.

أهمية اللمس في الاتصال اللغوي:

يعد الجلد من أهم أعضاء الإحساس في التواصل بين الأشخاص. ومن العلماء من اعتبر الجلد أهم هذه الأعضاء، ولا غرابة في هذا فكثير من علماء الفسيولوجيا يعتبرون اللمس هو الحاسة الوحيدة التي يمكن أن تردّ باقي الحواس إليها. فالسمع يبدأ بلمس موجات الصوت للأذن الداخلية. والتذوق يبدأ بلمس مادة ما لأعضاء الذوق. والرؤية تتم عن طريق ضوء يصل إلى العين.. وهكذا.

ويمكن تصور القيمة التواصلية الهائلة لللمس بتصور حالة Helen Keller التي تغلبت على صممها وفقد بصرها باستخدام حاسة اللمس. وقد استطاعت أن تتعلم أسماء الأشياء عن طريق ضغط الألفبائية اليدوية على راحة يدها. كما استطاعت أن تتعلم الكلام عن طريق وضع أصابعها على حنجرة أستاذتها Anne Sullivan لتحس

ذبذبات صوتها (لكنها رغم تعلمها الكلام فقد كانت في حديثها العام تحتاج إلى مترجم لأن صوتها لم يكن واضحاً بدرجة كافية). وأخيراً تعلمت القراءة والكتابة بطريقة Braille وهي نظام كتابي يعتمد على توزيع عدد من النقاط البارزة (من ٦-١) على شكل سداسي، وتقرأ هذه الرموز عن طريق إمرار الأصابع على النص.

وقد عبر بعضهم عن حالة Helen Keller قائلاً: "كان من المشكوك فيه لو أنها فقدت حاسة اللمس - حتى لو كانت قد استعادت حاستي السمع والبصر - أن تحقق موهبتها وعزيمتها شأنًا كهذا".

وحتى عهد قريب لم يكن العلم يعرف شيئاً ذا بال عما يمكن أن يقوم به الجلد من تواصل حتى توصل العلماء المهتمون بدراسة الجلد إلى حقيقة أن مقدار ونوع التلامس الذي يتلقاه الحيوان والإنسان حتى فترة بلوغه يملكان تأثيراً قوياً على سلوكه؛ لأن الدراسة أثبتت أن حاسة اللمس هي أم الحواس؛ وأن أثرها يبدأ منذ يتشكل الشخص جنيناً في بطن أمه. ويكتسب الطفل كثيراً من معلوماته عن نفسه وعن العالم من حوله من خلال اللمس، وبخاصة لمس المحيطين به، والذين يقومون على رعايته وإرضاعه وهددته.. ونظراً لإمكانات الجلد الإحساسية فإن الخبرات التي يكتسبها الشخص عن طريق جلده تفوق ما يمكن أن يتصوره الكثيرون منا. وقد أظهرت التجارب أن نضج الشخص العادي يتطلب قدراً مركزاً من التلامس سواء كان في شكل مداعبة أو تربية أو تقبيل أو حتى لمس مجرد. وهكذا انكشفت مغالقات الإمكانات الاتصالية للجلد، وظهر أمام أعين الباحثين أن الجلد ليس فقط أكثر الأعضاء حساسية، ولكنه كذلك وسيلتنا الأولى للاتصال.

الجلد كناقل للرسالة :

كلنا يعلم أهمية المعلومات التي يمكن الوصول إليها عن طريق ملاحظة لون الجلد. فهناك تقسيم للجنس البشري إلى شعوب على أساس ألوان جلودها. ومن ذلك التقسيم العربي القديم للأجناس إلى أسود (العرب)، وأحمر (العجم)، وأصفر (الروم). وفي الحديث الشريف: "بعثت إلى الأحمر والأسود". كما أن هناك تغييرات تطرأ على لون الجلد في المواقف المختلفة كالاكتئاب، أو الغيظ، أو الحجل، أو

السرور، أو الضعف.. وقد ورد لذلك في التراثين الديني والشعبي نماذج كثيرة كقوله تعالى: "وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظَلَّ وجهه مُسَوِّدًا وهو كظيم"، وقوله تعالى: "وأما الذين ابيضتْ وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون". وفي الحديث النبوي: "وكان ذلك الرجل مصفر اللحم" (من الإعياء والمرض). وفي ألف ليلة وليلة: " فلما سمعتُ هذا الكلام اصفرَ لوني" (من الحجل)، وفيها: " أخذته الوجد والهيام واصفرَ لونه" (من الذبول والضعف)، وفيها: "رَدَّ لونه واحمرَّ وجهه" (من الصحة والقوة الجسمية)، وفيها: "احمرت وجنتاه" (من الحجل)

كذلك يستعين الأطباء بلون الوجه أو الجسم أو العضو المعين في تشخيص بعض الأمراض، ونجد أمثلة لذلك في كتاب "القانون" في الطب لابن سينا، كما نجد أمثلة له في الطب الحديث حين يصل الأطباء من لون اللسان الأبيض إلى معاناة المريض من عسر في الهضم أو إصابته بالدفتريا، ومن لونه الأحمر إلى معاناته من حالة بولينا متأخرة. وحين يستنتجون من صفرة الوجه وجود أمراض بالكبد، ومن حمرة إصابته المريض بارتفاع في ضغط الدم.

ولكن الشيء الطريف توصل العلماء بعد الدراسة العملية التجريبية إلى لغة يبث بها الجلد حديثه العاطفي. وقد توصلت إلى ذلك Barbara Brown بعد أن طرح السؤال: هل يمكن أن يبث الجلد رسالة أو ينقل معنى؟ وبعد أن ردت بالإيجاب ذكرت أن كل ما نحتاجه لنستمع إلى حديث الجلد عدد من الأقطاب الكهربائية تثبت في الجلد، وآلة تسجيل خاصة. وسوف يقوم الجلد بالإخبار عن وجود الانفعال -حين يوجد- وعن درجة قوته، وإلى أي مدى كان الشخص انفعاليا. بل سيخبرنا كذلك متى لجأ الشخص إلى الكذب. ويمكن أن ينوع الجلد من أشكال رسائله تبعاً لتنوع قوة التيار الكهربائي الصادرة عنه. ويمكن عن طريق جهاز بسيط تحويل هذا التيار الكهربائي المتنوع الصادر عن الجلد إلى تسجيلات كتابية مرئية.

وقد أمكن استخدام هذه القدرة التواصلية للجلد في تطبيقات كثيرة منها:

١- توظيفها في العلاج النفسي عن طريق استخدام الرسائل التي يبثها الجلد لتحديد المشاكل العاطفية عند المريض.

٢- الاسترشاد بها في تحديد مدى صدق المتكلم أو كذبه، وما إذا كان الانفعال الذي يرسله الجلد- والذي يعبر عن حالة صادقة واقعية- يتطابق مع الانفعال الذي يحاول الشخص أن يعبر عنه بوسائل أخرى مثل تعبيرات الوجه. وقد قام بتركيب أول جهاز لكشف الكذب John Larson عام ١٩٢١، واستخدمته الشرطة بنجاح منذ عام ١٩٢٤ أثناء استجواب المتهمين. وهو جهاز تقوم فكرته على تسجيل التغيرات في المقاومة الكهربائية للجلد الناتجة عن فعالية الغدد العرقية التي تستثيرها المثبرات المسببة للانفعال، وعلى مراقبة التغيرات في معدلات ضغط الدم والنبض والتنفس التي تتأثر بحالات الشخص الانفعالية. ويتم ذلك بشد أنبوب حول صدر الشخص لتسجيل حركات الصدر عند التنفس، ووضع حزام حول ذراعه لتحديد ضغط الدم والنبض، وتقوم أكثر من ريشة بتسجيل موجات الحركات على ورقة رسم بياني تتحرك بواسطة مولد كهربائي صغير.

الجلد كمستقبل للرسالة:

لا أحد يجادل في أهلية الجلد للقيام بهذه الوظيفة نظرا لقدراته الاتصالية العجيبة. وقد أشار العلماء إلى أن ما يكتسبه الإنسان من خيرات عن طريق جلده أهم بكثير مما يتصور معظمنا. ذلك أن الجلد الإنساني يملك الملايين من نقاط الاستقبال والألياف العصبية المهياة لمعرفة مادة الشيء والإحساس بالضغط والحرارة والألم والوخز وغيرها.

ولكن الكثيرين لا يتصورون الجلد كوسيلة استقبال متقدمة قادرة على فك مغاليق الأفكار والعواطف المتشابكة التي تصله من مصدر خارجي .

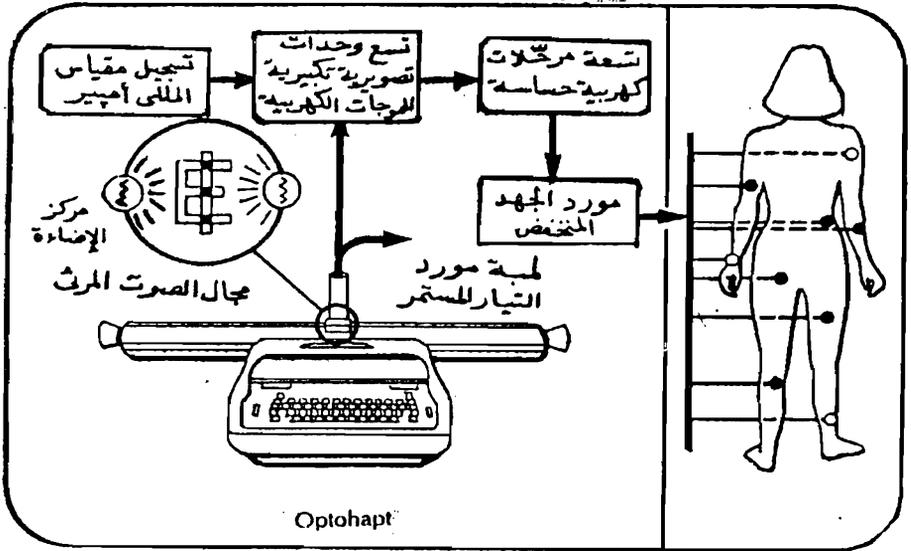
ويرجع الفضل في اكتشاف قدرات الجلد الاتصالية إلى البحوث التي قام بها Frank Geldhard وزملاؤه من "معمل الاتصالات الجلدية" في برنستون. وقد تبين لـ Geldhard وزملائه أنه لكي نصل إلى استخدام فعال لإمكانات الاتصال عن طريق الجلد- لابد من وضع وسيلة لإرسال موجات كهربية عبر الأعصاب إلى أجزاء مختلفة من

الجسم. هذه الموجات الكهربية ترمز إلى الأفكار والانفعالات التي يمكن للجلد أن يفك شفرتها.

ولوضع نظام شفري قابلة أجزاؤه للتمييز، أو "لغة" يفهماها الجلد فقد قام Geldhard وزملاؤه بتحديد الأبعاد المختلفة القادرة على استثارة الجلد عن طريق موجات كهربية يستقبلها الجلد كذبذبات. وقد توصوا إلى وجود أبعاد أربعة هي الموقع، والكثافة (وتحددها قوة الذبذبات)، والاستمرار (ويشير إلى الوقت الذي تستغرقه الذبذبة)، والتردد.

أما بالنسبة للموقع فقد حددوا سبعة متذبذبات توضع في تجويف الأضلاع البطنية بواسطتها يمكن للشخص بنسبة ١٠٠٪ التعرف على هذه المواقع عن طريق الذبذبات الواصلة إلى الجلد. وأما بالنسبة للكثافة فقد أظهرت الدراسة العملية قدرة الشخص المستقبل على تمييز خمس عشرة درجة منها. وأما بالنسبة للاستمرار فقد حددوا مجاله من ١/١٠ ثانية إلى ثانيين، وبينهما امتداد يمكن للملاحظ العادي أن يميز عليه خمساً وعشرين درجة من الاستمرار. وأما التردد فيمكن تنويعه أثناء إرسال الرسالة إلى الجلد، ويحتاج ذلك إلى تحكم عالي الدقة، حتى لا يحدث خلط بين الكثافة والتردد، وحتى لا يؤدي تغيير التردد إلى تغيير "درجة الذبذبة" مما قد يسبب صعوبة للمستقبل. فكل من الأذن (الذبذبات الصوتية الصادرة عن الجهاز النطقي) والجلد (ذبذبات الجلد الناتجة عن طريق النبضات الكهربية) تعتمد على درجة الصوت، أو تردد الذبذبات لتحديد معاني الرسائل.

وللتغلب على هذه الصعوبات التي ترتبط ببث الرسائل إلى الجلد عن طريق الذبذبات فقد تم تركيب جهاز للبت ووضع له ألقبائية شفرية لنقل كلمات وجمل إلى الجلد. واسم هذا الجهاز Ophapt (انظر الشكل) ويتكون من آلة كاتبة ذات لوحة أزرار لكتابة الألقبائية الشفرية التي يتم تحويلها إلى تتابعات وتجمعات من النبضات التذبذبية التي توزع على مواقع مختلفة من الجسم.



ومن الممكن استخدام مثل هذا الجهاز في مجالات تطبيقية متعددة، وبخاصة من الأشخاص الذين قد يتعرضون لتعطل حاستي السمع والبصر، مثل قائد الطائرة الذي قد تصاب أجهزته بجلل يوقف أجهزته وتتعلل معها كل وسائل الاتصال بالعالم الخارجي مما يعرض الطائرة لكارثة محققة. فحين يكون جسم الطيار مزوداً بعدد من المتذبذبات فإنه سيملكه التقاط التعليمات والتوجيهات التي سيبتها مركز التحكم في المطار من خلال النبضات الكهربائية المرسله إليه عن طريق جهاز التحكم عن بعد.

الجلد كنظام اتصال مستقل:

إذا كان معمل الاتصالات الجلدية في برنستون قد تعامل مع الجلد باعتبار قابليته لاستقبال الرسائل واستخدام وسائل ميكانيكية لبث هذه الرسائل إليه، فإن هناك فريقاً من العلماء قاده Alma Smith سار بالبحث خطوة هامة إلى الأمام حينما قام بدراسة كل من القدرات الإرسالية والاستقبالية للجلد الإنساني، واعتبر الجلد نظاماً اتصالياً بشرياً مستقلاً.

وقد بدأت Alma Smith دراستها بفرضية عامة تقول إن الاتصالات ذات المعاني العاطفية يمكن أن يقوم بها اللمس في غياب أي إشارات حسية أخرى، بمعنى أنها رأت أن اللمس يمكن أن يوظف بفاعلية كنظام اتصالي مستقل. ولاختبار صحة هذه

الفرضية كان عليها أن تقوم بمهمة ذات شقين: أولهما أن تتوصل إلى بعض الرسائل التي يمكن بثها عن طريق اللمس، والآخر أن تبتكر منهجاً عملياً لبث رسائل كهذه عن طريق اللمس. وقد أوصلتها دراستها الاستطلاعية إلى النتيجة الآتية: حينما يضع شخص يديه على يدي شخص آخر (حتى مع وجود عازل بينهما يمنع وصول أي مؤثرات أخرى) فإنه يكون قادراً على توصيل عدد من الانفعالات أو المشاعر المختلفة. ثم قامت بعد هذا باختيار خمسة منها رأت أنها أكثر قابلية للنقل عن طريق اللمس وهي: الشعور بالعزلة- الحنان- الخوف - الغضب - المزاج. وقد طلبت من أحد خريائها المدربين أن يقوم بنقل هذه المشاعر إلى عدد من الأشخاص -الواحد بعد الآخر- عن طريق اللمس باليد، مع تغيير حركاتها. وقد قام الخبير بتوصيل يديه بيدي كل شخص، وعن طريق الحركات المختلفة ليديه حاول أن يوصل هذه المشاعر (مع وضع عازل بينه وبين مستقبل الرسالة).

ولتحديد درجة الدقة في الإدراك فقد أضافت Alma Smith إلى تجربتها خطوة هامة بتطويرها ما يمكن أن يسمى "قائمة الاتصال اللمسي" (انظرها بعد). وقد مرّ ذلك بمراحل ثلاث:

في المرحلة الأولى طلبت من عدد من الأشخاص المجرب عليهم أن يقترحوا الصفات الملائمة للمشاعر والانفعالات المنقولة إليهم، كالإرهاق والحنان والشعور بالعزلة. ثم قامت باستخلاص الصفات الخمس الأكثر تردداً لكل انفعال وأعطت لكل صفة وزنها حسب مرات اختيارها لكل انفعال. وعلى هذا فإذا كان الوصف "مهتم" قد ورد ضعف عدد مرات الوصف "متعاطف" بالنسبة لانفعال "الحنان" فإن الأول منهما (مهتم) يعطي نقطتين، في حين يعطي الآخر (متعاطف) نقطة واحدة.

وفي المرحلة الثانية طلبت من الأشخاص المجرب عليهم أن ينظروا إلى "قائمة الاتصال اللمسي" أثناء محاولة الخبير نقل مشاعره إليهم عن طريق إمساك اليد، وأن يختاروا الكلمات الخمس التي يشعرون أنها تمثل بصورة أفضل الانفعال المنقول إليهم.

وفي المرحلة الثالثة استخدمت نظام النقاط (انظر نظام النقاط لقائمة الاتصال اللمسي). فلو افترضنا أن الخبير أراد أن ينقل انفعال "الحنان" وطلب من الشخص المجرب عليه أن يختار خمس كلمات (من قائمة الاتصال اللمسي) يرى أنها أفضل ما

يصف الانفعال. إذا اختار المجرَّب عليه الاهتمام والارتياح والوقاية والحذر والتفهم فإنه سيحصل على عشر نقاط، وهي الحد الأقصى الذي يمكن الحصول عليه لهذا الانفعال، وهذا يعني أن الحبير نقل الانفعال بدقة. وإذا لم يختَر المجرَّب عليه أي كلمة من تلك الموجودة أمام "الحنان" فإنه سيحصل على صفر. وهذا يعني أن المجرَّب عليه لم يستقبل أي جزء من الرسالة.

وبذا استطاعت Alma Smith أن تقدم وسيلة مفيدة وموضوعية لقياس مستوى الاتصال اللمسي عند الأفراد.

قائمة الاتصال اللمسي:

مرتبة هجائيا حسب حروفها

آمن	غير آمن	متعاطف	مرتاح	مهتاج
حار	غير ودي	متفهم	مرتعش	مهتم
حذر	فرح	متوافق	مستمتع	نشط
خائف	قاس	مجنون	مغضب	هادئ
دفاعي	لا مبال	محاييد	ممتعض	هازي
دمث	مؤمل	محب	مفعم بالحياة	هام
عديم الشعور	مبتهج	محتاج إليه	منتهم	واق
غاضب	متألق	محزون	منعزل	ودود

نظام النقاط

لقائمة الاتصال اللمسي

الحنان	النشاط	الخوف	الانزعاج	الغضب
مهتم ٢	مبتهج ٢	خائف ٢	لا مبال ٣	غاضب ٢
مرتاح ٢	مستمتع ٢	دفاعي ١	منعزل ٢	قاس ١
دمث ١	مهتاج ١	محزون ١	متوافق ١	دفاعي ٢

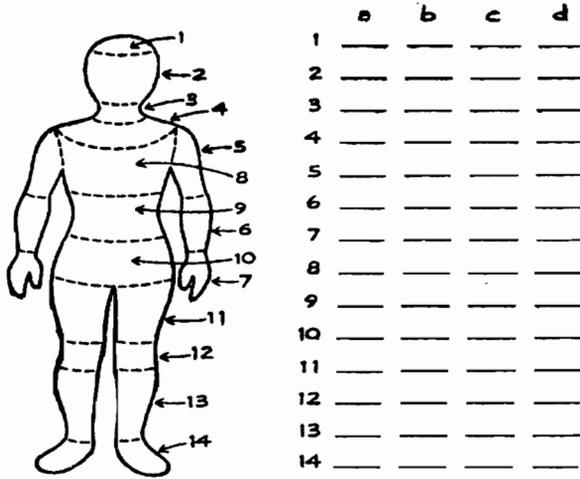
الحنان	النشاط	الخوف	الانعزال	الغضب
١	١	١	١	٢
٢	٢	٢	٣	٢
١	٢	٢	١	١
٢	٢	٢	١	١
٢	٢	٢		
١	١	١		

مَنْ يلمس من؟ وأين؟

تختلف عادات الشعوب في نظرتها إلى التلامس، فبعضها يفرض حظرا عليه، وبعضها يسمح به. ويختلف البعض الثاني في درجة اعتماده على اللمس سواء مع النفس أو مع الغير. فقد لاحظ Sidney Jourard حركات التلامس بين المتصاحبين في بعض المقاهي بعدد من المدن، وجاءت نتائجه تشير إلى وقوع الأعداد الآتية في الساعة الواحدة:

بورتو ريكو	١٨٠ مرة
باريس	١١٠ مرات
فلوريدا	مرتان
لندن	صفر

كذلك أراد Jourard أن يعرف أي أجزاء الجسم تلمس غالباً فأجرى استبياناً على عدد من الطلاب يحوي خريطة لجسم الإنسان تقسمه إلى أربعة وعشرين قسماً. واقتصر في استبيان آخر على تقسيم الجسم إلى أربعة عشر قسماً، كما في الشكل الآتي:



وقد طلب الاستبيان من المجرب عليهم أن يحددوا جزء البدن الذي رأوا لمسه، أو الذي لمس منهم، أو الذي قاموا هم بمسه خلال الاثني عشر شهرا الأخيرة، وذلك بالنسبة لأربعة أنواع من الناس:

١- الأم (رقم a في صفحة الاستبيان).

٢- الأب (رقم b) .

٣- الصديق من نفس الجنس (رقم c) .

٤- الصديق من الجنس الآخر (رقم d) .

وقد خرج من هذا الاستبيان بجملة من النتائج منها:

١- تعرض الإناث للمس من كل الأشخاص أكثر من الذكور.

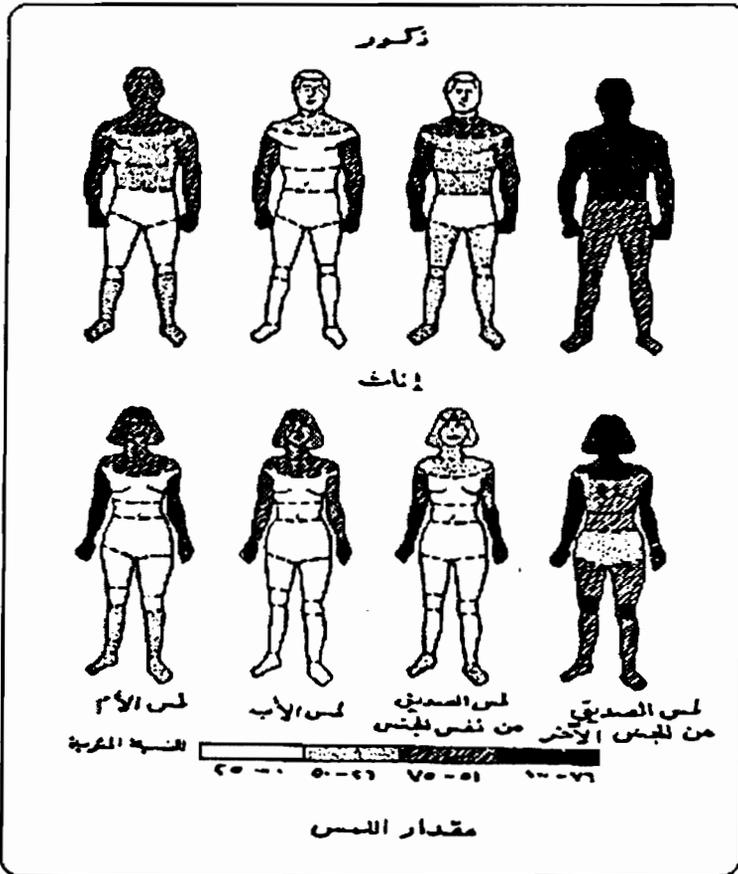
٢- قام الأصدقاء مختلفو الجنس، والأمهات بمعظم حالات اللمس.

٣- لم يقم كثير من الآباء بلمس أكثر من أيدي الطرف الآخر.

٤- تعرض الآباء والأمهات للمس قليل من النوع الحميم أو الودود.

٥- قامت الأمهات بكثير من اللمس من النوع الحميم أو الودود مع الآخرين.

- ٦-تحدث الرجال والنساء عن درجة أعلى من التلامس مع الوالدين والأصدقاء عن طريق الأيدي، وعن درجة أقل من التلامس معهم عن طريق أجزاء أخرى من البدن.
- ٧-قام الأصدقاء الذكور بلمسات كثيرة فوق منطقة الوسط.
- ٨-تمت أقل درجات الاتصال اللمسي بين الأب والابنة.
- ٩-هناك مناطق من الجسم اقتصر لمسها على العشاق أو الأزواج .
ويُلخص مقدار اللمس لكل نوع الشكل الآتي:



وقد خرجت بعض الدراسات للسلوك اللمسي في الولايات المتحدة بنتائج أخرى

منها:

١- أن الأطفال يتلقون لمسات بين سن ١٤ شهراً وعامين تزيد على ما يتلقونه في سن الرضاع.

٢- أن الأطفال الإناث يتلقين لمسات عاطفية أكثر مما يتلقى الذكور. وفي دراسات نشرت أوائل الثمانينيات في الولايات المتحدة عن الاختلافات بين الجنسين في وسائل الاتصال غير اللفظية توصل الباحثون إلى النتائج الآتية:
١- خلال الأشهر القليلة الأولى لحياة الطفل يتلقى الذكور أنواعاً من السلوك الجسدي (تلامس - حمل - أرجحة..) أكثر مما يتلقى الإناث ولكن يتغير النموذج بعد الشهر السادس وينقلب إلى الضد.

٢- أكثر نماذج التلامس بالأيدي شيوعاً بين البالغين عند تلاقهم خارج المنزل هو نموذج أ = ذكر- أنثى (بنسبة ٤٢٪) يليه نموذج ب = أنثى - ذكر (٢٥٪) يليه نموذج ج = نفس الجنس، ذكراً كان أو أنثى.

وقد أيدت كثير من التجارب والدراسات غلبة النموذج رقم أ ، ومن ذلك ما ثبت من مراقبة السلوك غير اللفظي للمسافرين والمودعين في المطارات من أن الذكور (والأكبر سناً) يميلون إلى أن يبدأوا هم باللمس. وقد فسر ذلك بكون الرجال أكثر حرية في تصرفاتهم من النساء نتيجة فاعليتهم وإيجابيتهم ومركزهم الاجتماعي، وبأنه انعكاس للمقولات الثقافية عن الرجال والنساء ودور كل في المجتمع، وأخيراً بأنه نتيجة النظرة إلى اللمس على أنه عدوان جسدي، وهو ما يتوقع أن يحدث من الرجل أكثر من المرأة.

٣- في دراسة تمت على أطفال ما قبل المدرسة تبين أن البنات يلمسن الأولاد أكثر. وهذا يؤكد أن ما قيل عن تقدم الرجل على المرأة في مجال اللمس لم يظهر في جميع الأبحاث بصورة مطردة، وهو ما أكدته Judith Hall في دراستها التي نشرتها عام ١٩٨٤، وعللته بأن ذوي المكانة العليا من الأفراد ربما لا يحتاجون دائماً إلى إثبات منزلتهم، أو قدرتهم على السيطرة على الآخرين، وأن الأفراد من ذوي المكانة الدنيا هم الأحوج إلى ذلك. ولذا فإن المرأة قد تبحث عن فرصة للملامسة لإثبات مكانتها، وتعويض عدم

تكافؤها في المركز مع الرجل. كما أنها ذكرت أن المادة العملية التي تحت أيدينا ليست كافية- حتى الآن- لتلقي ضوءاً على نوعية الاختلافات في اللمس بين الرجال والنساء.

أنواع اللمس ومعانيه:

ينظر الكثيرون إلى التلامس بين الأفراد على أنه مرادف للتعلق والتقارب وعمق الصلة، كما أنه قد يكون دليلاً على الحب أو الرغبة الجنسية. ومع هذا فإن مدلول الرسالة التي يستقبلها الجلد يختلف باختلاف عدد من المتغيرات مثل مدة اللمس، ودرجة قوته، والجزء الملموس، والقصد من اللمس، وطبيعة العلاقة بين المتلامسين، والموقف الذي يتم فيه التلامس، والمكان الذي يقع فيه (حفلة - مكان عمل..)، وفوق هذا جنس المتلامسين.

وقد أجريت أكثر من تجربة على عدد من طلاب الجامعة (ذكور وإناث - متزوجين وغير متزوجين) سئل كل منهم أن يحدد ما تعنيه ملامسة صديق من الجنس الآخر لأحد عشر جزءاً من أجزاء جسمه، وكان أكثر المعاني اختياراً هو الحب وعمق العلاقة، وتلاها الممازحة، والزمالة، واقتحام عزلة الشخص. وإلى جانب هذا المعنى الأولي لللمس توجد معانٍ أخرى متعددة تختلف باختلاف طبيعة العلاقة بين المتلامسين:

١-فالتلامس بين غريبين يعد من النوع العشوائي أو التصادفي، وهو الذي يتبعه عادة اعتذار صريح.

٢-أما التلامس الوظيفي أو التخصصي فيقع حين أداء وظيفة أو مهنة معينة كلامسة الطبيب لمريضه حين الكشف عليه، أو الحلاق لزبونه عند قص شعره.

٣-وهناك النوع الاجتماعي التأديبي، وذلك مثل المصافحة عند التلاقي، ومثل تقبيل اليد في بعض المجتمعات.

٤-أما النوع الصداقي أو الحميمي فمثل تلامس العشاق أو تعانقهم أو تقبيلهم الحُد عند التحية أو التوديع. ويدخل في ذلك ما يفعله الطبيب ليكتسب ثقة مريضه وصداقته من وضعه يده في يده، أو يده على كتفه.

٥- وهناك نوع من اللمس يتحد فيه اللمس واللموس وذلك حين يقوم الشخص بلمس جزء من جسمه. وهذا النوع من اللمس لا يحمل دلالة للآخرين إلا إذا رأوا الجزء الذي يُلمس من الجسم. ومن أمثلة ذلك إمرار الإصبع على الرقبة الذي يعني قطع رقبة الشخص. ومن أمثلته كذلك التحية أو الشكر بوضع الشخص يده اليمنى ممتدة عبر صدره، أو وضعه يده فوق فمه كما لو كان يمنع نفسه من الكلام أو الضحك، أو مسحه حول عينيه، وهي إشارة ترتبط عادة بحالة البكاء الحار بالدموع. وربما غطى الشخص عينيه ليبدو أنه لا يريد أن يرى ما لا يرضاه.

ويدخل في هذا النوع ما يعرف باللمس اللا إرادي الذي لا يقصد به تحقيق الاتصال، وعادة ما يحدث مع قليل من التنبه، أو بدون تنبه مطلقاً. وتقتصر دلالة هذا النوع عادة على الكشف عن الحالة الداخلية للمرسل. ومن أمثلة ذلك العبث بالشعر (مع حركات مصاحبة مثل إمساك أي شيء على المنضدة والعبث به، ومثل إظهار التملل بمحركات الوجه) مما يستنتج منه المشاهد وجود حالة من التوتر. ومن أمثلته كذلك حك موضع من الجسد، أو فرك العين، أو تسوية الشعر، أو تكرار إمرار اليد على الجبهة.

٦- وإلى جانب هذه المعاني الرئيسية لأنواع اللمس السابقة، فقد يحمل اللمس جملة من المعاني الثانوية أو الهامشية؛ مثل مركز الشخص، أو قوته، أو درجة نفوذه. فالطبيب أكثر حرية في لمس المريضة، وليس العكس. وكذلك الحال بالنسبة للمدير مع السكرتيرة، والزبون مع النادل، والأكبر سناً مع الأصغر. وفي كل هذه الحالات ثبت أن البادئ باللمس هو الأعلى مركزاً، أو الأكبر سناً.

وأخيراً: لعل أهم أنواع التلامس هو ذلك الذي يهدف إلى خلق التواصل، وكسر الحاجز النفسي، وتعميق الصلة بين الأفراد. إن هذا النوع يلعب دوراً في إعطاء التشجيع، والتعبير عن الحب، وإظهار التأييد العاطفي. ولذا يفضله الكثيرون على التواصل باللفظ أو بالنظر.

كيف نشأت اللغة الإنسانية؟

لا أحد يعرف متى وأين وعلى أي صورة بدأ الكلام الإنساني على وجه الأرض، على الرغم من وجود نظريات كثيرة حول هذا الموضوع . ومن المؤكد أنه لا توجد على سطح الأرض أي جماعة إنسانية- مهما قل حظها من الحضارة والمدنية- ليس لها لغة تفاهم وتتبادل الأفكار بها. وإن الكلام الإنساني لِيُمْكِنُ أن يستمر بينما يباشر الإنسان عملاً آخرَ يدويا، ويمكن أن يستمر في الظلام. ولعل هذا هو السبب في أن أجدادنا القدماء فضّلوا الحديث على غيره من طرق التفاهم مثل الإيماءات التي ولا شك كانت أسبق وجودا من الكلام، ومثل التعبير بالصور الذي ربما كان متأخرا في الوجود وأسلم إلى اختراع الكتابة.

واللغة - أي لغة بما فيها لغة الإنسان الأول- تتكون من أصوات تصدرها أعضاء النطق البشرية. هذه الأصوات- لتصبح ذات معنى- يجب أن تُوضَع بطريقة معينة، وأن تكون محل اتفاق بين أعضاء الجماعة اللغوية، باعتبارها قيمة رمزية تستحضر في ذهنهم أفكارا معينة. وإن سرّ العملية الكلامية كلّها يكمن في تلك الصلة القائمة بين اللفظ ومعناه في عقول اثنين أو أكثر، وما عدا ذلك من العملية الكلامية فهو عنصر عضوي طبيعي ميكانيكي. أما كيف تم في البداية عقد الارتباط بين اللفظ ومدلوله - حتى في أبسط صورته في عقل إنسان فرد- فإنه ما يزال لغزا من الألغاز على الرغم مما قدّم من افتراضات في هذا الموضوع. وسرّ آخر هو كيفية امتداد هذا الارتباط من عضو في الجماعة اللغوية إلى آخر، وكيفية صيرورته ملكا عاما بين كل الناس.

وقد تمّت كثيرٌ من التخمينات والمحاولات لاكتشاف الطريقة الأولى لإحداث الأصوات بقصد التفاهم مع الآخرين، والتي أخذت شكلا بُدائيا حتى تطورت هذا التطور الكبير وأخذت شكل لغات.

ومن هذه الفروض التي قدمت النظرية التي تفترض أن اللغة نشأت نتيجة إلهام إلهي هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء.

وأهم ما يعتمد عليه أصحاب هذا الرأي النصوص الدينية الواردة في القرآن الكريم وفي سفر التكوين. وهي نصوص في نظرنا ليست قاطعة وتقبل أكثر من تفسير. ومن ذلك قوله تعالى: " وعلم آدم الأسماء كلها " ففي رأينا أنه لا يعني أكثر من إقرار آدم عليه السلام وذريته على وضع الألفاظ.

وهناك فرض ثان يقول إن اللغة قد ابتدعت واستحدثت بالمصادفة وارتجال ألفاظها ارتجالا . ولا يوجد لهذا الفرض أي سند عقلي أو تقلي أو تاريخي وهو يخالف النوايس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية وهي القائمة على التدرج لا الارتجال والظفر.

وهناك فرض ثالث يزعم أن اللغة نشأت عن صرخات دهشة أو صيحات انفعال أو غيرها مما يعبر عن التأثير المفاجئ من ألم أو خوف أو فرحة، أو بدأت كسلسلة من التقبضات العضلية أو الأزيز الداخلي نتيجة لإجهاد عضلي أو نتيجة لتعبيرات سارة غير لغوية.

أما الفرض الرابع فهو الذي يقرر أن اللغة الإنسانية نشأت أول ما نشأت تقليدا لأصوات موجودة في الطبيعة مثل أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة مثل دوي الرياح وقصف الرعد وخرير الماء وحفيف الأشجار وما يحدث من صوت عن الضرب والقطع والكسر... وسارت في سبيل الرقي شيئا فشيئا تبعا لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة، واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان... وكان الإنسان يستخدم عوامل أخرى مساعدة في أول أمره لتعوض قصور لغته مثل الإشارات اليدوية والحركات الجسمية.

وربما كان هذا الفرض أقرب الفروض الأربعة إلى المنطق وأدناها إلى القبول لأنه يتفق مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات والنظم الاجتماعية.

وإلى جانب ذلك سلك العلماء عدة طرقٍ علمية بقصدِ التوصل إلى خصائص لغة الإنسان الأول والاهتداء إلى الصورة التي ظهرت فيها وإن لم يحالفهمُ التوفيقُ كثيرا في ذلك.

ومن الطرق التي سلكها العلماء دراسة اللغات القديمة مثل المصرية واليونانية والسنسكريتية والصينية ومقارنتها ببعضها ببعض بُغْيَةَ الانتهاء من ذلك إلى الاهتداء إلى الرُّطانة البدائية التي كان يستعملها الإنسان الأول . ولم تنجح هذه المحاولة لأن اللغة كطاقة بشرية يمتدُّ عُمرُها إلى آمامٍ سحيقة لا يمكن حُدُّها وتسبقُ كثيرا أقدم اللغات المعروفة (التي يبلغ عمرها حوالي ٤٠٠٠ سنة). ومن ناحية أخرى لأن استخدام الكتابة - التي هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة اللغات البائدة - تُعتبر بالنسبة للكلام الشفوي وسيلةً حديثة جدا وأثرا من آثار الحضارة المتطورة المستقرة. وبهذا يمكننا أن نقول إنه بالقياس إلى أصل اللغة فإن كل لغةٍ معروفةٍ لنا تعتبر حديثة ومهما أوغلنا في التاريخ فلن نصل إلا إلى لغاتٍ قد تطورت وتركت خلفها تاريخًا ضخما لا نعرف عنه شيئا .

كذلك حاول العلماء الوصول إلى نتائجٍ إيجابية عن طريق دراسة لغة الأطفال ومعرفة كيفية اكتساب الطفل للكلام وتعلمه. وتلك محاولة لا تقل مجانبة للصواب عن سابقتها؛ لأن الطفل يكتسب لغته الأم في محيطٍ تعتبر فيه اللغة ثابتة راسخة بالفعل، ومحددة الاستعمالات وواضحة التعابير لتلبية حاجات البيئة ورغباتها الخاصة. وحتى إذا ترك الأطفالُ وشأنهم لم يُلقَّنوا كيفية التكلم - كما يحدث بالنسبة لكثير منهم - فإن حالتهم تختلف تماما عن حالة الإنسان الأول الذي يُفترض وجوده في فترة نشأة اللغة وتكوُّنها.

ومن الأشياء الطريفة التي حفظها لنا التاريخ تلك المحاولات التي تمت لعزل الأطفال منذ مولدهم، حتى يمكن الحكم ما إذا كان الطفل يستطيع أن يتحدث بلغة ليست في أصلها مبنية على محاكاته للكبار، ويمكن تحديد أقدم اللغات وجوداً؛ فروى هيروودوت أن الفرعون المصري "بسماتيك" قد أجرى هذه التجربة على طفلين ليبرهن على أن اللغة المصرية القديمة هي لغة الإنسان الأول، ومنها تفرعت اللغات الأخرى، ولكن

خاب ظنه من هذه التجربة. وقام فردريك الثاني- في مطلع القرن الثالث عشر - بتجربة مماثلة، ويقال إن الطفلين ماتا قبل أن يصل الباحثون إلى نهاية تجربتهم. وفي حوالي عام ١٥٠٠م قام جيمس الرابع ملك سكوتلاندا بتجربة مماثلة ادعى بعدها أن الأطفال الذين أقام عليهم تجربته قد استطاعوا أن يتحدثوا باللغة العبرية بطريقة مفهومة، وهو ادعاء واضح الزيف، وكل الدلائل تؤدي إلى رفضه.

وقمت محاولة ثالثة لجأت إلى دراسة طريقة التركيب والتأليف في اللغات التي توصف بالبُدائية والتوحش. وأهم نقد يوجه إلى هذه الطريقة أنها تقوم على أساس الطبعية المزعومة للغات البُدائية، وهذا تصور خاطئ لتلك اللغات. لغويا ليس هناك لغاتُ بُدائية. نعم هناك لغاتُ لمجتمعاتٍ ربما أُطلقَ علماء الانثروبولوجيا على ثقافتها وصفَ البُدائية، ويُعتون بذلك أنها في مجال التسابق على استغلال المصادر الطبيعية وما شابهها قد حققت مستوى هابطا. ولكن كلمة "بُدائي" على أي حال ليست وصفا مناسباً يمكن أن توصف به اللغة. وإن الدراسات اللغوية للغات العالم لا تقف في جانب الزعم بأن تركيب اللغات يخضع لحجم الثقافة ويتفاوت بحسب حظ المجتمعات منها. وإن مفردات اللغة في أي وقت إنما تصوّر بدقة الثقافة المادية والمعنوية للمتكلمين، ولكن اللغات قد تتجاوب من ناحية المفردات مع التعديلات اللانهائية التي تصاحب التطور الثقافي، ثم تحتفظ في نفس الوقت بخصائصها الصوتية والنحوية القديمة بدون تغيير. وإنها لحقيقة ملموسة تشبها الملاحظة في ميدان الدراسات اللغوية لتلك اللغات التي تُنسب إلى مجتمعات بُدائية - أن تلك اللغات من الناحية الصوتية أو النحوية لا تقل تنظيمًا وتناسقا عن تلك الموجودة في غربي أوروبا أو في مجتمعات ذات حظ وافر من الحضارة. كذلك ثبت أن عوامل التغيير في تلك اللغات ليست أقل نشاطا أو أبطأ فاعلية في حركتها بالنسبة للغات المجتمعات البُدائية عنها في غيرها. وربما كان العكس صحيحا، فإنه يمكن أن يقال إن استخدام وسيلة للكتابة ووضع معايير للصواب أو الخطأ كل هذا يعوق التغيير اللغوي في مجالات خاصة ويجعل لغة الشعب المتحضر أقل تطورا من لغة الشعب البُدائي.

إن كل ما يمكن أن يفعل وتُتَوَقَّع منه نتائج مفيدة، هو مقارنة اللغة الإنسانية ومكانتها في المجتمعات البشرية بما نجده في المجتمعات الحيوانية من وسائل اتصال ذات شبه كبير باللغة الإنسانية وإن أنظمة كثيرة كهذه - أكثر أهمية وتركبًا من كونها مجرد صيحات- قد دُرست لكشف علاقاتها بالكلام الإنساني العادي. ونخص بالذكر منها رَقَصَات النحل، والنداءات المعينة لبعض القروذ في مواقف مختلفة... إلخ. ومن وجهة نظر علم وظائف الأعضاء فإن نداءات القروذ قريبة الشبه بالكلام البشري لكونها إنتاج أعضاء تقابل أعضاء النطق في الإنسان، ولكونها تُستقبل ويُستجاب لها عن طريق أذن السامع. ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن نُظْم السلوك لمثل هذه الأنواع من الاتصال تختلف كثيرا عن نظام اللغة، وبوجه خاص من ناحية التنوع الواسع للكلام الإنساني، وطواعيته العظيمة، وإمكانياته اللانهائية لتغطية المدى الواسع للتجارب الإنسانية. كذلك تختلف في أن انتقال اللغة عبر القرون أعطى فرصة لظاهرة التطور اللغوي أن تعمل. وليس هناك ما يجعلنا نفترض أنه خلال استمرار صَرَخَات حيوانية معينة، أو رَقَصَات محلية قد حدث أي نوع من التغيير، أو أن هناك أي اختلاف بين وسائل مجموعة حيوانية معينة في مكان ما عن وسائل مجموعة حيوانية مماثلة تعيش في مكان آخر.

ومع هذا أمكن تعليم كثير من الحيوانات الأليفة كيف تستجيب لنداءات اللغة البشرية، وعُلمت طيور مثل الببغاء بعض كلمات اللغة.

ولكن ما هو أعجب من هذا أن الشامبانزي قد أمكن تعليمها عشرات من الكلمات بطريقة الرموز اللغوية، وعن طريق نماذج بلاستيكية أصبحت قادرة على أن تكون هذه الكلمات، وتجمع الأحرف في مجموعات تشبه الجمل التي يقدمها الطفل في حياته المبكرة.

وقد افترض بعض اللغويين مراحل ثلاثا متتابعة مرت بها اللغة في نشأتها، وهي مرحلة الصراخ، ثم مرحلة المد أو استخدام الحركات، ثم مرحلة المقاطع التي ظهرت فيها الأصوات الساكنة. وكانت اللغة في أول أمرها تدل مفرداتها على معانٍ جزئية، ثم

انتقلت إلى التعبير عن المعاني الكلية، وظهرت فيها أولاً أسماء الذوات، ثم الصفات، ثم أسماء المعاني، ثم الأفعال.

ورغم كل ما بذل من محاولات يظل موضوع لغة الإنسان الأول ونشأة اللغة الإنسانية من الأسئلة المغلقة التي عجز العلم عن الإجابة عنها، ووقف حائراً أمام اكتشاف سرها، ومعرفة كنهها.

كيف يتم النطق عند الإنسان ؟ وهل هناك حيوان ناطق غيره؟

أبدأ بإجابة السائل عن الشق الثاني من السؤال وهو: هل هناك حيوان ناطق غير الإنسان فأقول: إذا أخذنا النطق بمعنى مجرد التَّفَوُّه ببعض كلماتٍ فإن هناك من الحيوانات العليا والطيور ما يمكن أن يقلدَ الإنسانَ ويحاكيه في التلفظ ببعض الكلمات، ولعلَّ أشهر الطيور القادرة على ذلك الببغاء. أما إذا أردنا بالنطق الكلامَ المرتبطَ بالتفكير فلا يوجد سوى الإنسان من بين الحيوانات من يُقدِّرُ على النطق، وهذه من الصفات التي فضَّلَ الله بها الآدميين على غيرهم وهو مصداق قوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً". (الإسراء: ١٧) وحين أطلق المناطقة على الإنسان وصفَ حيوانٍ ناطقٍ لم يَعْنُوا مجردَ النطق ببعض كلمات، وإنما عَنَوْا التفكيرَ في المقام الأول. وكثير من الفلاسفة وعلماء اللغة لا يَفْصِلُ بين اللغة والفكر بل يعتبرهما وجهين لورقة عملة واحدة. فالإنسان حين يفكر إنما يفكر بواسطة اللغة، وحين يتكلم لا بد أن يسبق كلامه عملية عقلية؛ ولذا سمي بعضهم التفكير باللغة الصامتة، وأثبت بعضهم أن الإنسان حين يفكر يدبُّ النشاطُ في جهازه النطقي في نفس الوقت ويُحدِثُ حركاتٍ غيرَ مسموعة، ولكن يمكن تسجيلها وملاحظتها بالأجهزة الدقيقة.

أما كيف يتم النطق عند الإنسان؟ فذلك إنتاج تعاون تام بين جملة من الأعضاء والأجهزة البشرية، يتم التنسيق بينها ويُشرفُ على تحريكها مركز القيادة أو التسيير في الدماغ. وحين تصل الأوامرُ إلى أعضاء النطق عن طريق الأعصاب المحركة الموجودة في القشرة الدماغية- تتقلص العضلات المشاركة في عملية الكلام، ومنها عضلات الجهاز التنفسي المولد للطاقة الصوتية ومنها عضلات الحجرة وبخاصة الأوتار الصوتية ومنها عضلات البلعوم وسقف الحنك واللسان والفكين. ويرى بعض الباحثين أن هناك مراكز

معينةً في الدماغ لوظيفة اللغة وأن هناك مناطق في الدماغ مسئولة عن تنسيق العمليات الحسية الحركية اللازمة للتكلم. وهذه المناطق والمراكز هي: المركز الحسي لأصوات اللغة - مركز التنسيق بين حركات التلفظ- المركز الحسي للعضلات المُحدثة للتصويت- المركز الحسي البصري للقراءة- مركز السمع- مركز البصر -مركز تحريك عضلات الوجه والحنجرة واللسان - مركز تنسيق حركات اليد.. وغير ذلك.

وحينما يستعد الإنسان للكلام العادي يستنشق الهواء فيمتلئ صدره به قليلاً. وإذا أخذ في التكلم فإن عضلات البطن تنقلص قبل النطق بأول مقطع صوتي ثم تنقلص عضلات القفص الصدري بحركات سريعة تدفع الهواء إلى أعلى عبر الأعضاء المنتجة للأصوات. وتواصل عضلات البطن تقلصاتها في حركة بطيئة مضبوطة إلى أن ينتهي الإنسان من الجملة الأولى. فإذا فرغ منها فإن عملية الشهيق تملأ الصدر ثانية وبسرعة استعداداً للنطق بالجملة التالية وهكذا.

ومعنى هذا أن العملية الكلامية تتم في شكلها الأساسي عن طريق التحكم في هواء الزفير الصاعد من الرئتين. ولا نعلم لغة تعتمد على هواء الشهيق في إنتاج الصوت، وإن أمكن أن تُنتج أصوات خلال عملية الشهيق أيضاً، ولكن هذا إن حدث يكون استثناءً فقط. ومثل هذه الأصوات تُسمع بين الأطفال وتقع عند الكبار في حالة النشيج أو الانتحاب.

وتختلف العملية الكلامية عن التنفس العادي في أن الثاني يتم بصورة صامتة في العادة لتحريك تيار الهواء دون عوائق، أما العملية النطقية فلا يمر الهواء معها حراً طليقاً -كما يحدث في حالة التنفس - وإنما يصادف الهواء في اندفاعه إلى الخارج أنواعاً من الضغط والكبح والتعويق. والهواء حين يكبح يولد صوتاً، وأوضح أمثلة على ذلك تشغيل الآلات الموسيقية الهوائية وحركة الريح بين الأشجار.

وكل نقطة على طول مجرى الهواء من الحنجرة حتى فتحة الفم أو الأنف يمكن التحكم في الهواء عندها فتكون مخرجاً للصوت أو نقطة إنتاج له. ورغم أن هذه النقاط غير محدودة وبالتالي فإن عدد الأصوات الممكن نطقه غير محدود كذلك فقد لوحظ أن

كل لغة تختار لنفسها عدداً معيناً من هذه النقاط يمتد على طول مناطق متباعدة حتى يسهل على الأذن العادية التعرف عليها.

وأهم النقاط التي يتم التحكم عندها هي:

* المنطقة المحصورة بين الشفتين؛ وتنتج أصواتاً مثل الباء والميم.

* المنطقة المحصورة بين الشفة السفلى والأسنان العليا؛ وتنتج صوتاً مثل الفاء.

* المنطقة المحصورة بين طرف اللسان والأسنان العليا؛ وتنتج أصواتاً مثل الظاء والذال والطاء.

* المنطقة المحصورة بين طرف اللسان واللثة؛ وتنتج أصواتاً مثل النون واللام والراء.

* المنطقة المحصورة بين جزء من اللسان وجزء من سقف الحلق؛ وتنتج أصواتاً مثل الجيم والكاف والحاء والغين .

* المنطقة المحصورة بين الحائطين الخلفي والأمامي للحلق أو بعبارة أخرى بين جذر اللسان ومؤخر الفم؛ وتنتج العين والحاء.

* المنطقة المحصورة بين الوترين الصوتيين في الحنجرة؛ وتنتج الهاء والهمزة.

وتتعدد طرق التحكم في الهواء الصاعد بين الغلق التام ثم الفتح فيحدث انفجار

(ب) أو التضييق فيحدث احتكاك (س) أو القفل في مكان والفتح في مكان آخر (ل-ن)

أو القفل المتكرر (ر)

كما أن هناك تجاوزات متعددة في جهاز النطق تقوم بدور حجر الرنين لتضخيم

الصوت أو ترفيقه وأشهر هذه التجاوزات: تجويف الحلق، وتجويف الفم، وتجويف الأنف،

وتجويف رابع يمكن تكوينه عن طريق إبراز وإدارة الشفتين. ويتميز تجويف الفم بأنه قابل

للتشكل والتحكم توسيعاً وتضييقاً بحركة الفك الأسفل وحركة اللسان بخلاف تجويف

الأنف الذي له شكل وحجم ثابتان ولذا فتأثيره كحجرة رنين تأثير ثابت.

وتسمية الأعضاء السابق ذكرها بأعضاء النطق أو الكلام تسمية مجازية لأن هذه الأعضاء في الحقيقة تقوم بوظيفة أساسية لحفظ حياة الإنسان؛ فالرئتان تنقلان الأوكسجين إلى الدم. والأوتار الصوتية تساعد على منع الأجسام الغريبة التي ترفضها الرئتان من الدخول إلى مجرى الهواء الواصل للرئتين. واللسان يدفع الطعام دائريا داخل الفم حتى يمكن طحنه طحناً جيداً ثم يحوِّله إلى شكل معين من أجل البلع. والشفتان صمامٌ لحفظ الطعام من الانتشار أثناء المضغ وتستعملان كذلك في المص والبصق. والأسنان والأضراس تستعملان لتقطيع الطعام ومضغه. والتجويف الأنفي حجرة لتكثيف الهواء قبل هبوطه إلى الرئتين.. ولكن الضرورة الاجتماعية بالإضافة إلى الذكاء الإنساني خلقاً وظيفة ثانوية لهذا الجهاز الحيوي وهي وظيفة النطق اللغوي.

فتبارك الله أحسن الخالقين.

لغة الحيوان

ليس الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي وهبه الله القدرة على التفاهم ومنحه وسيلة الاتصال ببني جنسه، وإنما يشركه في ذلك سائر الكائنات الحية من حيوانات وحشرات وطيور. وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى هذه الحقيقة فقال: "قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم"، وقال عن سيدنا سليمان: "يأيها الناس علمنا منطق الطير"، وقال عن الهدهد في خطابه لسيدنا سليمان "أحطت بما لم تحط به وجنتك من سبأ بنبأ يقين".

وتتخذ الكائنات الحية غير البشرية وسائل متنوعة للتفاهم لأهمها الوسائل الثلاث الآتية:

الوسيلة الأولى: التفاهم عن طريق الأصوات. وتتفاوت الحيوانات في ذلك تفاوتاً كبيراً. فالثدييات منها تملك جهازاً متطوراً للصوت يتمثل في الحنجرة التي تماثل حنجرة الإنسان في تركيبها ووظيفتها. ولكنها لا تنطق مثل الإنسان لأن جهازها العصبي خال من مراكز الكلام والمعلومات والذاكرة، مع النقص الكبير في نمو فصوص المخ الأمامية والجانبية، وما يتبع ذلك من عدم القدرة على التخيل والتفكير والابتكار. وكل ما تستطيع أن تفعله إخراج النداءات الصوتية بطريقة معينة متكررة تحمل نفس النغمة والتردد والدرجة الصوتية مثل نباح الكلب، وعواء القط، ونهيق الحمار، وخوار الثور، وصهيل الفرس، وزئير الأسد.

وتملك الطيور أجهزة صوتية أكثر نمواً وتقدماً، كما أنها تتفوق في قدرتها على التحكم في أصواتها وتحويلها وتغييرها، وبخاصة الطيور الناطقة التي تستطيع أن تقلد أصوات الإنسان والحيوان مثل البغاء. ويتكون جهاز الصوت عند الطيور من حنجرة عظمية صغيرة اسمها "المصفار" تقع في أسفل القصبة الهوائية قبل تفرعها إلى شعبتين هوائيتين. ويوجد داخل حجرة "المصفار" غشاء رقيق يمتد في وسطها وغشاءان أقل

حجما على جانبيها. وهذه الأغشية الثلاثة تهتز مع دخول الهواء إلى الجهاز التنفسي وبفعل العضلات، فيصدر منها أصوات مختلفة. ومعنى هذا أن أصوات الطيور تنشأ عند دخول الهواء إلى الرئتين، أي أثناء الشهيق، وهي بهذا تختلف عن سائر الحيوانات التي تملك حنجرة للصوت، فهي تخرج أصواتها مع هواء الزفير.

وتصدر عن عديد من الأسماك أصوات تعتبر بمثابة لغة تتفاهم بها. فالأسماك ليست خرساء كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكننا لا نسمع أصواتها إلا إذا غصنا تحت الماء. وقد تمكن العلماء من التقاط هذه الأصوات عن طريق مكبرات للصوت.

وقد عوض الله الحفاش عن ضعف بصره وميله إلى الطيران ليلا بأن منحه "رادارا صوتيا" يمكنه من الطيران بسرعة كبيرة واصطياد الحشرات في الظلام الدامس بكل دقة. إنه يصدر بغمه صوتا رفيعا متقطعا عالي التردد يجاوز المدى الذي تستطيع أذن الإنسان سماعه. وهو يصدر هذا الصوت في جميع الاتجاهات على شكل موجات صوتية تسير في خط مستقيم حتى إذا اصطدمت بأي جسم مهما كان صغيرا فإنها ترتد ثانية منعكسة على نفسها فتستقبلها أذن الحفاش الرادارية فتعرف موقع الجسم ومكانه وحتى حجمه وشكله.

ولا تصدر كل الأصوات الحيوانية عن الفم فمنها ما يصدر عن طريق الاهتزاز المنتظم المستمر للأجنحة أثناء الطيران، كما في الذباب والبعوض والنحل، أو عن طريق احتكاك جزء من الحشرة بجزء آخر مثل احتكاك الأجنحة الأمامية بالخلفية، أو الأرجل بالأجنحة، أو الأجنحة بالجسم، كما في الجراد والقنفذ. وبعض الحنافس، أو عن طريق قرع الرأس على أي جسم صلب خارجي بطريقة مستمرة متتالية، كما هو الشأن في النمل الأبيض وبعض الحنافس.

أما وسيلة التفاهم الثانية التي تلي الأصوات في الأهمية فهي إصدار الحركات والإشارات المعينة. ومن ذلك تحريك الذيل في كل اتجاه عند ثعبان الكوبرا. وحركات الطيور؛ المعينة، وأهمها حركات النحل ورقصاته التي يؤديها بصور مختلفة. فقد تكون الرقصات دائرية متلاحقة، وقد تكون دائرية بطيئة، وقد تكون مستقيمة، وقد تكون

اهتزازية.. وهي في كل حالة تعبر عن معنى مختلف كالإشارة إلى وجود الطعام، أو بيان اتجاهه، أو تحديد المسافة اللازمة للوصول إليه. وقد تعني الرقصة أشياء أخرى مثل: "تعال هنا"، أو "اهرب من هنا"، أو "النجدة إننا في خطر". بل قد تعني ما هو أدق من هذا مثل: "طر في خط مستقيم بأحرف عشرين درجة على يسار الشمس، وعلى بعد مئتي متر فستجد مساحة من أزهار البرتقال".

ووسيلة التفاهم الثالثة لدى الحيوان تعتمد على حاستي الشم والبصر؛ إما عن طريق استقبال روائح معينة، أو تفسير إشارات ضوئية خاصة. وتختص بالطريقة الأخيرة الحيوانات التي تنشط ليلاً حيث تصدر وتستقبل الإشارات الضوئية ذات التردد المعين كما هو الحال في بعض الحشرات المضيئة. هذه الإشارات ذات دلالات مختلفة يفهمها أفراد النوع نفسه، وتختلف في ومضاتها ودلالاتها من نوع إلى آخر. وقد يتساءل الآن متسائل: إذا كان للحيوان لغة يتفاهم بها كما للإنسان، فلماذا اختص الإنسان بوصف النطق من بين جميع الحيوانات فقيل في تعريفه إنه "حيوان ناطق"؟

والإجابة تتمثل في الفروق الكثيرة التي تميز لغة الحيوان عن لغة الإنسان. فلغة الحيوان لغة طبيعية يولد بها ولا تعد مكتسبة كلغة الإنسان، وهي لغة تقوم على الحركات والإشارات الموجهة إلى العين أكثر مما تقوم على الأصوات الموجهة للأذن. وحين تستخدم فيها الأصوات فلا تخرج عن كونها مجرد تعبير عن انفعال. كما أن لغة الحيوان دائماً هي لا تتطور من عصر إلى عصر ولا تختلف من بلد إلى بلد. وإذا كانت بعض الحيوانات - كالبيغاوات - تملك القدرة على النطق ببعض الكلمات، فليس هناك ما يدل على فهمها لما تقول، أو أنها تفكر مثلنا قبل أن تنطق، أو أنها تستعمل هذه الكلمات عندما يتحدث بعضها إلى بعض.

وهناك على الجانب الآخر مميزات تختص بها لغة الإنسان منها أنها اللغة الوحيدة القادرة على نقل مختلف المشاعر وتصويرها، والقادرة على تدوين العلوم والفنون والآداب بما تحويه من خيال وإبداع، فيصنع الإنسان بذلك تراثا يميزه عن الحيوان، وهو ما نطلق عليه لفظ "الثقافة". فكما أن الإنسان حيوان ذو تاريخ، كما يحلو لبعضهم أن يعرفه، فهو أيضا حيوان ذو ثقافة.

ومن هذه المميزات كذلك أنها لغة كلامية تعتمد على الكلمات التي لا تقف عند كونها مجرد أصوات يصدرها فم الإنسان، ولكنها تتجاوز ذلك لتصبح نظاما صوتيا مركبا يشترك في إنتاجه جهاز النطق البشري بالنسبة للمتكلم، وجهاز السمع بالنسبة للسامع، وتسبقه وتصاحبه وتعقبه عمليات عقلية كثيرة لا تتوفر في أي لغة من لغات الحيوانات.

وميزة أخيرة للغة الإنسانية نشير إليها وهي أنها في استعمالها العادي لغة تجديدية، بمعنى أن جزءاً كبيراً مما نقوله حين نستعمل اللغة هو جديد تماماً وليس تكراراً لما سمعناه من قبل. ولهذا قيل إن الاستعمال اللغوي إبداعي أو خلاق لأنه يعني القدرة على فهم جمل ونطق جمل لم تسمع من قبل.

فمن أجل هذا التميز الواضح للغة الإنسان وتفوقها على سائر لغات الحيوانات، ولمرونة هذه اللغة وقابليتها للتركب والتصور، ولقدرتها على التعبير عن جميع الأفكار اعتبرت المميز الحقيقي الذي يفرق بين الإنسان والحيوان.

وصدق الله العظيم إذ يقول: " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً".

من أول من وضع النقاط على الحروف؟ وكيف؟

النُّقْطُ نقطان: نقطُ الإعجام ونقط الشكل. أما نقطُ الإعجام فقد استخدم بقصد التمييز بين الأحرف المتشابهة في الكتابة مثل الباء والتاء والياء ومثل السين والشين ومثل العين والغين وغير ذلك. وسمى نقطُ الإعجام لأن العُجْمَةَ تعني في لغة العرب الغموض والإبهام. والإعجامُ هو إزالة هذا الغموض. فلما كان هذا النوع من النُّقْط يُزيل الاشتباه والالتباس بين الأحرف سُمي إعجاماً.

وأما نَقْطُ الشكل فهو النقط الذي استخدم في فترة ما من تاريخ اللغة العربية لتمثيل الضمة والكسرة والفتحة أو ما يُعرف الآن باسم الحركات أو العلل القصيرة. ولكل نوع من هذين النوعين تاريخٌ مستقلٌ عن الآخر ولذا سنتناول كلا على حدة .

ونبدأ بنقط الإعجام فنقول إن كلَّ النقوش الجاهلية التي عُثر عليها كانت خاليةً من نقط الإعجام خلُواً كاملاً. وجاءت رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والحُكَّام بدون نَقْط كذلك. وقد عُثر على ما يُظنُّ أنه الأصول الحقيقية لرسائله إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وإلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وغيرهما، وجاءت جميعها بدون نقط. وحينما كُتب مصحفُ عثمان كُتب خالياً من النُّقْطِ مما أوقع بعضَ العوامِّ من القارئ في الخطأ. فقد سُمع أحد العوام يقرأ: ذلك الكتاب لا زُبَّت فيه بدلا من: لا ريب فيه. وسُمع بعضهم يقرأ: جعل السفينة في رجل أخيه بدلا من جعل السقاية في رَحْل أخيه. وقرأ بعضهم: وما عَلَّمْتُم من الحوارج مُكَلِّبين بدلا: من الجوارح مكليين.

لم ينج من التصحيف في القرآن كبار اللغويين. فهذا حمادُ الراوية يشي به بشارُ ابن بردٍ إلى أمير البصرة قائلاً: إنه يَرُوي جُلَّ أشعار العرب ولا يُحسنُ من القرآن غيرَ أَمِّ الكتاب. فيسأله الأميرُ أن يقرأ في المصحف فيصحفُ في عدة آيات منها: وأوحى ربك إلى النَّخْلِ أن اتخذي من الجبال بيوتا بدلا من: وأوحى ربك إلى النحل..

ومن تصحيفات المحدثين ما رواه بعضهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَحِبُّ العسل في يوم الجمعة، وإنما كان يستحب العُسل فيه.

لكن عشر على بَرْدِيَّةٍ يرجع تاريخها إلى عام ٢٢ على عهد عمر بن الخطاب وهي مكتوبة باللغتين العربية واليونانية وقد تقطت فيها حروفُ الحاء والذال والزاي والشين والنون. كما عُثِرَ على نقش بقرب الطائف يرجع تاريخه إلى عام ثمانية وخمسين في عهد معاوية تقطت فيه أكثرُ حروفه التي تحتاج إلى نقط. كما أن هناك إشاراتٍ في المراجع العربية تدل على وجود النقط في الجاهلية. ومن ذلك:

أولاً: ما روي عن ابن مسعود وهو قوله: جَرَدُوا القرآن. قال الزخشي: أي من النَّقْطِ والفَوَاتِحِ والعُشُورِ.

ثانياً: ما يرجحه القلقشندي في صبح الأعشى من أن الإعجام وضع مع وضع الحروف. وهذا الرأي الأخير هو الأكثر قبولاً في نظري إذ يَبْعُدُ أن تكون الحروف المتشابهة قد وُضِعَتْ أول أمرها على هذا اللبس. ومع هذا فقد كان العربُ الحُلُصُ، يعتبرون نَقَطَ الكِتَابِ سَوْءَ ظَنٍّ بالمكتوب إليه. ولذا كانوا يُجَرِّدُونَ كُتُبَهُمْ من النقط. وفي ذَمِّ النَّقْطِ يقول أبو نواسٍ في كاتبٍ نَقَطَ كتاباً أرسله إليه وشكَّله:

لم تَرَضَ بالإعجام حين كَتَبْتَهُ	حتى شَكَلْتَهُ عليه بالإعراب
أحسست سوء الفهم حين فعلته	أم لم تثق بي في قِراءة كتاب
لو كنت قَطَعْتَ الحروفَ ففهمتها	من غير وصلِكهنَّ بالأنساب

ولكن حين اختلط العربُ بالأعاجم وكَثُرَ التصحيفُ في القرآن والحديث النبوي والشعر العربي وجدت الحاجة المُلِحَّةُ إلى انتزاعِ النَّقْطِ في الكتابة. وتَحَمَّسَ لذلك الحجاجُ ابنُ يوسفَ الثقفِيَّ وكَلَّفَ كُلاً من نصر بن عاصمٍ ويحيى بن يَعْمُرَ بوضع ضوابطٍ دقيقةٍ للإعجام، وكان ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان في الثلث الأخير من القرن الأول الهجري، فالترزم النَّقْطُ، بعد ذلك وأعيد ترتيبُ الأحرف بوضع الثلاثياتِ أَوَّلًا (ب ت ث) و (ج ح خ) ثم الثنائيات (د ذ - ز ز - س ش - ص ض ..) ثم المفردات (ك ل م

ن ه و ..) وروعي في التَّقْطِ أن يكونَ أفراداً وأزواجاً وأثلاثاً. كما روعيتِ المخالفةُ بين أماكنِ التَّقْطِ بتوقيع بعضها فوقَ الحروفِ وبعضها تحتَ الحروفِ. وقد عَصَمَ هذا التَّقْطُ القارئَ من الخطأِ في تمييزِ الحرفِ. فلو كتبت كلمةً مثل "بنت" بدونِ نقطٍ لاحتملت أن تكون: بنت - بيت - نبت - ثبُت - ثيب - تبت - نيب.. إلخ

أما تقطُ الشُّكْلُ فهو بكل تأكيد حادثٌ بعد الإسلام، ولم يرد في أي وثيقة أو برُدِيَّة قبل أبي الأسود الدؤلي الذي يُنسب إليه الرمزُ إلى الضمة بنقطة (من مدادٍ يخالف مدادَ الكتابة) وتوضَعُ بينَ يدي الحرفِ، وإلى الفتحة بنقطة فوق الحرفِ، وإلى الكسرة بنقطة تحت الحرفِ. ومن المعروف أن هذه النقاطُ لم يبتدعها أبو الأسود ابتداءً، وإنما أخذها عن السريانِ وبالتحديد عن النساطرة .

وبمرور الوقتِ وصعوبة حصولِ الكاتبِ على مدادينِ مختلفين أثناء الكتابة يَكْتُبُ بأحدهما الكلماتِ، ونقاطَ الإعجامِ، وبالأخرى نقاطَ الشكلِ، ولاضطراره أحياناً إلى كتابة الاثنين بمداد واحد، مما كان يُوقع في لبسٍ، فَكَّرَ الخليلُ بن أحمد المتوفى عام ١٧٥هـ هجرية في الاستعاضة عن تقطُ الشكلِ برموزٍ أخرى هي تلك الرموز التي نستعملها الآن، فرمَزَ للفتحة بجرّة علوية وللکسرة بجرّة سفلية وللضمة برأس واو وللکون بدائرة أو برأس جيم بلا نقط، وللشدة برأس شين بغير نقط وللهمزة برأس عين، ولألف الوصل برأس صاد. وبهذا صار من الممكن أن يجمع الكاتب بين شكل الكتاب وتقطه بلون واحد ومداد واحد دون لبس.

من واضع علم النحو والصرف؟ وكيف تم ذلك؟

لم يُؤثر عن العرب أي نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام ولهذا فهم متأخرون زمنياً عن كثير من الأمم التي عُرفت لها دراسات لغوية مبكرة مثل الهنود واليونانيين والمصريين القدماء والصينيين والسريانيين.

ولم يكن البحث اللغوي عند العرب من الدراسات المبكرة التي خفوا لها سراعاً لأنهم وجهوا اهتمامهم أولاً إلى العلوم الشرعية والإسلامية. وحين فرغوا منها أو كادوا، اتجهوا إلى العلوم الأخرى. وما وجد من تأملات أو ملاحظات نحوية أو لغوية في القرن الأول الهجري لم يقصد لذاته وإنما لأنه خادم للنص القرآني. ومن ذلك محاولة أبي الأسود الدؤلي لضبط المصحف بالشكل (توفي أبو الأسود عام تسعة وستين للهجرة) وذلك حين استحضر كاتباً وأمره أن يتناول المصحف وأن يأخذ صبغاً يخالف لون المداد فيضع نقطة فوق الحرف إذا رآه يفتح شفتيه وهذا هو رمز (الفتحة) ويضع نقطة تحت الحرف إذا رآه قد خفض شفتيه وهذا رمز (الكسرة) ويضع نقطة بين يدي الحرف إذا رآه يضم شفتيه وهذا رمز (الضمة) أما إذا أتبع الحرف الأخير غنةً فيضع نقطتين فوق بعضهما، وأما الحرف الساكن فقد تركه.

ومن المعقول أن يكون جمع اللغة قد سبق الدرس النحوي، لأنه لا يمكن القيام بالأخير بدون مادةٍ توضع تحت تصرف النحوي وبعبارة أخرى لأن تأليف النحو أو تقعيد القواعد ما هو إلا فحص لمادة لغوية تم جمعها بالفعل ومحاولة لتصنيفها واستنباط الأسس والنظريات التي تحكمها. وأفضل ما يعبر عن ذلك ما جاء في المزهري للسيوطي، وهو قوله "اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه. ومثالهما المحدث والفقهاء فشأن المحدث نقل الحديث برؤيته، ثم إن الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه ويبسط فيه علله ويقيس عليه الأشباه والأمثال".

أما كيف نشأ النحو العربي؟ ومن أول من ألف فيه؟ وما الصورة الأولى التي ظهر فيها هذا النحو قبل أن يتضح على يد الخليل وسيبويه فهي أسئلة ما نظن أن في أيدي أحد الإجابة عنها أو الرد عليها بحسم. وأغلب الظن أنها ستظل معلقة حتى نعثر على مادة جديدة تكشف عن بداية النحو العربي، وتلقي الضوء على أولياته وتضع حدا للإرهاصات والتنبؤات التي تحيط بنشأته. ومن المادة المبكرة المفقودة في النحو العربي:

أولاً: الصحيفة المنسوبة إلى علي بن أبي طالب أو لأبي الأسود الدؤلي.

ثانياً: الزيادات التي زادها ميمون الأقرن، على أستاذه أبي الأسود.

ثالثاً: كتاب نصر بن عاصم (توفي عام ٩٤٠ هـ أو تسعين هجرية) وهو الكتاب الذي ألفه في النحو.

رابعاً: كتابا "الإكمال" و "الجامع" لعيسى بن عمر الثقفي المتوفى عام ١٠٠٠ هـ وتسعة وأربعين.

ومع هذا فنحن نقدم للسائل أهم الأقوال التي تحدثت عن نشأة النحو العربي.

فمن ذلك رأي ابن فارس أن النحو العربي قديم بقدم هذه العربية ومُنزَلُ كتنزيلها، وأنه كان معروفا ومدروسا من قديم ثم تنوسيت قواعده وأتت عليها الأيام حتى جاء النحاة فأحيوا ما اندثر منه.

ومن ذلك ما يقوله ابن النديم في الفهرست من أنه رأى بنفسه أربعة أوراق قديمة كُتِبَ عليها: هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي.

ومن ذلك ما يقوله ابن النديم كذلك من أن علي بن أبي طالب هو أول من وضع النحو. وبعضهم يوفق بين الرأيين مثل ابن الأنباري فيقول: إن علي بن أبي طالب رفع إلى أبي الأسود الدؤلي نصاً جاء فيه: "الكلام كله اسم وفعل وحرف. فالاسم ما

أنبا عن المسمى. والفعل ما أنبئ به. والحرف ما أفاد معنى. واعلم أن الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر". ثم يمضي ابن الأنباري قائلا: "ثم وَضَعَ أَبُو الأسود بَابِي العطفِ والنعتِ ثم بابي التعجبِ والاستفهامِ إلى أن وصل إلى بابِ إِنَّ وأخواتها ما خلا "لكن" فلما عرضها على علي أمره بضمّ "لكن" إليها. وكلما وضع بابا من أبواب النحو عرضه عليه".

ويختلف من قالوا إن أبا الأسود هو واضعُ النحو في الباعث له على ذلك. فيقول بعضهم إن عليّ بن أبي طالب هو الذي أوعز إليه بوضع النحو، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب ومن قائل إنه زيادُ بن أبيه ومن قائل إن أبا الأسود اتجه بنفسه إلى وضع النحو حينما سمع قارئاً يقرأ: لا يأكله إلا الحاططين (بدلا من: لا يأكله إلا الحاطثون) أو قارئاً يقرأ: "إن الله برىء من المشركين ورسوله" (بدلا من: ورسوله) وقيل: إن السبب أن ابنته قالت له: ما أحسنُ السماءِ تريد التعجب ولكن فهم الاستفهام فقال لها: نجومها. فقالت له: يا أبت إنما أخبرك ولم أسألك فقال لها: إذن فقولي: ما أحسنُ السماءَ.

ويتبين من هذا أن السببَ الأساسي في وضع النحو - مهما كان واضعه - هو ما فشا من لحنٍ عقبَ الفتوحات الإسلامية وامتدادِ آفاقِ اللغة العربية إلى مجالات لم تُتَح لها من قبل وفسادِ الألسنة حتى بالنسبة للعرب أنفسهم نتيجة اختلاطهم بالأجانب. ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما روي عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه سأل يحيى بن يعمر: أتراني أَلْحَنُ على المنبر فقال يحيى خوفا من سطوة الحجاج: الأميرُ أفصح إلا أنه لم يكن يروي الشعر. فكرر الحجاج سؤاله فقال يحيى: نعم في آي القرآن. فقال الحجاج: فذاك أشنع. وما هو؟ قال يحيى: تقول: "قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم... أحبُّ إليكم من الله ورسوله.." وصحتها أحبُّ. فقال له الحجاج: والله لن تسمعني أَلْحَنُ بعد ذلك ونفاه إلى خراسان. ومن هذا ما روي عن عمر بن عبد العزيز أنه لَحَنَ لَحْنَةً فَنَبَهُ إليها فحبس نفسه في منزله ومعه من يعلمه العربية ولم يخرج

على الملا إلا وهو أفصح الناس. ويُروى كذلك أن عبدَ الملكِ بن مروان حين سئل: لماذا عَجِلَ الشَّيْبُ إلى رأسك يا أميرَ المؤمنين، قال: شيبتني مواقفُ الخطابة وتوقعُ اللحن.

وتمضي الأيام والسنوات بعد علي وأبي الأسود حتى يأتي الخليلُ بنُ أحمد (من عام ١٠٠ إلى عام مائة وخمسة وسبعين هجرية) وتلميذهُ سيبويه، الذي يُعدُّ إمامَ النحاة بلا منازع. وقد جمع في مؤلفه المسمى "الكتاب" مباحثَ النحو والصرف بصورة كاملة أو شبه كاملة حتى أطلقوا عليه "قرآنَ النحو" وحتى قال أبو عثمانَ المازنيُّ (المتوفى عام تسعة وأربعين أو ستة وثلاثين ومائتين): من أراد أن يعملَ كتابا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي.

أما أولُ من ألف في الصرف تأليفاً مستقلاً فيقال هو مُعَاذُ بنُ مسلمَ الهراء الكوفي المتوفى عام سبعة وثمانين ومائة ويقال هو أبو عثمانَ المازني في منتصف القرن الثالث الهجري ويقال هو أبو الحسن الأخفش أستاذ المازني والله أعلم.

ما اسم أول معجم ظهر في اللغة العربية؟

ومن مؤلفه؟ وكيف رتبته؟

أول معجم شامل ظهر في اللغة العربية هو معجم "العين" للخليل بن أحمد المتوفى عام خمسة وسبعين ومائة هجرية. وسماه الخليل "العين" لأنه بدأه بحرف العين. ذلك أن الخليل بن أحمد لم يرض أن يتبع الترتيب الهجائي العادي - رغم سهولته - وأتبع ما يُعرف بالترتيب الصوتي الذي يبدأ بأعمق الأصوات مخرجاً ثم يتدرج حتى يصل إلى أصوات الشفتين. وقد وجد الخليل بحسه الدقيق أن الهمزة رغم أنها أعمق الأصوات إلا أنها لا تستقر على حال في لغة العرب فمنهم من يسهلها ومنهم من يحذفها ومنهم من يقبلها حرفاً آخر ولهذا كره أن يبدأ بها المعجم. ووجد أن الهاء أخت الهمزة في العمق ولكنه وجدها صوتاً خفياً لا يظهر إلا بمشقة ويكاد يختفي عند الوقف ولذا تركه هو أيضاً وبدأ بصوت العين الذي يلي الهاء والهمزة في المخرج لأن العين أوضح وأنصح في السمع.

وقد واجهت الخليل حين فكر في صنع معجمه مشكلتان هما مشكلة جمع المادة ومشكلة ترتيبها. وقد هدته عبقريته إلى نظام فريد يجمع به مادته وهو نظام الإحصاء الرياضي. وخلاصة ما فعله أنه وجد الكلمات في اللغة العربية إما على حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ووجد عدد أحرف الهجاء ثمانية وعشرين فقام بعملية "توافق" أو بناء كلمات نظرية عن طريق أخذ كل نوع من الأنواع السابقة وهي الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وتجربة جميع حروف الهجاء معه. فالثنائي مثلاً يمكن حصر كلماته عن طريق تثبيت الحرف الأول على الهمزة وتكوين كلمات من الهمزة وحرف ثانٍ مستوعب جميع الأحرف الهجائية. وينتقل إلى الباء فيثبتها كأول ويجرب معها باقي الأحرف الهجائية كثنان. ويفعل هذا مع التاء والثاء وهكذا حتى يستوعب جميع أحرف الهجاء. ويمكن تطبيق نفس الفكرة - ولكن بصورة أكثر تعقيداً - مع كل من الثلاثي

والرباعي والحماسي. وهذه الفكرة تعرف الآن باسم "التوافيق". وضم الخليل إلى نظرية التوافيق نظرية أخرى هي "التباديل" حين أخذ يقلب كل كلمة ناتجة عن التوافيق على أوجهها الممكنة بعد تبديل مواقعها في الكلمة. وتطبيق نظرية التباديل ينتج عن كل ثنائي صورتين وعن كل ثلاثي ست صور وعن كل رباعي أربعاً وعشرين صورة وعن كل خماسي مائة وعشرين صورة. ولتوضيح ذلك أضرب المثالين الآتين من الثنائي والثلاثي. فكلمة مثل شدّ يمكن أن تتحول إلى دسّ عن طريق التباديل. وكلمة مثل "عقل" يمكن بالتقلبات أن يتولد عنها: علق - قعل - قلع - لعق وغيرها. ولا يلزم أن تكون كل التقلبات النظرية للكلمة مستعملة في اللغة فأحياناً تستعمل اللغة بعض التقلبات وتهمل بعضها الآخر. ومن ذلك خنّع التي لم يرد لها في معجم العين إلا تقلب واحد هو نخع. بل إن بعض الكلمات لم يرد له أي تقلبات مثل كلمة خدّع التي لم يرد لها في معجم العين إلا صورة واحدة. وبعض الكلمات مهملة غير مستعمل مثل تجمع الثلاثي ع ق ج فلم يرد منه كلمة واحدة في معجم العين.

وهكذا استطاع الخليل عن طريق تطبيقه لنظريتي التوافيق والتباديل حصر كلمات اللغة حصراً نظرياً. ولكن اللغة العربية لا تستخدم كل الإمكانيات النظرية لتجمعات الحروف، ولذلك كان لابد للخليل بعد الإحصاء النظري أن يميز بين المستعمل والمهمل من هذه الصور النظرية وقد فعل ذلك، مستفيداً من شيئين:

أولاً: من ثقافته اللغوية الحسنة ومعرفة بلغة العرب وعمروياتها من الشعر والأدب.

وثانياً: من خبرته الصوتية الباهرة ومعرفة بالتجمعات الصوتية المسموح بها وغير المسموح بها في اللغة العربية.

وبذا حُكِّم القوانين الصوتية إلى جانب تحكيمه للمادة اللغوية المسجلة.

وقد استطاع الخليل بطريقة الإحصاء الرياضي أن يجمع مادة معجمه في زمن قياسي، ولو أنه أتبع طريقة الاستقراء والسماع من الأعراب والذهاب إلى البادية من أجل المشاهدة كما كان يفعل غيره من اللغويين لأفرغ عمره دون أن يجمع عشر معشار ما وضعه في معجمه، ولما قدر لهذا المعجم أن يظهر في هذا الوقت المبكر من تاريخ اللغة

العربية وفي وقت قصير لا يتجاوز بضع سنوات كما يحكي تلميذه الليثُ بنُ المظفر الذي يقول إن الخليل بن أحمد بعد أن ورد عليه خُراسانُ فَاتَّحَهُ في فكرة المعجم التي كان من الصعب على العقل العادي إدراكها إلى أن يقول الليثُ " فجعلتُ أستفهمه ويصفُ لي، ولا أقفُ على ما يصفُ فاختلفتُ إليه في هذا المعنى أياما ثم اعتلُّ وحججت. فرجعت من الحجِّ فإذا هو قد أَلَفَ الحروفَ كلها على ما في صدر هذا الكتاب".

ويعد أن تغلب الخليل على مشكلة جمع المادة واجهته مشكلة ترتيبها - حيث لم يكن أمامه نموذجٌ يحتذيهِ في ذلك. وقد هداه تفكيره إلى اتباع الخطوات الآتية:

أولا: اتخاذه الترتيب الصوتي أساسا لمعجمه. وهذا الترتيب الصوتي يبدأ بالعين ثم الحاء ثم الهاء ثم الخاء ثم الغين.. حتى يصل إلى حروفِ الشفتين وهي الفاءُ والباءُ والميم وحروفِ العلة وهي الألفُ والواوُ والياء.

ثانيا: تقسيم كل حرفٍ من أحرف المعجم إلى أقسام ستة حسب حَجْم الكلمة ونوع حروفها وهذه الأقسام هي :

الثنائي	الثلاثي الصحيح	الثلاثي المعتل	اللفيف	الرباعي	الخماسي
مثل مدّ	مثل سمع	مثل قال	مثل وشى	مثل دحرج	مثل زبرجد

ثالثا: تقليب كل كلمة في المعجم على جميع أوجهها الممكنة.

كيف نميز بين أصوات أصدقائنا في التلفون؟

يتضمن الصوتُ الإنسانيُّ عناصرَ ثلاثة هي:

أولاً: وجودُ جسمٍ في حالة تذبذبٍ أو حركةٍ يسمى مصدرَ الصوت.

ثانياً: وجودُ وسطٍ تنتقل فيه الذبذبة الصادرة عن الجسم المتذبذب.

ثالثاً: وجودُ جسمٍ يستقبل هذه الذبذبات.

ومصدرُ الصوت عند الإنسان هو أعضاء النطق، ولا سيما الوترين الصوتيين، هذه الأعضاء التي تتحرك في اتجاهات مختلفة وبأشكال متعددة وتنتج أصواتاً تسبب تنوعات في ضغط الهواء.

ومن المعروف أن درجة الصوت ترتبط بعدد الذبذبات في الثانية. فكلما زاد عدد الذبذبات كان الصوت دقيقاً أو حاداً وكلما قل عددُ الذبذبات كان الصوت سميكاً أو خشناً. ويطلق العلماء على عدد الذبذبات في الثانية اسمَ "التردد". وكل جسم متذبذب له تردده الخاص الذي تتحكم فيه مجموعة من العوامل المتعلقة بالجسم المتذبذب مثل الوزن والطول وبالنسبة للأوتار نسبة الشدِّ وبالنسبة للتجاويف الكتلة والشكل والامتداد. فالجسم الثقيل يتذبذب بصورة أبطأ من الجسم الخفيف والشوكة الرنانة ذات الذراعين الطويلين تتذبذب أبطأ من الشوكة الرنانة ذات الذراعين القصيرين. والوتر الطويل يتذبذب أبطأ من الوتر القصير، والوتر الغليظ يتردد بنسبة أقل من نظيره الرفيع. ويمكن زيادة أو نقص التردد بالنسبة للوتر عن طريق تغيير شده.

أما تمييزُ الأصواتِ المألوفة دون رؤية أصحابها فيرجعُ إلى أن لكل صوت إنساني بصماتِهِ المميزة التي قلما تلتبس ببصمات صوت آخر. وفي علم اللغة الحديث يوجد مصطلح اسمه "التعرف اللغوي". والهدف منه في معظمه هدفٌ عملي وهو القدرة على أن تدلُّ من أصواتِ لغةٍ منطوقة على نوع اللغة التي تواجهها. كما أن هناك أسلوباً فنياً للعمل يحمل شعار "من أين أنت". وهو أسلوبٌ يمكن عن طريقه تحديدُ المنطقة

اللغوية الصغيرة التي ينتمي إليها المتكلم والتي قد تصل إلى نصف قطر قدره عشرة أميال من مسقط رأسه، وذلك عن طريق خصائصه الكلامية المتميزة. وقد كتب ماريو باي العالم اللغوي الأمريكي المشهور مقالا بعنوان "ماذا قال" عالج فيه موضوع إمكانية التعرف على المجرم وتحديد منطقته عن طريق دراسة ملامحه الكلامية.

وكما يؤدي إلى التعرف اللغوي الخصائص النطقية، المكتسبة من المنطقة اللغوية

التي ينتمي إليها المتكلم فهناك مجموعة أخرى من العوامل منها:

أولاً: الخصائص النطقية المعينة الناتجة عن خاصية عضوية في المتكلم كأن يكون هناك تصلب أو ارتفاع في مؤخرة اللسان فينتج الصوت مغرغرا أي مشوباً بصوت الغين كما قد يكون هناك ابتعاد خلقي في الوترين الصوتيين مما يؤدي إلى خفوت ملازم للصوت. كما قد يكون هناك عاهة عضوية أو ضغط للسان أو انكماشه إلى الداخل بحيث يصبح عائقاً أمام خروج الصوت كله من الفم فيتسرب بعضه من الأنف ويوصف المتكلم بالحنف كما قد يتميز بعض الناس بانسياب أصواتهم مندفعة من الحنجرة نتيجة تصلب أعصاب الرقبة والحنجرة فيخرج الصوت فاقدًا لونه وتكيفه الذي تعطيه عادة الأوتار الصوتية في داخل الحنجرة. كما قد يصدر بعض الأصوات مرتعشاً نتيجة التنفس بطريقة خاطئة أو إجهاد الصوت بحمله على طبقة لا تلائم أو نتيجة الشيخوخة أو الضعف العصبي أو الخوف..

ثانياً: كذلك يؤدي إلى تمييز الأصوات اختلاف معدن الصوت. وقد قسم العلماء الصوت إلى معادن خمسة رئيسية تبدأ بالقرار وتنتهي بالسورانو، والأصوات التي من معدن واحد تشترك في الصفة العامة وتختلف في بعض الصفات الفرعية.

أما أفخم الأصوات وأخشنها فهو المسمى بالقرار وتحديثه أغلظ الأوتار الصوتية وقدرته كاملة على الدرجات السفلى في السم الموسيقي.

وأما أرقها هو السورانو وهو سريع حاد قادر على الدرجات العليا من السلم وبينهما درجات تجمع أصوات الحديث العادي بصوره المختلفة. وهناك ترمينات يؤديها

الممثلون والخطباء خاصةً ليكونوا قادرين على استخدام معادن الأصوات كلها وبصبح صوتهم لنا طبعاً مستجيباً لرغبات المتحدث. ثالثاً: ويؤدي إلى تمييز الأصوات أيضاً نوع الصوت وهو فرق يظهر بين نغمتين موسيقيتين ربما اتفقتا في درجة الصوت وفي العلو ولكنهما أنتجتا بالآتين مختلفتين مثل البيانو والكمان.

وتفسير ذلك أن كلتا الآلتين تُصدِرُ مجموعةً من النغماتِ واحدةً منها وهي الأساسية هي المسيطرة والأخرى هي المسماة بالتوافقيات تكون في وضع انسجام معها. وحيث إن الجسمَ الرنانَ يُقوِّي بعضاً من هذه التوافقيات أكثرَ من الأخرى فإن النغمة تتلقى خصائصَ تسمحُ للسامع أن يميز بين صوتٍ وآخر أو آلةٍ وأخرى. وبهذا يظهر أن نوع الصوت هو الأثر السمعِي الناتج عن عددِ الموجاتِ البسيطة التي تُكوِّنُ الموجةَ المركبة التي تحمل الصوت للأذن وتردد كل منها واتساعها.

وأخيراً نشير إلى اختلاف الفراغات الرنانة المضخمة للصوت وهي التي يمر خلالها الهواء بعد الحنجرة. ففراغ الحلق وفراغ القم والفراغ الأنفي كلها تستغل في تضخيم الصوت ومنحه صفته الخاصة به التي تميزه عن غيره من الأصوات فهي بمثابة تلك الصناديق المجوّفة التي تُشدُّ عليها أوتار الكمان أو العود لأن أصوات الحنجرة وحدها ضعيفة وهي تقوى بمرورها في تلك الفراغات الرنانة. واختلاف حجم هذه الفراغات عند الناس يجعل أصواتهم مختلفة متميزة. لأن حجم الفراغ وشكله يُكسب الصوت لونا خاصا يساعد على تمييز الأصوات.

بَصْمَةُ الصَّوْتِ وَبَصْمَةُ الإصْبَعِ

إنَّ كلامَ الشَّخْصِ يَنْقَلُ مَعْلُومَاتٍ وَرَاءَ الرِّسَالَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا. فَحِينَما نَسْمَعُ شَخْصًا يَتَكَلَّمُ -حَتَّى لو لم نَكُنْ نَرَاهُ- يَمَكِّنُنا أَنْ نَتَعَرَّفَ فِي الغالبِ عَلى عَدَدٍ مِنْ صِفاتِهِ حَتَّى لو كان غَريبًا عَنَّا، مِثْلُ التَّعَرُّفِ عَلى سِنِّهِ وَمِزاجِهِ ومركزِهِ الاجتماعيِّ أو الثقافيِّ، وأكثَرُ مِنْ هَذا التَّعَرُّفُ عَلى جِنسِهِ أَذْكَرُ هُوَ أمْ أَثَى.

وَيَأْتِي التَّعَرُّفُ عَلى الجِنسِ نَتِيجَةً وَجُودِ مَكُوناتٍ صَوْتِيَّةٍ مَعِينَةٍ تُمَيِّزُ صَوْتَ الرَّجُلِ عَنِ صَوْتِ المَراةِ يَمَكِّنُ أَنْ تَسْمَى "البَصْمَةُ الصَوْتِيَّةُ لِلجِنسِ" وَهَذِهِ المَكُوناتُ الصَوْتِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَمَكِّنُ السامِعَ مِنْ تَحديدِ جِنسِ المَتَكَلِّمِ دونَ أَنْ يَراهُ، حَتَّى لو حَاولَ المَتَكَلِّمُ أَنْ يَتَنَكَّرَ أو يَغطِّيَ فَمَهُ بِشَيءٍ.

وأَظْهَرَ فَرَقٍ فِي صَوْتِ الذَّكَرِ وَالأنثى البَالِغَيْنِ هُوَ "دَرَجَةُ الصَّوْتِ" أو التَّرْدُدُ الأَساسِيُّ لِلتَّصَويتِ الَّذِي يَعمَدُ عَلى طُولِ الوَتْرَيْنِ الصَوْتِيَيْنِ وَوزنِهِما وَدرَجَةِ تَوَثُّرِهِما. وَقَدْ خَلَقَ اللُّهُ المَراةَ بَوَتْرَيْنِ صَوْتِيَيْنِ أَقْصَرَ وَأَقْلُ ضَخامَةً وَأَكثَرَ قابِلِيَّةً لِلشَّدِّ مِنْ وَتْرِي الرَّجُلِ مِمَّا يُوْدِي إلى زِيادةِ سَرعَتِهِما وَعَدَدِ ذَبذباتِهِما فِي الثَّانِيَةِ وَهَذا بِدَوْرِهِ يُوْدِي إلى حِدَّةِ الصَّوْتِ. كَمَا خَلَقَ الرَّجُلَ بَوَتْرَيْنِ أَطْوَلَ وَأَضخَمَ مِمَّا يُوْدِي إلى قَلَّةِ ذَبذباتِهِما فِي الثَّانِيَةِ وَهَذا بِدَوْرِهِ يُوْدِي إلى عَمَقِ الصَّوْتِ.

وَهناكَ عَاملٌ ثانٍ يَمَيِّزُ بَينَ الجِنسَيْنِ وَهُوَ نَمُودُجُ الرِّينِ الحادِثِ فِي النَجويفِ الصَوْتِيِ فِوقِ الحَنجَريِّ فَالذَّكَورُ البَالِغونَ- فِي العادَةِ- يَمْلِكُونُ تَجاوِيفَ صَوْتِيَّةً فِوقَ حَنجَريَّةٍ أَكْبَرَ مِمَّا تَمْلِكُهُ الإناثُ وَلِذا فَهَمُ يَنتِجُونُ حَزْمًا صَوْتِيَّةً أَخْفَضَ.

كَمَا أَنَّ هَناكَ عَاملًا ثالِثًا وَهُوَ العادَاتُ الكلامِيَّةُ لِكُلِّ جِنسٍ، فَالبالِغونَ مِنَ الذَّكَورِ وَالإناثِ رُبَّمَا عَدَّلُوا مِنْ أوضاعِ أَعْضائِهِمِ النَطْقِيَّةِ لِحَفْضِ أو رَفْعِ تَرَدِّداتِ حَزْمِهِمِ الصَوْتِيَّةِ لِيَنتِجُوا أَصواتًا تَنجُحُ نَحوَ النَمُودِجِ المَرسُومِ لِكُلِّ جِنسٍ. وَهَذا وَاضِحٌ حِينَما تَحاولُ بَعْضُ النِّساءِ تَرقيقَ الأَصواتِ المَفخَمَةِ وَنَطقَها بِطَريقَةٍ تَنحُو بِها نَحوَ نَظيراتها المُرَقَّعةِ كَمَا يَحْدُثُ فِي نَطقِ القَافِ كافًا فِي كَلِماتٍ مِثْلِ "قَراءَةُ" وَالطَّاءِ تاءً فِي كَلِماتٍ مِثْلِ

"طائر" والضادِ دالاً في كلمات مثل "ضرب" والصادِ سينا في كلمات مثل "صُراخ"، وليس هذا فحسب بل إنه يتم تعديل تجاويفِ الجهازِ النطقي في الحُجْمِ أو الشُكْلِ عن طريق حَرَكَاتِ الرَّأْسِ والحَلْقِ والفَكِّ والشِّفَاهِ واللِّسَانِ، من أجل الوصولِ إلى الخصائصِ الصوتيةِ الملائمةِ للنموذجِ الصوتيِّ المتعارَفِ عليه لكلِّ من الذكورِ والإناثِ.

كذلك فإن المرأةَ تملك مجالاً متنوعاً للتنغيمِ، فهي تملك درجاتٍ من التنغيمِ أعلى وأخفضَ مما يملك الرجل كما أنها تملك نماذجَ تنغيميةً تعطي انطباعاً بالتساؤلِ والدهشةِ وطلبِ المساعدةِ وهي من النماذجِ التي تحبُّ المرأةُ استعمالها كثيراً.

ولكن عند أيِّ سنٍّ يمكن تمييز أصواتِ الجنسين؟

أثبتت الدراساتُ الميدانيةُ والتجريبيةُ صعوبةَ التمييزِ بين أصواتِ الجنسين في مرحلةِ الطفولةِ المبكرةِ، حتى إنَّ الأمَّ لا تستطيع أن تميزَ بين صراخِ البنتِ وصراخِ الولدِ إلى سنِّ السادسةِ، ويرجع سبب ذلك إلى ما أثبتته الدراسةُ التشريحيةُ من تساوي حنجرةِ الأولادِ والبناتِ في هذه السنِّ من حيثِ الحُجْمِ والطولِ والوزنِ وكذلك تساوي طولِ الفكِّينِ. وتعتبر السنُّ الحاسمةُ لتمييز صوتِ الذكْرِ عن الأنثى هي سنُّ الثانيةِ عشرةً للبناتِ وأكبرُ من هذا قليلاً للأولادِ.. إذ عند هذه السنِّ تحدثُ تغييراتٌ جسديةٌ كثيرةٌ في جهازِ النطقِ عند الذكورِ بما فيها نموُّ التجويقاتِ النطقيةِ، والنضجُ السريعُ للأوتارِ الصوتيةِ عن طريق استطالتها، وضخامتها. وتؤدي هذه التغييراتُ إلى عمقِ صوتِ الذكْرِ وتمييزه الواضح عن صوتِ الأنثى.

ومع ذلك قام العلماءُ بدراساتٍ مكثفةٍ للبحث عن إمكانيةِ تمييزِ أصواتِ الجنسين في سنِّ ما قبل البلوغِ انتهت إلى ما يأتي:

أولاً: أنه منذُ سنِّ مبكرةٍ، وقبل أن تتجه أعضاءُ النطقِ عند كلِّ فريقٍ إلى التمييزِ يتعمدُ أفرادُ كلِّ جنسٍ في حدودِ إمكاناتهِ التشريحيةِ تعديلَ ميكانيكيةِ النطقِ عندهم لتغيير نموذجِ الحُزْمِ الصوتيةِ أو اتساعاتِ ما بين الشفتينِ حتى يتطابق نُطقُهُ مع النموذجِ الملائمِ لِجِنْسِهِ.

ثانياً: أنه أمكن تمييزُ جنس المتكلمِ الطفل من خلال النماذج الإيقاعية والتنغيم فقط وبعد إخفاء معالم الكلمات المفردة والمقاطع.

ثالثاً: أنه في تجربةٍ قامتُ على تسجيل عَيِّنَاتٍ لكلام عددٍ من الأطفال بين سنِّ الخامسة والسادسة متساوين في الطولِ والوزنِ أمُكِّنَ التعرفُ على جنس المتكلمِ بنسبةٍ صحيحةٍ بلغت ٧٤٪. أمَّا قبل سنِّ الخامسة فلم يمكن التعرفُ على جنس الطفل بصورةٍ دقيقةٍ إذ إنَّ كثيراً من الأولاد في العينة صُنِّفوا على أنهم بناتٌ حتى مع نطقهم جملاً كاملةً.

وهناك نوعٌ آخر من بصمةِ الصوتِ يميز صوت الشخص عن الآخر، وتشبه مُكوِّناته بصمةَ الإصْبَعِ في عدم تطابقها عند اثنين كما تشبَّهها في إمكانية التعرفِ على صاحبها عن طريق تحليلها وهو ما يمكن أن نسميه "البصمة الصوتية للفرد".

وتقوم فكرة "البصمة الصوتية للفرد" على ما هو معروف من اختلاف الأفراد في حجم وشكل التجاويف الأنفية والفموية، وفي تركيب الحنجرة، وفي شكل الأوتار الصوتية، وغيرها من أعضاء النطق التي تشمل الأسنان واللسان والشفَتين، وحتى البلعوم والجهاز التنفسي بعامة، وأن الاختلاف في شكل هذه الأعضاء يعطي الترددات الصوتية خاصية ملازمة للتركيب الفيزيائي لمكونات هذه الأعضاء، هذا بالإضافة إلى ما ثبت أن عادات الشخص الكلامية تستقر عند سنِّ البلوغ.

وقد كان تحديد بصمة الشخص الصوتية يقوم في الماضي على حساسية أذن الحبير، وعلى تمرسه على التمييز بين الأصوات المتشابهة، ولكنه الآن أصبح يعتمد على تحويل الصوت إلى خطوط بيانية، وإشارات مكتوبة على الورق، تعكس ملامحه التمييزية وتعرض بتجمُّعها في شكل معين فديته المطلقة، ويتم ذلك عن طريق آلة تعرف باسم "المطياف" أو "الرأسم الطيفي"، ولما كان الرُّسْمُ الطيفيُّ لشخصٍ ما يختلف عن كلِّ الرسوم الطيفية التي يُنتجها المتكلمون الآخرون فإنه من الممكن عن طريق مقارنة الرُّسْمِ الطيفي لشخصٍ ما برسم آخر لا يُعرف صاحبه الحكمُ بما إذا كان الصوتان صادرين عن نفس الشخص أو عن شخصين مختلفين.

وتدرب كثير من الدول الآن العديد من الخبراء على التعرف على الأصوات، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية التي تقوم بتدريب الخبراء تحت إشراف "الجمعية الدولية للتعرف على الصوت". ويعطي الخبير قراره من خلال مدرّج تقييمي من أربع درجات تبدأ بأن الصوت المفحوص هو صوت شخص معين بكل تأكيد، ثم صوت هذا الشخص بدرجة كبيرة من التأكد، ثم بتأكد إلى حد ما، ثم بنفي أن يكون هذا الصوت هو صوته. وحين يختلط الأمر على الخبير فمن حقه الامتناع عن إبداء رأيه.

وإذا كان العلماء يشبهون بصمة الصوت ببصمة الإصبع، فإن الفارق الكبير بين البصمتين يجعل هذا التشبيه غير دقيق، لأن بصمة الصوت تعتمد على ما يفعله المتكلم أكثر بكثير مما هو عليه، كما يمكن أن تتدخل فيها عوامل خارجية مثل تقليد أصوات الآخرين^(١)، أو كون التسجيل الصوتي مختلطاً بأصوات أخرى غريبة، أو كونه قد خضع لتدخلات فنية عن طريق تركيب بعض الأصوات بطريقة اصطناعية، ومزجها بالصوت الحقيقي، أو كون صاحبه قد استخدم وسائل تمويهية، لتضليل الخبير كوضع مواد غريبة في الفم، أو سدّ فتحة الأنف من الخارج.

أما بصمات الأصابع فهي ثابتة غير قابلة للتدخل منذ كان الشخص جنينا في الشهر السادس من عمره. وحتى لو أجرى الشخص عملية جراحية بقصد تغيير بصمة إصبعه، فهي عملية مكلفة من ناحية، وخاسرة من ناحية أخرى، لأن طبقات الجلد العليا تتجدد من خلال الطبقة الثانية للجلد المسماة "المتجددة"، فهي تعيد البصمات المنتزعة إلى حالتها السابقة دون أدنى تعديل يطرأ عليها حتى نهاية العمر.

(١) من أبرز الأمثلة على دقة التقليد أن التلفزيون البريطاني عرض رسماً طيفياً لمقلد صوتي حاكى صوت هارولد ولسن رئيس الوزراء. وقد بدت المشابهة كبيرة جداً بين الصوت الأصلي والصوت المقلد بدرجة أكبر من المشابهة بين صوت المقلد وصوته الحقيقي من ناحية، وبين صوت ولسن في المناسبة التي سجلت، وصوته في مناسبات أخرى.

وإذا كان خبير البصمات الإصبعية في الماضي يعتمد على منظار مكبر وخبرة سابقة لعقد المقارنة مما كان يجعل معدلات الإنجاز لا تتجاوز عشرين بصمة في الساعة، فإن الأجهزة الحديثة المستخدمة الآن تستطيع مضاهاة عشرين ألف بصمة في الساعة الواحدة.

وإذا كان العلماء الآن ينفون نفيًا باتًا إمكانية تطابق شخصين في بصمات أصابعهما فقد سبق للقرآن أن قرر هذه الحقيقة حين قال " أيجسب الإنسان أن لن يجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه " وهكذا يبقى بنان كل إنسان علامة مميزة له، وتبقى إعادة كل "بنان" إلى أصله بعد الموت دليل القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود.

تطبيقات عملية لاستخدام البصمة الصوتية

بعد أن أمكن وضع بصمات للأصوات من خلال القيام بتحليلات فيزيائية للكلام ودراسة الموجات الصوتية اللغوية من خلال جهاز المطياف، أو الراسم الطيفي Spectrograph الذي يصدر صوراً مرئية تمثل المعالم السمعية للصوت الكلامي.. وبعد أن نشر لورنس كريستا عام ١٩٦٢ بحثه الرائد في موضوع "التعرف على البصمة الصوتية"، الذي طرح فيه إمكانية تصنيف الناس عن طريق تحليل النماذج المرئية التي يظهرها الراسم الطيفي لعشر كلمات شائعة..

وبعد أن اقتنع كثير من العلماء بفكرة "التفرد الصوتي" لكل شخص نتيجة الاختلاف في شكل التجاويف الصوتية (تجويفا الحلق والقم- تجويف الحنجرة - تجاويف الأنف - تجويف الشفتين) وأعضاء النطق، وطريقة التحريك لكل منها أثناء الكلام.. وبعد أن ثبت بالمتابعة العلمية دقة الحواسيب والراسمات الطيفية في التمييز بين الأصوات حتى لو حاول إنسان تغيير ملامح صوته، أو التخفي من خلال وضع مواد غريبة في فمه، أو تغطية شفتيه، أو أنفه أثناء الكلام..

بعد كل هذا ظهرت مجالات كثيرة استخدمت فيها البصمة الصوتية سواء في عالم الاقتصاد والبنوك، أو في عالم المحاكم والأدلة الجنائية، أو في عالم الطب والتعرف على الحالة الصحية للمتكلم، أو حتى في عالم المعارك والحروب:

١- فقد استخدمت البصمة الصوتية في مجال صرف الشيكات. فما على صاحب الحساب في البنك الذي يعمل بهذا النظام إلا الاتصال برقم معين في البنك، وإعطاؤه أوامر صوتية بصرف أو تحويل المبالغ التي يريد من حسابه، ويسجل البنك الأمر ويدخله في الحاسوب الخاص بالتمييز بين الأصوات ومضاهاتها للتأكد من أن هذا الصوت هو صوت صاحب الحساب.

وهناك نوع من الخزائن الحديدية يعمل بنظام " بصمة الصوت " فلا يفتح إلا إذا قال له صاحبه عبارة معينة، وغالبا ما تحفظ بهذه الخزائن المجوهرات والأوراق المالية والوثائق الهامة، والأشياء الثمينة.

٢- أما الجانب الثاني للتطبيقات العملية للبصمة الصوتية فهو ميدان القضاء، والتعرف على المجرمين من خلال تسجيلاتهم الصوتية ومقارنتها بأصواتهم. وقد كان الخلاف شديدا في المحاكم حول مصداقية هذا الدليل، ومدى الثقة في حجيته حينما كان خبير الأصوات يعتمد على حسه السمعي، أو على بعض الأجهزة التقليدية وعلى تدريبه الطويل، ومع ذلك اعتمدت بعض المحاكم المصرية والأمريكية والألمانية والكندية منذ الستينيات على التسجيلات الصوتية حين اطمأنت إلى مصداقيتها، وأصدرت قرارات بالإدانة أو البراءة في حالات التجسس، والرشوة، والابتزاز، وطلب الفدية، والتهديد بالقتل؛ وكلها قضايا تشترك في أن الصوت يشكل الدليل الأساسي للإدانة أو البراءة، لأنها كلها تتم عن طريق الاتصالات التليفونية.

وقد أصدرت محكمة جناح الموسكي حكمها في الجلسة رقم ٢٧٣٣ لعام ١٩٦٢ الصادر في ٤ فبراير ١٩٦٣ الذي قضى بإدانة المتهم، وبتعويض المدعى بالحق المدني، واستندت في حكمها - ضمن ما استندت - إلى الحديث المسجل للمتهم، الذي اعترف فيه بالتهمة، وإلى تقرير خبير الأصوات. وفي منتصف الستينيات أمسكت الشرطة الأمريكية بشاب كان قد أشعل النار في مؤسسة كبيرة، ثم خاطب إحدى محطات الإذاعة قائلا " إنه الفاعل " دون أن يذكر اسمه. وبعد شهور أمسكت الشرطة به، وأثبت الخبراء أنه صاحب المكالمات الهاتفية بعد أن تطابقت بصمته الصوتية في حديثه الهاتفي وحديثه العادي، واعترف المتهم في النهاية بجريمته.

وتضاءل الخلاف أو تلاشى الآن بعد تطور وسائل التحليل الصوتي، واستخدام أجهزة حاسوبية وراسمات طيفية متقدمة، فأصبحت المحاكم تعتمد على رأي خبير الأصوات بنسبة اطمئنان عالية فاقت نسبة ٩٩٪، وإن أثارت إشكالات أخرى تتعلق بمدى

قانونية التسجيل الصوتي لانتهاكه الحرية الشخصية، وقيامه على أسلوب غير مشروع وهو استراق السمع والتنصت.

وتعتبر نقطة الانتقال الحاسمة بين عصر الشك وعصر اليقين أو شبه اليقين اختراع جهاز الراسم الطيفي (سبكتروجراف) عام ١٩٧٢ الذي ظهر لأول مرة بولاية ميامي في محاولة للتعامل مع البصمة الصوتية، وقد أوصى مجلس حاكم ميامي رجال القضاء باستخدام البصمات الصوتية كسند قانوني يعتد به. وقد أخذت محاكم ولاية ميتشجان مثلاً بمبدأ البصمات الصوتية وأصدرت أحكامها في ٢٧ جناية عام ١٩٩٩ بإدانة المتهمين على الرغم من عدم وجود أدلة سوى بصمات أصواتهم في هذه القضايا. ويعد هذا تقدمت الأبحاث الصوتية وظهر "علم البصمات الصوتية" عام ١٩٨٢، وكذلك أنشأت ولاية ميتشجان المعهد العالي للبصمات الصوتية. وصارت الدول المقدمة تدخل الحواسيب إلى أجهزة رسم الأطياف (الاسبكتروجراف) لجعل البصمات الصوتية أكثر نقاء.

أما في الدول العربية فقد انعقد أول مؤتمر للأدلة الجنائية في الرياض عام ١٩٨٦ لتطوير التعامل مع البصمة الصوتية، بعد بصمات الأصابع. وفي عام ١٩٨٨ أخذت محكمة أمن الدولة العليا بمصر بتقرير خبير الأصوات في قضية "الناجون من النار" بعد أن أكد الخبير أن الصوت المسجل في الأشرطة للمتهمين فلان وفلان. وهناك أكثر من جهة في مصر الآن تطور منها دقيقا للتعرف على صاحب الصوت، منها "إدارة الأدلة الجنائية"، و"المركز القومي للبحوث" وذلك عن طريق استخدام حاسوب رقمي تخزن فيه جملة للشخص متضمنة المقاطع التي لها خواص صوتية أساسية شاملة للحروف الساكنة، والمتحركة، والمدغمة، والوقفية، ثم تقطع وتحول إلى أرقام تخزن في ذاكرة الكومبيوتر. وعند الرغبة في التعرف على صاحب الصوت بين مجموعة أصوات تجرى نفس العملية للأشخاص الجدد، وتتم المضاهاة آليا.

٣- أما في عالم الطب والعلاج، فقد أصبح ممكنا من خلال التحليلات الصوتية معرفة نوع المرض الموجود على الأوتار الصوتية مثل اللحميات، والارتشاحات، وشلل

الأوتار، وعن طريق هذه التحليلات يمكن المساهمة في التشخيص المبدي، ومتابعة التحسن في أداء المريض أثناء التدخل العلاجي للحكم على فعالية النتائج؛ مثل تقييم وظيفة الصوت باستخدام التحليلات الصوتية قبل إجراء العمليات الجراحية في الأوتار الصوتية، ثم تقييم ذلك بعد الجراحة. ومع استخدام أجهزة التحليل الصوتي يتم اختبار قدرة هذا الفرد على الاستفادة من التدريبات الصوتية، إلى جانب أن الأبحاث التي تجري حالياً تستهدف استخدام هذه البصمة الصوتية في الكشف عن أمراض الصوت والكلام.

٤- وقد كانت التطبيقات في مجال المعارك والحروب أسبق في الوجود من التطبيقات في مجالات السلم. وفي سبق المهندسون العسكريون حين نجحوا عام ١٩٤٣-١٩٤٤ في إنتاج أجهزة للتنصت اللاسلكي على الألمان واليابانيين في نهاية الحرب العالمية الثانية. ثم جرى تطوير لهذا النظام بعد الحرب بعامين حين ظهر لأول مرة ما يعرف "بالكلام المرئي"، وأصبح هذا الكلام علماً عسكرياً يطبق بتوسع وإمكانات هائلة خلال الحروب. ففي حرب يونيو ١٩٦٧ قامت إسرائيل بتوجيه أوامر هاتفية مزيفة إلى قادة بعض التشكيلات المقاتلة المصرية، استخدمت خلالها أصوات قادة مصريين وأسماءهم بهدف توجيه هذه التشكيلات المقاتلة إلى الهدف الخطأ. وشهدت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحرب تحرير الكويت ١٩٩١ أشكالاً أكثر تطوراً في عوالم الاستطلاع التليفوني واللاسلكي، ومعرفة القادة العسكريين من خلال تحليل بصماتهم الصوتية، وهم يتحدثون تحت أسماء منتحلة أو حركية كإجراء تأميني لأشخاصهم، ومهامهم الحربية الموكولة إليهم.

ولا تزال مجالات التطبيق لاستخدام البصمة الصوتية مفتوحة، والسباق العلمي دائراً على أشده بين الباحثين وعلماء الأصوات لتجاوز نسبة الـ ٩٩٪ والوصول إلى درجة اليقين. ولا يزال الاهتمام قائماً بإيجاد مجالات أخرى تطبيقية، كاستخدام البصمة الصوتية في التجارة للتمييز بين العملاء، والتعرف على المتحدثين من خلال الهاتف، واستخدامها في الهندسة لتمييز الأصوات غير العادية في الأجهزة والآلات.